المقتطف

الجزء الثاني من المجلد الثالث والتسعين

١ يوليو سنة ١٩٣٨ — ٣ جمادي الاولى سنة ١٣٥٧

تفسير طبائع العناصر

بعدد الكهيربات وترتيبها حول النواة

ما السرُّ في ليونة الذهب وقساوة الكربون وسير التيار الكهربائي

للفلزات اوصاف هي قوام شخصيتها على ما نحو ما للناس اوصاف بها يتميز انسان عن آخر. فبعض الفلزات كالذهب والفضة والنحاس ليِّن يمدُّ اسلاكاً ويطرق رقوقاً لا تزيد سماكة احدها على جزء من الف جزء من البوصة ومع ذلك تظلُّ اجزاؤها متصلة مرتبطة بعضها ببعض. هذه الفلزات هي خير موصلات الكهربائية المعروفة. وهناك فلزات اخرى كالتنستن والكروم والكروم والزئبق قاسية لا تلين فاذا طرقت بمطرقة تفرقت اجزاؤها كسراً [illegible] والكن سلكاً من التنستن هو خير ما يُرغَب فيه لمصابيح الكهربائية التي تضاء لان سلكاً من هذا الفلز موصل رديء الكهربائية فمقاومته لسريان تيارها فيه ترفع حرارته حتى [illegible] بواعث الاغتباط ان درجة انصهاره عالية جداً

ولا يخفى ان الفلزات التقية عناصر كبقية العناصر الاخرى — كالكربون والكبريت والنيتروجين، فهل كشف العلم اخيراً من الاسباب ما يمكنه من تفسير هذه الخواص التي تميِّز شخصية عنصر عن شخصية عنصر آخر او يجب ان نسلِّم بانها خواص أغدقتها عليها الطبيعة وكفى؟ في وسع العلم ان يفسِّر السرَّ في ان الالماس — وهو كربون صرف — اقسى المواد المعروفة على الاطلاق وعائق لسريان التيار الكهربائي فيه، او ان البزموت [illegible] عازل

جيّد ؟ وهل نستطيع ان نكشف عن السبب في بين النحاس وحسن توصيله الكهربائية ، وقساوة التيتانيوم وكونه موصلاً رديئاً لها ؟

ان السلوك الانساني مرتبط ارتباطاً وثيقاً بعوامل الوراثة التي تضبط الصفات الوراثية وكذلك تصرف العناصر مرتبط على ما يلوح بالكهارب او الالكترونات . وقد انقضى اكثر من قرن من الزمان منذ أثبت دالتن ان اقوام العناصر ذرات atoms وان ذرات كلّ عنصر متشابهة فاذا اخذنا شذرة من الذهب ونظرنا اليها فاعا تنظر الى ملايين الملايين من ذرات الذهب مرتبة على نمط خاص وكل ذرة منها مرتبطة بالذرة الاخرى بطريقة خفية . وفي الانسان كذلك نجد هذا الترتيب ترتيب الذرات وهو أدق نظاماً منهُ في الذهب

فما هو العامل الذي يعين هذا الترتيب ؟

والجواب : هو عدد الكهيربات وترتيبها

قد العلم في العصر الحديث الى الذرّة ، فكشف ان الذرّة ليست كرة قاسية بل هي في نظر علمائه نظام معقد البناء . وقد تشبّه كل ذرّة بجماعة من الجنود في حالة المناورة . فالجماعات الكبيرة يقابلها بين الذرات ذرات العناصر الثقيلة . والجماعات الصغيرة تقابلها ذرات العناصر الخفيفة . وفي قلب الجماعة تتركز القوة يقابلها في الذرة نواتها حيث تتركز الكتلة . وعلى حواشي الجيش الكشافون والحرّاس يقابلهم في الذرة الكهيربات التي تدور في مدارات بعيدة عن النواة . فذرات العناصر الخفيفة نجد فيها عدد الكهيربات الخارجية قليلاً ، على نحو ما نجد الكشافين والحراس الذين يحيطون بجماعة صغيرة من الجيش فلا تل . وأما ذرات العناصر الكبيرة فتجد فيها الكهيربات الخارجية كثيرة ولها اكثر من مدار واحد على نحو ما يتحرك الكشافون الكثار حول جيش كبير في مناطق متراكزة متعددة . وكذلك نستطيع ان نتخيل الذرة كتلة مركزية تعرف بالنواة ، صغيرة الحجم كبيرة الكتلة ، تحيط بها على مسافات منها الكهيربات ، وعدد هذه الكهيربات يتفاوت وفقاً لكتلة النواة

الى هذه الكهيربات الخارجية المردُّ في فهم خواص العناصر . فالكشافون في كل جيش منظم لهم مواقع معينة يتربصون فيها . وكذلك في ذرات العناصر تخرج النواة مناطق ، وكرات مفرغة خيالية تتحرك الكهيربات فيها . وكل منطقة منها لا تتسع لاكثر من ثمانية كهيربات الا المنطقة الاولى فانها تكتفي احياناً بكهيربين . فاذا تمّ العدد في المنطقة الاولى التي تحوي النواة ، وكان لتلك الذرة اكثر من كهيربين ، وجب على الكهيربات الباقية ان تنتظم في منطقة ثانية خارج المنطقة الاولى . فاذا احتشدت المنطقة الثانية بثمانية كهيربات وكان للذرّة اكثر من عشرة كهيربات وجب على الكهيربات الباقية ان تنتظم في منطقة ثالثة وهلمّ جرًّا

على ان بعض العناصر لهُ من الكهيربات ما يؤلف منطقة كاملة أو منطقتين كالنير. فالذرة في هذا العنصر كاملة قوى الدفاع . لا تحتاج الى نجدة من غيرها . فتسير في طريقها مستقلة عن رفاقها . وان كان تركيبها الكهيربي يميزها بهذه الصفة ، فتجمع الذرات التي من هذا النبيل متشابهة ، والمادة التي ذرّاتها على هذا النمط تكون غازات . ومن هذه العناصر الهليوم والنيون والارجون وهي الغازات التي لا تتفاعل تفاعلاً كيميائيًا الاّ بالقوة فالهليوم كهيربان يؤلفان منطقته الاولى . والنيون عشرة كهيربات تؤلفان منطقتين حول نواته أولاهما فيها كهربان والثانية ثمانية

إن هذه الكهيربات التي خارج النواة ، تقوم بحراسة النواة ، فتثبت في أماكنها إذا أصابتها قوة خافية تبعدها عن أماكنها ولكنها لا تلبث حتى تعود اليها . والعالم مشحون بالقوى في غاز النيون بحركة هذه الكهيربات وقد ابعدت عن اماكنها بقوة التيار الكهربائي ثم عادت اليها

واذا كانت الغازات (النبيلة) كالنيون والارجون متصفة بالاكتفاء الذاتي في ذراتها بالكهيربات التي لا تتجمع هذه الذرات ، فان الالماس يخالف هذه الغازات على خط مستقيم ، ذلك ان ذرّاته لا يسعها ان تعيش وحدها ، بل هي أبداً متشابكة بالذرات الاخرى متحدة معها

والالماس كما تعلم كربون صرف . ولذرته ستة كهيربات يحيط بالنواة اثنان منها في المنطقة الاولى حول النواة والاربعة الباقية في المنطقة الثانية . ولكن منطقة الكهيربات حول النواة لا تستقر الاّ اذا اصبحت تحتوي على ثمانية كهيربات . واذن فالذرة في الكربون لها ميل قوي لتركيبها الذاتي ان يصبح حولها ثمانية كهيربات . ولما كانت كل ذرة كربون في هذا الميل فمن الطبيعي ان تتعاون الذرات ما على الاشتراك في تحقيق مطالبها بعضها بعضاً . وهذا الاشتراك يكون على الطريقة التالية : في الوسط ذرة كربون حول نواتها أربعة كهيربات . فاذا كانت ذرة أخرى على بعد منها تجاذبت الذرتان فتشتركان في كهيربين . فاذا كانت هذه الذرة الاخرى أيضاً ذرات استطاعت ان تشترك مع كل منها في كهربين فتصبح ذرتها كأنها تحتوي فيها على ثمانية كهيربات . أما الذرة التي حول ذرتنا الاصلية فلسبب تعاونها مع ذرات أخرى تكون قد تشابكت الذرات جميعاً . (أنظر الصورة) ولما كان عدد الذرات

بين ذرات الكربون ، وكيف تشتبك باشتراكها جميعاً بعضها في ذرات بعض فهنا سر قصتنا كلها

الاّ ان هناك مسألة لا بدّ من تفسيرها في اشتباك هذه الكهيربات بعضها ببعض في ذرات الكربون . فالمعلوم ان الكهيربات سالبة الكهربائية والدقائق المشحونة شحنة كهربائية من نوع واحد تتنافر وتتباعد . فكيف تستطيع هذه الكهيربات في ذرات الكربون المختلفة ان تتشابك وتتماسك على نحو ما تصورنا ووضحنا في الرسم . والرأي ان هذه الكهيربات تدور على

محاورها دوراناً سريعاً جدًّا فتنشىء في دورانها حقلاً مغنطيسيًّا حولها . فاذا كان كهربان من ذرتين متجاورتين يدوران في اتجاه واحد دفع أحدهما الآخر ، اما اذا كانا يدوران في اتجاهين متناقضين فان الحقلين يشتبكان فيتماسك الكهربان

أما عنصر السليكون فذرته أثقل من ذرة الكربون وأكبر وفيها ١٤ كهرباً . فاثنان منها تنشىء حول النواة منطقتين مستقرتين مكتفيتين، والاربعة الباقية تكون حول المنطقة الاولى غير مكتفية ولا مستقرة، بل تميل الى إكمال نفسها على نحو ما تفعل ذرة الكربون ولذلك نجد ان صفات الكربون والسليكون متشابهة . وعلى ذلك يستطاع ان ترتبط ذرة من الكربون بذرة من السليكون كما ترتبط ذرتان من الكربون او من السليكون . فاذا ارتبطا كان لنا كاربيد السليكون (كاربورندوم) وهو يكاد يجاري الالماس قساوة ويستعمل للحك (abrasion) . واذن يصح ان نقول ان العناصر التي تترابط ذراتها هذا النوع من الترابط هي على العموم مواد قاسية قصفة

فاذا التفتنا الى الفلزات رأينا ذرة النحاس ولها في منطقتها الخارجية — أي في أبعد مناطق الكهربات عن النواة — كهرب واحد[1] . فاذا عدنا الى التشبيه العسكري وجدنا ان هذه الجماعة الكبيرة من الجيش (المقابلة لذرة كبيرة) لها حارس واحد . وهذا الحارس يحتاج الى ان يكون سريع التنقل لكي يتمكن من القيام بمهمته . فهو يحرس حيناً ناحية من جماعته ثم يسرع في الانتقال الى الناحية الاخرى . وكذلك يتنقل هذا الكهرب حول ذرته فكأنه ينتقل بين الذرات . ففي هذه الحالة هذه لا يمكن ان تكون كتلة النحاس كتلة جامدة لان الكهربات دائمة التنقل للوقوف في مواقع جديدة وفقاً لمقتضيات الحالة . ولكن الحارس في الجيش ، والكهرب المفرد في مابين ذرات النحاس، يحفظ الصلة بين وحدات الجيش وبين ذرات النحاس

ولذلك نجد النحاس مرناً ، يمكن طرقه رقوقاً ومده اسلاكاً من غير ان ينقصف . ولا يخفى ان النحاس موصل جيد للكهربائية والحرارة ، وأما الالماس فلا يوصل احداهما . والحرارة تزيد اهتزاز الذرات . فالذرات المتحركة تستطيع ان تنقل اهتزازها من ذرة الى أخرى حالة ان الذرات الجامدة في مكانها لا تستطيع ذلك . وبهذا تفسر قدرة النحاس على توصيل الحرارة وعجز الالماس عن ذلك

والعلم الحديث يحسب التيار الكهربائي تياراً من الكهربات . فعندما يندفع عدد من الكهربات من بطرية كهربائية الى طرف سلك يحدث تحرك في الكهربات التي في ذلك السلك من أوله الى آخره . فكأن أمامنا صفًّا من حجارة الدومينو (راجع الصورة) فاذا أضفت الى

---

(١) هذا القول للدكتور سدني فرنش استاذ الكيمياء المساعد في جامعة كورنيت الاميركية في السيتفنك اميركان ولكن عدد النحاس الذري ٢٩ اذ له ٢٩ كهرباً ولا يمكن ترتيبها وفقاً لقاعدة الثانية بحيث يكون لها في قشرتها الخارجية كهرب واحد الا اذا اخذنا بالقاعدة المبسوطة في الفقرة الثانية من صفحة ١٣٥ من هذا المقال

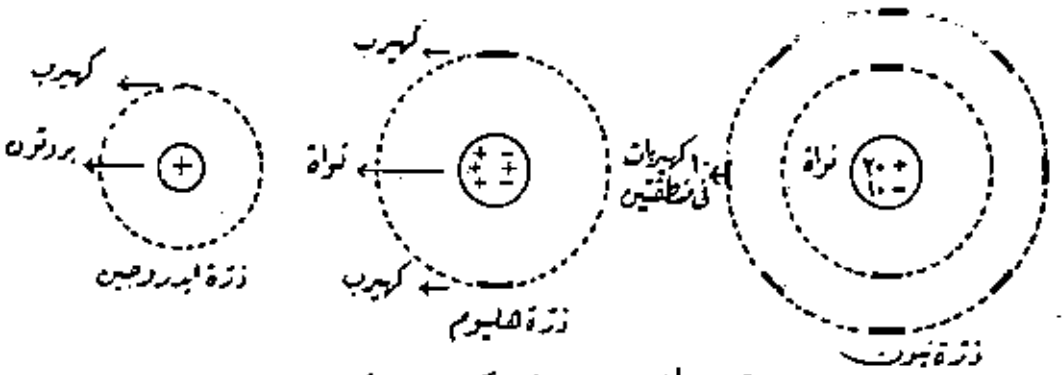

وفقاً لتصور العالم الأمريكى لانجمير

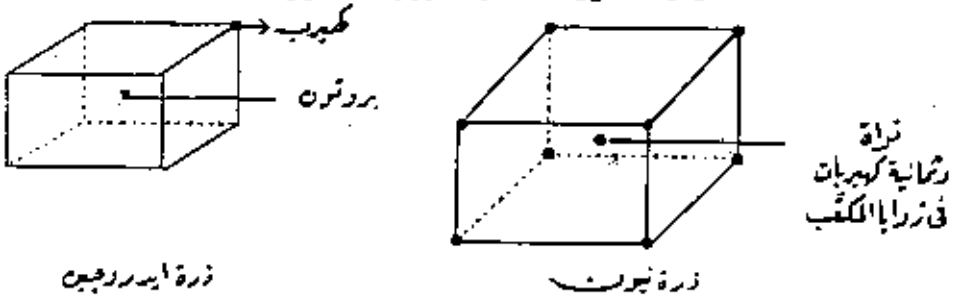

وفقاً لتصور العالم الأمريكى لويس

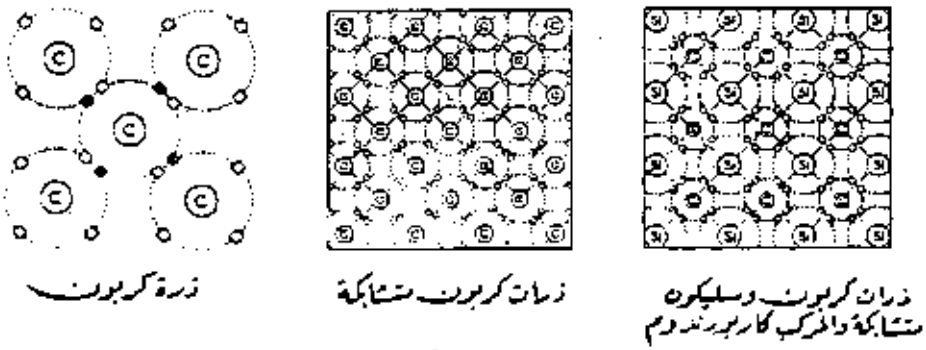

نقلاً عن السينتفك امريكان عدد يونيو ١٩٣٨

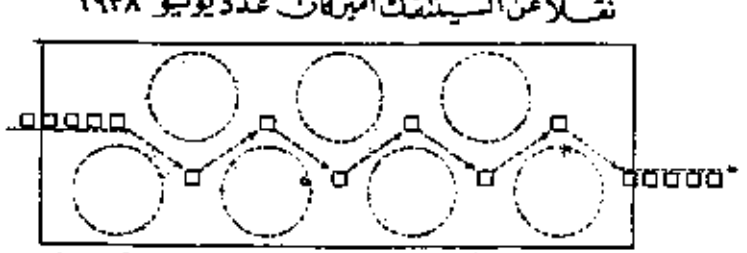

تمثيل لسريان التيار الكهربائى فى سلك من النحاس بتحرك الكهيربات بين الذرات

احد طرفي هذا الصف حجراً جديداً وحرّكتهُ بحيث يحتل مكان الحجر الاول من ناحيتك حركت كلّ حجر في الصفّ من مكانهِ الى المكان الذي يليه

فاذا لم يكن في المادة كهيربات متحركة — مثل كهيربات النحاس الخارجية — تعذّر الايصال الكهربائي . وسهولة انتقال التيار مرتبطة بقدرة الكهيربات على التحرك وسرعته . ولذلك نجد ان النحاس والذهب والفضة — وفي كل منها كهيرب واحد خارجي — خير المواد الموصلة للكهربائية. واما الالماس فالكهيربات فيهِ جامدة مربوطة بغيرها ثابتة في مكانها فهو لذلك لا يصلح موصلاً للكهربائية

***

وصفنا حتى الآن ثلاثة ضروب من انقوام الكهيربي ، فمنهُ اولاً الذرة التي لها ثمانية كهيربات في حلقتها الخارجية فذراتها مستقرة ولا تتجمع . وثانياً الذرة التي بها اربع كهيربات في حلقتها الخارجية فهي تميل الى الاستبدال بذرّات من نوعها فيكون العنصر نفسهُ او المركبات التي تركب منهُ جامدة صلبة . وثالثاً الذرة التي لها كهيرب واحد في حلقتها الخارجية فهي ذرة مادة ليّنة تطرق وتمدّ وتوصل الكهربائية والحرارة . فالنوع الاول هو الفلزات غير القعّالة والثاني المواد القاسية القصفة والثالث الفلزات اللينة . فاذا أردنا ان نشبه أوصاف هذه العناصر بأخلاق الناس قلنا ان الاول يمثل خلق الرجل المكتفي بنفسهِ والثاني خلق الرجل الذي يميل الى التعاون والثالث الرجل الكثير التنقل والحركة — وبين هذه الانواع المحدّدة نجد ضروباً من الاخلاق متوسطة بين هذا وذاك او بين ذاك وذلك

ومن الفلزات عناصر لذراتها كهيربان خارجيان . فهي أقسى قليلاً من النحاس وأقل قليلاً منهُ ايصالاً للكهربائية والحرارة . اما الفلزات التي لذرّاتها ثلاثة كهيربات خارجية فهي أقسى من الفلزات الثانية وأقل ايصالاً منها للحرارة والكهربائية

ولكن عنصر التيتانيوم يستوقف نظرنا . فهو قاس قصفٌ وفي الوقت عينهِ موصل لا بأس بهِ للتيار الكهربائي . وهو فلزٌ لا ريب فيهِ . الا ان لذرّتهِ في ابعد مناطقها عن النواة أربعة كهيربات . وعند القصفا يجب ان نجعل خواصهُ قريبة او مشابهة من خواص الكربون . ولكنهُ ليس كذلك

واذاً فعدد الكهيربات في المنطقة الخارجية من الذرّة ليس بحدّ ذاتهِ العامل الحاسم الفرد في الموضوع دائماً . فعدد الكربون الذري ٦ اي لذرتهِ ستة كهيربات اثنان منها يؤلفان المنطقة الاولى المستقرة حول النواة والاربعة الاخرى تؤلف المنطقة الثانية وهي التي تشتبك بكهيربات ذرات اخرى من الكربون او بكهيربات ذرات اسليكون . واما ذرة التيتانيوم فأكبر حجماً

ذلك بان رقمها الذري ٢٢ اي ان لها ٢٢ كهيراً ، منها اثنان يؤلفان المنطقة الاولى حول النواة تليها ذلك منطقتان كلٌّ منها ٨ كهيربات فثالثة فيها اربعة كهيربات . ولو كان عدد الذرّات الخارجية وحده العامل الحاسم لشابه التيتانيوم والكربون . ولكن منطقة الكهيربات الاربعة البعد عن النواة في ذرة التيتانيوم من الكهيربات الاربعة التي في ذرة الكربون . فاذا عدنا الى تشبيه الالكترونات الخارجية بالحرّاس في الجيش وجدنا ان كهيربات التيتانيوم الخارجية يجب ان تكون اسهل تحركاً وتنقلاً لاتساع المساحة التي عليها ان تحرسها . حالة ان صغر حجم الذرة في عنصر الكربون يجعل هذه الكهيربات اكثر استقراراً لضيق المساحة التي عليها ان تحرسها . ولذلك تختلف الحراس وفقاً لبعد الكهيربات الخارجية عن النواة كذلك

ثم هناك عامل آخر يميل بالعناصر الثقيلة الى طبائع الفلزات . فالذرات التي لها ثلاثة كهيربات خارجية او اكثر من ثلاثة ، يميل زوج من هذه الكهيربات الى الهبوط من منطقته الى منطقة اقرب الى النواة ، فيبقى في المنطقة الخارجية كهيرب واحد . وهذا يجعل بعض طبائعه شبيهاً بطبائع الفلزات . فعنصر الالومنيوم له ثلاثة كهيربات خارجية ، ولكنه مع ذلك يشبه الفلزات في لينه وايصاله للكهربائية . ولذلك يصح ان يوضع بين الفلزات في طبقة النحاس والذهب والفضة . والبزموت على الرغم من خمسة كهيربات خارجية ، وعلى الرغم من انهُ قاس وقصف ، يتصف ببعض اوصاف الفلزات . وطبائعهُ الفلزية تعزى الى كبر ذرته والى ميل زوج من كهيرباته الخارجية الى السقوط من منطقتها الى منطقة اقرب منها الى نواة الذرّة

فشخصيات العناصر لا تبدو في الكهيربات ، بل ان الكهيربات تعينها ويمكن معرفة خصائص العناصر من عددها وترتيبها حول النواة

في ناحية نجد الفلزات « النبيلة » ممثلة في عنصر النيون — ذرّاتهُ مكتفية بذاتها لان منطقتها الخارجية من الكهيربات تحتوي على العدد الذهبي — ثمانية . ثم يليها الكربون وصفتهُ الخاصة الاشتراكية والتعاون . فكلّ ذرة من ذرّاته مرتبطة باربع ذرّات أخرى عن طريق كهيرباتها الاربعة . ثم في الطرف الآخر نجد النحاس والفضة والذهب وغيرها وهي ليّنة قابلة للمدّ والطرق وذلك لان مناطقها الخارجية تحتوي على كهيرب او كهيربين او ثلاثة كهيربات فقط ولكن ما تخسرهُ الذرة في عدد كهيرباتها الخارجية تعوضهُ بسرعة حركة هذه الكهيربات وسهولة تنقلها

والقاعدة الاساسية في هذا النظام هي قاعدة (الرقم ثمانية)

والبحث في طبائع العناصر ليس بالبحث الحديث . فقد حاول الكيماوي الفرنسي الشهير لافوازييه من قرن ونصف قرن ان ينفذ الى السر في اختلاف طبائع العناصر فخاب في ما يصبو اليه ثم عمد برزيليوس السويدي الى ذلك فلم يكن أكثر توفيقاً من صاحبه الفرنسي . ثم كشف

مندليف الروسي الجدول الدوري وقاعدته انهُ اذا رتبت العناصر ترتيباً أفقيًّا بحسب أوزانها الذرية وجد ان العناصر التي أرقامها ١ و ٨ و ١٥ متشابهة الصفات اي ان العناصر التي تقع في كل خانة ثامنة في الجدول متشابهة فقال ان خواص العناصر صفات دورية لاوزانها الذرية . ثم كشفت النظرية الكهربائية (الالكترونية) وتأيدت وأبتدع لويس الاميركي صورة مكعبة للذرة فقال في قلب كل ذرة نواة وحول هذه النواة مكعبات تحتوي على عدد متباين من الكهربات في أماكن معينة . وكل ذرة تميل الى ان يكون لها كهرب واحد في كل زاوية من المكعب او المكعبات التي حولها . ثم جاء لنسبر وحوَّل صورة لويس الذرية من صورة مكعبة الى صورة كروية

كان لنيثزر قد تبين وهو يدرس الغازات عند مماسَّتها فلز التنستن وصلاحيتهُ ان يكون سلكاً للمصباح الكهربائي ، أن الهليوم عددهُ الذري ٢ والنيون عدده الذري ١٠ وان هذين العنصرين مستقران من الناحية الكيمياوية لا فعل كيمياوي لهما يذكر . فقال في نفسه ان الكهربات التي خارج القوى في ذرَّات هذين العنصرين يجب ان تكون مركبة تركيباً مستقرًّا يجعل الفعل الكيمياوي لهذين العنصرين ضيفاً او منتفياً . فتصور ذرَّة الهليوم مركبة من نواة وحولها كهربان يدوران في كرة مفرغة حول النواة . وان هذا التركيب تركيب مستقر . وكذلك النيون لهُ حول نواته عشرة كهربات تدور في كرتين حول النواة ، الاولى وهي أقربهما الى النواة فيها كهربان — مثل كهربي الهليوم — والثانية فيها ثمانية كهربات وهو بناء مستقر

اما الايدروجين فلهُ كهرب واحد في الكرة المفرغة التي حول نواته . فذرتهُ اذاً تميل الى ان تكمل بناءها حتى تصبح مستقرة فتجذب اليها كهرباً من ذرَّة أخرى . وهذا سرُّ فعل الايدروجين الكيمياوي . فاذا التقت ذرة الايدروجين بذرة اوكسجين في احوال مؤاتية — وذرة الاكسجين فيها ثمانية كهربات اثنان في الكرة الاولى حول النواة وهو بناء مستقر والثانية فيها ستة كهربات فهي تحتاج الى كهربين تصبح بناء مستقرًّا — تعاونت ذرتان من الايدروجين على ذرة من الاوكسجين فاجذان يختلفها وتتحد الثلاث الذرَّات فيتركب جزيء الماء وهو مستقرّ

وعلى هذا النسق مضى لنغمور في تطبيق هذا الرأي ففسَّر به الالفة الكيمياوية والكفاءة الكيمياوية و [illegible] الايدروجين على الجدول الدوري العام على أساس عدد كهربات الذرة في ميدان الكهربات نرى كيف يفسِّر ترتيبهُ الذي ظهر فيه ان العنصر الثامن يشبه العنصر الاول ثم ان العنصر الثاني بعد ذلك — اي الخامس عشر في السلسلة الرقمية — يشبه الثاني والاول وهكذا . وقد كان اعتمادنا في كتابة هذا المقال على مجلة السينتفك اميركان على الناس وكتب حديثة أخرى في الطبيعة والكيمياء

اسكر

للشاعر الفرنسي بودلير

كن دائماً سكران فالسر كله في السكر
اذا شئت ألاّ تشعر بأعباء الزمان تنقض ظهرك وتميل بك الى الارض

اذا شئت ذلك فاسكر دائماً ولا تقف !
ولكن بمَ تسكر ؟ بالخمر او الشعر او الفضيلة او . . . ولكن اسكر

اذا كنتَ يوماً على درجات قصر او على بساط عشب،
او في عزلة قاطبة في حجرتك ، وتيقظت وقد نقص سكرك او هدأ —
فاسأل الرياح ، والامواج والكواكب والعصافير ،
واسأل الساعة ، وكل ما يمرّ ويفرّ ، وكل ما يبكي ويئن،
وكل ما يتدحرج ، وكل ما ينشدو وكل ما يتكلم .
اسألها عن الساعة . . . .

فالرياح والامواج والكواكب والعصافير والساعة ستجيبك :
« الساعة ساعة السكر »
اذا شئت ألاّ تكون عبداً وضحية للزمان فاسكر واسكر
بدون انقطاع ،بخمر او بشعر او بفضيلة او بما ترغب

[نقلها : خليل هنداوي]

تقدم علوم الطب

— ١ —

للدكتور شريف عسيران

صدر حديثاً كتاب علمي جليل من أنفس الكتب الطبية موضوعه « تقدم العلم » دبجه أقلام أئمة علماء الانكليز في هذا العصر أمثال السر جيمز جينز والسر وليم برآج وعالمي وهكسل وابلتن . وقد نشر فيه الدكتور ادورد ملاني فصلا نفيساً عن تقدم علوم الطب فيه فائدة للاطباء وعامة الناس . فنقلته لينتفع به الناطقون بالضاد :

ان غرضي من هذه المحاضرة تلخيص علوم الطب في جميع العصور وقد اخترت هذا الموضوع لاني صرفت معظم اوقاتي في الاشتغال بالمشكلات الطبية ولاني رأيت ان اعرض موضوعاً لهُ صلة بحياة كل منا يزيد تقديرنا للخطوات الكبرى التي خطاها علم الحياة في العصر الحديث ولاسيما في عهدنا

من الحقائق الطريفة ان الناس كانوا مشغوفين منذ اقدم عصور التاريخ بدرس الامراض والقضاء عليها ومن الغريب والحالة هذه ان لا تتقدم معرفة الامراض الحقيقية والسيطرة عليها قبل مائة سنة الاَّ تقدماً يسيراً . فما السبب يا ترى ؟ هل كان البشر في ذلك الوقت دونا ذكاء؟ من المؤكد ليس هذا السبب لان البشر كانوا قديماً يجاروننا ذكاء . ومن رأيي ان هناك ثلاثة اسباب للتأخر خلال تلك الحقبة . اولها : ضلال الناس قديماً — او ما يظهر ضلالاً — الطرق المؤدية الى نظرتهم الصحيحة للمشكلات الصحية والامراض . (٢) مضى على الانسان حين من الدهر قبل ان يدرك انهُ لا يستطيع فهم حقيقة الجسم الانساني ما لم يدرسهُ درساً مباشراً في حالتي الصحة والمرض . (٣) لم يقدر الناس الاختبارات الطبية نسبيًّا الاَّ في الازمنة المتأخرة فكان على الانسان ان يتدرب اولاً على قيمة الملاحظة ثم تحقق بعد ذلك ان التجربة لا تكفي

ما لم تكن مقرونة بالتجارب وقد ظلت النظريات مسيطرة عليه حتى حالت بينه وبين الملاحظة الجدية في البحث والاستقصاء

وسأشرح الآن اثر هذه العوامل في تقدم الطب . أما بشأن فساد نظر الناس في الصحة والمرض فنطلع من المصريين والآشوريين والبابليين على الرغم من اهتمامهم بالأمراض نظروا اليها نظرة شيء خارق للطبيعة منبعثة من قوة سحرية تسلط الارواح الشريرة على الجسم ولا يمكن القضاء عليها ما لم تخرج تلك الروح . ويمكن الحيلولة دون دخولها او منعها بالتعاويذ والرقى ولكن الصلوات والتضرعات ضرورية لطردها من جسم المريض وبعد طردها يصلح ما فسد من الاعضاء بالعقاقير كالافيون والشوكران والسفندل وزيت الخروع الخ . وكان التحنيط شائعاً جداً في تلك الازمنة كما ان مهنة الحراقة كانت مزدهرة . ويلذ لنا ان نتذكر ان الكبد كانت بيت القصيد في هذه الاهداف فكانوا يتكهنون بالمستقبل بمراقبة دم وحجم وشكل كل جزء من كبد القرابين التي تقدم . ومن الغريب ان حصر عناية الاقدمين آلاف السنين في عضو واحد من الاعضاء الداخلية وهو الكبد . تأثيرها فيهم ذلك التأثير لم يكن حافزاً لهم الى استقصاء غيرها من الاعضاء ولم يحملهم على الاعتقاد بان المرض من طبيعة الحياة ، واعتقادهم به انه من خوارق الطبيعة حال دون تقدم معرفتهم اياه ولنظرتهم اليه نظرة صحيحة

ومن الحقائق الطريفة انه رغماً عن ان صناعة الطب كانت منظمة بعض التنظيم في تلك الايام الخالية لم يُنصّ على عهد الصلوات والتضرعات فكان للكهنة النصيب الاوفر من ممارسة هذه الصناعة وفي دستور شريعة حمورابي الذي كشف مؤخراً وهو يعود الى سنة ٢٠٠٠ قبل المسيح على الالواح البابلية دليل على وجود أساس المجاملات الطبية في ذلك العهد وفيه كلام على القوانين الدينية والمدنية والطبية لممارسة الطب وتعاليم عديدة للاطباء نذكر منها اثنين :

(١) اذا عالج طبيب جرحاً شديداً لفتى بسكين من شبهان Bronze وشفى ذلك الرجل او فتح خراجاً في عين فتى بسكين من شبهان يتقاضى عشر شكلات [١] فضة

(٢) اذا عالج طبيب جرحاً شديداً لفتى بسكين من شبهان وسبب وفاته أو فتح خراجاً في عينه آل الى فقدها فيجب قطع يديه

ألم يكن الطب مدعاة للدهشة في تلك الايام ؟

ومن الازمنة التي اتصفت بعقم الطب الناشئ عن جهل الناس حقيقة الجسم الانساني ، الاعصر المتوسطة التي ابتدأت من القرن الخامس الى السادس عشر وجاءت اثر انقراض اليونان والرومان انقراضاً كاملاً بوجه التقريب وكانت غزوات البرابرة من جهة وتوالي الاوبئة المهلكة من

(١) وحدة العملة البابلية

جهة ثانية أقوى من الاولى عاملاً مؤثراً في أفول تلك المدنية . وحيث ان العلم والثقافة كانا في قبضة الكنيسة في تلك العصور فقد ظلّ العقل البشري متأثراً بالنزعة الدينية وكان الناس لايقيمون شأناً في الحياة الاّ للموت والديمومة والسماء وجهنم والنفس الانسانية هي الكل في الكل والجسد لاشيء . وحيث ان الصحة والمرض من مستلزمات الجسد فلم يقم لها وزن كبير وظلّ العالم المتمدن بأسره متأثراً بالعقائد المسيحية كما يستنتج من كتابة رجال ذلك العصر البارزين أمثال ترتوليان Tertullian الذي قال لا لزوم للبحث العلمي بوجود الانجيل

وما بين هذين الزمنين الطويلين العقيمين زمن الاشوريين والبابليين والمصريين وزمن العصور الوسطى ، دور ثقافة عظيم وهي ثقافة اليونان والرومان التي أثرت في الطب مثلما أثرت في حياة العلم العقلية والعملية . وبعد ان مرّت هذه الثقافة في أدوار مختلفة من صعود وهبوط منذ ازدهارها حتى وقتنا الحاضر ظلت محتفظة بتأثيرها في رجال الطب فكل منا يقدر عظمة أبقراط ومدرسته وأرسطاطاليس وجالينوس واضرابهم . فاليونان اول من أوجد الطب الصحيح وقد حاولوا استئصال المعتقدات الراسخة منذ زمن طويل بأن الامراض متولدة من الارواح الشريرة ولأول مرّة في التاريخ عُدّت الامراض من الامور الطبيعية التي لا يمكن التوصل الى معرفتها قبل درسها وملاحظتها . وجعلوا « العقل الصحيح في الجسم الصحيح » أغلى أماني الحياة . وللتوصل الى هذه الغاية يجب ان يعيش المرء أحسن وأقصى انعيشة الطبيعية وقدروا تأثير الطبيعة في الشفاء أعظم تقدير . ان مثل أبقراط العليا في الآداب الطبية تعد حتى اليوم من أسمى الصفات التي يجدر أن يتصف بها الطبيب . ولا يستطيع ان ينكر المرء ان نظر اليونان الى الجسم البشري سواء أمن وجهة الملاحظة كان ام من وجهة البحث العلمي ، كان أول عامل في تقدم علم الطب . ومع ذلك لم تخل تعاليمهم من الحشو الذي اعترض سير دولاب التقدم . ونذكر على سبيل المثال عقيدتهم ان الدم والبلغم والصفراء والسوداء هي العناصر الاربعة المسيطرة على الجسم وهي مولدة الامزجة الاربعة المزاج الدموي والبلغمي والصفراوي والسوداوي فاذا توازنت هذه الامزجة ظلّ الجسم صحيحاً واذا اختلت اعتلت صحة الانسان . وسنرى فيما بعد ان الطب ظلّ متأثراً بهذه العقيدة حتى بعد انطفاء نور الثقافة اليونانية وبعثها من جديد وكان لا بدّ من تحطيمها ليتسنى لهذا العلم التقدم المنشود

إن السبب الرئيسي الثاني لبطء تقدم الطب الطويل الذي ذكرته في بدء محاضرتي هو تأخر الناس في ادراكهم ان معرفة بنية الجسم البشري ضرورية للتوصل الى كنه الامراض وكان هذا العامل من العوامل التي أخرت سرعة تقدم الطب كما كان ينتظر في إبّان عصر الثقافة اليونانية لان تشريح الجسم الانساني كان محرماً عند الاشوريين والبابليين والمصريين حتى اليونانيين أنفسهم

فكانت معرفة الاعضاء والانسجة معرفة حقيقية متعذرة في حالتي الصحة والمرض . وصحيح ان البطالسة بدأوا درس التشريح سنة ٣٠٠ ق . م . بعد استقرار اليونان في الاسكندرية ويجب ان نحسب هذا التاريخ بدء علم التشريح ولكن هذا الاتجاه كان ويا للاسف وقتيًّا وموضميًّا ودوغماً عن حيوية أرسطاطاليس وسعيه المتواصل في هذا السبيل لم يتمكن من تشريح الجسم البشري وقد حاول ان يستعيض عنهُ بتشريح الحيوانات كالقردة والخنازير واعترف أنهُ لم يرَ الكلى الانسانية قط واجتهد فيما بعد جالينوس كثيراً (سنة ١٣٠ — ٢٠٠ ب . م .) في درس التشريح ووظائف الاعضاء (الفسيولوجيا) وهو من أول من قرر حقيقة ان شريانات الجسم تحوي دماً لا ريحاً ولكنهُ أخفق في اكتشاف سر الدورة الدموية وأن نبضات القلب هي التي تدفع الدم في الاوعية الدموية وصار علم التشريح في خبر كان بعد أفول الثقافة اليونانية من الاسكندرية وطرأ الوهن على الاهتمام بالقضايا الطبية في الاعصر المتوسطة . ثم بقيت هذه الروح حية بعض الشيء بعد فتوحات العرب في الاسكندرية سنة ٦٤٠ ب . م . وفي بزلطه وسالورنه (Salernum) في جنوبي إيطاليا ومع ان جهودهم تستحق الاعجاب فان مكانتها الرئيسية قائمة على أنها حفظت الطب اليوناني من التلف ولكنها لم تؤثر تأثيراً هامًّا في تقدم الطب[1]

لم ينتعش علم التشريح ويصبح فنًّا رائعاً الاَّ في عهد النهضة (Reunaissance) بعد تأسيس مدرسة بادوى (Padua) الطبية ومن المستحيل ان نذكر بالتفصيل الانقلابات العظيمة التي جرت في ذلك العهد والتأثير الكبير الذي أثرتهُ في الطب ولكننا نستطيع ان نجزم كل الجزم بان أقطاباً كباراً ظهروا وقلبوا علم التشريح رأساً على عقب أمثال : —

ليوناردو دافنشي Leonardo da vinci [2] وفاليوس [3] Vesalius (سنة ١٥٣٧ فما فوق) وفابريكس Fabricus [4] فتقدم التشريح تقدماً عظيماً في ذلك العهد ، أحيا تعاليم أبقراط وجالينوس وبعث في علم الطب ثقافة جديدة

---

(١) لقد جحد الكاتب فضل العرب في الطب فانهم لم يحافظوا على الطب اليوناني فقط بل زادوا عليه واثروا فيه كما يشهد بذلك الشرق والغرب وقد شاع فضل العرب على الطب وذاع ولا حاجة الى التوسع عند الكاتب وهم قبل كل شيء [المترجم]

(٢) عالم ايطالي عظيم رسام محدث بناء موسيقي ميكانيكي مهندس وفيلسوف طبيعي وهو أول من أوجد علم التشريح (١٤٥٢ — ١٥١٩) ولكن كان علمه لنفسه لا لغيره في التشريح

(٣) مشرح ايطالي كبير كان يدرس اطباء كل العظمة في ظلام الليل خوفاً من الحكومة وسخر الناس وهو بعد يحق أبا علم التشريح وقد عمره لازدراء الناس به فتأخر الطب مائة سنة الى الوراء ودعي هذا الحادث الطبيب الانكليزي الاشهر وليم اوسلر « فاجعة الطب الكبرى » [المترجم]

(٤) مشرح ايطالي و خصائي علم الاجنة مهد السبيل لاكتشاف هارفي للدورة الدموية (١٥٣٧ — ١٦١٩ م) [المترجم]

ذكرنا آنفاً ان عدم تقدير الطرق الاختبارية قدرها كان عاملاً ثالثاً في بطء تقدم علم الطب وقد حان الوقت الآن أن يظهر للعالم فضل هذه الطرق العلمية . كان هارفي تلميذاً في بادوى وقد أثرت فيه تعاليم فابركيس ولاسيما ما يتعلق منها بوجود الصمامات في الاوردة . وشغفهُ هذا هو الذي حمله على ان يكب على درس الدورة الدموية بعد ان رجع الى انكلترا فكانت نتيجة هذا الدرس مؤلفه التفيس De Mutee Cardis سنة ١٦٢٨ شرح فيه الطرق الاختبارية التي تبرهن صحة نظرية دوران الدم في الجسم ولا يعد هذا المؤلف الاول في موضوعه فقط بل من اهم المؤلفات في الطرق الاختبارية وفضلها في كشف الحقائق . ويجب ان نتذكر ان الناس كانوا حتى في بداءة القرن السابع عشر يعتقدون بصحة نظرية جالينوس بأن الدم يجري في الاوعية الدموية بطريقين مختلفين فيعلو ويهبط في كليهما كالمد والجزر ولا يدور دوراناً . ويحسن الفرد ان نجاح هارفي حمل المشتغلين بهذا البحث على الاهتمام بالطرق التجريبية واتباعها في ابحاثهم ولكن مع الاسف لم يحدث شيء من ذلك الا عقب مائتي سنة من اكتشاف هارفي ولا يعني انه لم تجر اختبارات خلال تلك الفترة بل كلامنا من الوجهة العامة . وكان العالم يجهل جهلاً تامّاً حقائق الصحة والمرض التي يمكن الجزم فيها باللاحظة المجردة عن الاختبارات . ولم تكن اسس الكيمياء والطبيعيات قد وضعت بعد لتساعد على تقدم العلم تقدماً محسوساً وقد اخذت طلائع الكيمياء تظهر في عهد هارفي فبطء التقدم الذي يصدق على تقدم التجارب الحيوية لا يصدق على الكيمياء والطبيعيات وظهور اسماء كبار الكيمياويين امثال : —

(٥) Stahl (٤) Agricola (٣) Mayow, (٢) Willis, (١) Glauber,

(١٠) Dalton (٩) Lavoisier, (٨) Priestley, (٧) Cavendish, (٦) Robert Boyle, : وبعدهم

دليل قاطع على ان الكيمياء التي نعرفها بدأت ونمت منذ ذلك العهد . ومن المعروف انهُ نشأ في القرن السابع عشر والثامن عشر اخصائيون ممتازون بعلم الطبيعة ولكن كان اهتمامهم من

---

(١) كيمياوي ألماني اكتشف كيفية تحضير حامض الكلوردريك وسلفات الصود وغيرها (٢) مشرح انكليزي له اليد الطولى في الكيمياء الاختبارية (٣) كيمياوي انكليزي له مؤلفات نفيسة جداً بالموضوع

(٤) عالم ألماني مشهور بأبحاثه في المعادن (٥) طبيب وكيمياوي ألماني (٦) فيلسوف انكليزي في الطبيعيات مكتشف ناموس انتشار الغاز المعروف باسمه (٧) كيمياوي وطبيعي انكليزي اول من أعلن للعالم عن حقيقة غاز الهيدروجين (٨) كيمياوي انكليزي اكتشف الاوكسجين وكان يعرف اللغة العربية

(٩) كيمياوي فرنسي أول من بين طبيعة الاحتراق واكتشف مع لابلاس ان الماء مركب من أوكسجين وهيدروجين

(١٠) كيمياوي وطبيعي انكليزي كشف السر عن تركيب المادة وناموس الذري وله ابحاث مهمة في النور وهو اول من اكتشف عمى الالوان [المترجم]

الوجهة المرضية محصوراً في تاريخ الامراض الطبية فكان سيدنهام Sydenham (١٦٢٤ — ١٦٩٨) خير ممثل للمذهب الابوقراطية والطبيب النطاسي الهولاندي بورهاف Boerhave اول من استنبط الطرق الصحيحة للملاحظات الدقيقة في درس الطب . ومن مساوي هذا العهد ان ألمع اطبائه عوضاً عن ان يكتفوا في درس الطب وتقدمه انصرفوا الى ابتكار النظريات الصرفة المبنية على الحدس والظن في تعليل الامراض . واحسن طريقتين تمثلان هذا المذهب الجديد طريقة Cullen الذي جعل سبب الامراض اما تشنجاً واما استرخاء و John Brown الذي عزا الامراض الى الهيج Excitability وادت هذه النظرية الى مشاحنات كثيرة بين الاطباء كانت مضيعة للوقت وعثبة لعلم الطب

***

في هذه الحقبة من القرن التاسع عشر التي كانت عقيماً نسبيًّا لعلم الطب ظهرت بوادر التقدم الباهر من ايطاليا ايضاً بواسطة مورغاني Morgagni سنة ١٧٦٠ ذلك بان دقة فحصه الجثث بعد الموت كانت عاملاً في وضع اسس التشريح المرضي واذا قدرنا قيمة حالة الاعضاء بعد الموت في تشخيص الامراض أدركنا شأن الانقلاب الذي أحدثهُ هذا البحاثة الشهير . وتقدمت الابحاث المرضية فيما بعد بتأثير جون هنتر John Hunter (١٧٢٨—١٧٩٣) وكان هنتر بطبيعته مشغوفاً بالابحاث المرضية Pathology وصرف زهرة حياته في التقريب بين الطب والعلوم الطبيعية وهو الذي كتب الى ادورد جنر حينما كان يظن ان الحلأبات اللاتي اصبنَ بجدري البقر اكتسبنَ مناعة ضد جدري البشر فقال : « لا تفكر بل جرّب »

وكان لهذه الجملة دويٌّ هائلٌ في عالم الطب ادّى الى اكتشاف التلقيح ضد الجدري والقضاء عليه

وفي هذا الزمن زادت العناية جدًّا بدقة فحص الجسم الطبيعي في حالتي الصحة والمرض ويرجع الفضل الكبير في هذه الدقة الى نخبة من الاطباء الفرنسيين المتازين فاستنبط لينك Laennec السمعة سنة ١٨١٩ وصار الاطباء يعولون منذ ذلك الوقت على القرع والتسمع في التشخيص وهذه النخبة هي التي ترسمت في أبحاث مورغاني بفحص الرئة بعد الوفاة التي ادت الى الدقة في درس الحوادث المرضية قبل الوفاة وتقدم في ذلك الوقت تشخيص الامراض السريرية تقدماً عظيماً

والحق يقال ان المواد التي ساعدت على الابحاث الطبية كانت تنهال بسرعة في ذلك الوقت على الرغم من ان التجارب الاختبارية كانت راكدة

ونجسر ان نقول ان تاريخ الطب الحديث يعزى الى باستير وكلود برنارد حين صارت الطرق التجريبية هي المعوّل عليها في الابحاث الطبية . وفي سنة ١٨٥٧ — ١٨٩٠ نشر باستور رسائله الطبية عن حامض اللبن والتخمر الكحولي وقد جعلته هذه الابحاث يتشبع بروح الفكرة التي كانت عاملاً قويًّا في اثبات ان سبب العدوى في الحيات جراثيم حية . وقد تطورت هذه الفكرة لان باستير كان مقتنعاً بالعلاقة بين التخمر والعدوى . وأدّت تجربات باستير الى السر الذي أثبت ان منشأ تلوث الجروح جراثيم مختلفة من الاحياء السفلى . وعلى هذا الاساس شيد علم منع عدواها بواسطة المطهرات الكيمياوية وأحدث انقلاباً في الجراحة وصيرها عملية سليمة . ومن نتائج اكتشافات باستير ابحاث كوخ الذي نشر سنة ١٨٧٦ تجرباته عن سبب الجمرة الخبيثة Anthrax . ولنتذكر ان كوخ اثبت جرثومة هذا المرض من الحيوانات المصابة بها ولقح حيوانات اخرى بها فأصيبت بهذا المرض وفي سنة ١٨٨٢ اكتشف ان سبب السل عصية خاصة فكوخ اول من اثبت زرعاً من الجراثيم الصرفة ووضع اساس علم الجراثيم (بكتيريولوجي) ولم يمض وقت طويل حتى اكتشفت جراثيم التيفود والخناق والمبيضة الاسوية والكزاز والطاعون وذات الرئة والسيلان . وقبل ابحاث كوخ كان رجل فرنسي شهير اسمهُ كلود برنارد Claude Bernard يستعمل الطرق التجريبية في البحث عن وظائف اعضاء الجسم وهو الذي أماط اللثام عن المفرزات الداخلية باكتشافه وظيفة خزن الكبد للسكر الحامّ (الكليكوجين) فاذا كان كوخ واضع علم الجراثيم فمن المعقول ان يكون كلود برنارد واضع علم وظائف الاعضاء (فسيولوجيا) الحديث

***

ثم ظهر في الميدان في ذلك العهد موضوع جديد وضعهُ فيرشو Virchow وهو علم تركيب انسجة الجسم (هستولوجي) تبين بمحت المجهر حقيقة تركيب مختلف خلايا الجسم وتمكن من معرفة مرض الاعضاء بدرس حالة خلاياها حين المرض . وفي هذا الزمن زمن النشاط اي سنة ١٨٥٠ — ١٨٨٠ صارت الفسيولوجيا والبكتيريولوجيا والهستولوجيا المرضية والجراحية دروساً طبية معينة . وقبل ان نأتي على تقدم الطب في القرن الحالي نعيد بايجاز ما ذكرناه آنفاً

رأينا علم الطب يتحرر من تأثير السحر والدين وحسب الامراض من الامور الطبيعية . وعقب ذلك دور البحث في تركيب الجسم فتوصل الباحثون الى العلامات السريرية والتراكيب التشريحية للاعضاء المعلولة وكان العالم قد وصل الى العصر الحالي الذي كان للتجارب فيه اليد الطولى فتقدمت معرفة وظائف الاعضاء واسباب الامراض تقدماً كبيراً وكان لا يزال في اوائل هذا العصر

امراض مجهولة السبب وطرق معالجتها غير معروفة ومع ان الحالة لاتزال الآن كما كانت قبلاً فان جهود الثلاثين السنة المتأخرة آلت الى املاء كثير من الفراغ . فلنبحث عن سبب تدفق النشاط في اوائل القرن الحالي . وهناك اسباب متعددة اهمها ما يلي :

(١) النجاح يولّد النجاح . ومن المستحيل ان يقف اي شخص على اكتشافات باستير ولستر وكوخ ولا يتأثر بها او لا تكون حافزاً لهُ على التتبع والاستقصاء . ومن المعقول أن تضاف ابحاثهم وتقيداتهم الى جهود غيرهم ممن يسيرون على الخطة نفسها . ان روح التفاؤل هذه عزّزت ثقة الناس وعقيدتهم بأنهُ ليس من الصعب التغلب على الامراض والمشكلات الصحية وان لاحدّ لنتائج الطرق الاختبارية

(٢) ان التتبعات الحديثة أفضت الى تقدم العلوم الاساسية لدرس الطب كالكيمياء والطبيعيات ووظائف الاعضاء والامراض والمقاييس تقدماً عظيماً فألقت نوراً جديداً على الجسم الصحيح والجسم العليل وكانت سلاحاً جديداً للطب في محاربة الامراض وطرق تشخيصها والوقاية منها ومعالجتها

(٣) السبب الثالث لهذا الاندفاع هو ان العالم المتمدن بأسره اتبع الطريقة اليونانية في النظر الى الحياة وهو ان الصحة تراث عظيم واعتلالها ليس مضرّاً من الوجهة الاقتصادية فقط بل هو السبب الاكبر في آلام البشر وحزنهم وتعذيبهم فكان من الضروري اذاً سواء من الوجهة العملية او العاطفية القضاء على الامراض بالوقاية منها أو شفائها . واذا كانت البحوث تؤول الى هذه النتيجة فمن الواجب تعزيزها . ان تأثر الناس بهذه العقيدة حمل الحكومة والافراد على تشجيع البحوث العلمية والتوصل الى معرفة الطرق للقضاء على العلل التي كانت تفتك بالناس فانتشرت هذه الحركة في كل العالم وفي سنة ١٩١٣ أنشأت الحكومة مجلس البحث الطبي Medical Research Council الذي صار في عهد سلفي السير ولز فلتشر من خيرة الطرق لدرس المشكلات الزهرية . وقد تضافر هذا المجلس مع كثير من المعاهد الخاصة بتقدم الطب كمعهد ركفلر وباستير للوقاية وغيرها . وعلاوة على اكتشاف طرق جديدة لمعرفة الامراض دعت الصلحة العامة الى تأسيس وزارة الصحة التي تقدمت تقدماً عظيماً في العشرين السنة الاخيرة فزادت بهذه الواسطة الخدمات الطبية العامة وانتشرت في طول البلاد وعرضها ومن الامثلة على ذلك دور العناية بالحوامل ودور الحضانة ومستوصفات السل والامراض الزهرية وغيرها وغاية جميع هذه المؤسسات استخدام الطرق العلمية الحديثة للوقاية من الامراض وشفائها والمحافظة على الصحة العامة

[في العدد التالي : نتائج هذا النشاط الطبي]

أثر الحرب العامة

في الادب العربي السياسي

انيس المقدسي
استاذ الادب العربي بجامعة بيروت الاميركية

والمتأمل في الشعر العربي السياسي اثناء هذه الحرب يراه على نوعين — حكومي وعمومي . فالاول مقرون بالسلطة القائمة واعمالها الادارية والسياسية ، وهو أدب كان يوجهه الى الاقلام احد العوامل التالية (١) رهبة تدفع الى الملاءة والتقية (٢) طمع يبعث على التزلف والمداهنة (٣) تهوس ديني يثير في النفوس التعصب والحماسة .

ولو التفتنا الى سوريا ولبنان وفلسطين والعراق لرأينا ذلك ظاهراً للعيان . فقد دخلت تركيا الحرب الى جانب المانيا فجبا بغتة ذلك التوتر العنصري وكممت الافواه والاقلام الا عن حمد الدولة وتمجيد سياستها . على ان تركيا لم تكن غافلة عن النزعات اللاتركية الناشئة في الاقطار العربية وعن تنشيط الحلفاء لها . فكان اول ما عملته بعد دخولها الحرب انها ألغت الامتيازات الاجنبية فأصبحت المسيطرة المطلقة على مقدرات البلاد ، ثم قسمت الجهة العربية الى منطقتين حربيتين الاولى منطقة الجيش الرابع ويدخل فيها سوريا ولبنان وفلسطين والحجاز — والثانية منطقة الجيش السادس وهي بلاد ما بين النهرين واقليم شط العرب . وقد رأت ان تنظم الاولى اولاً وان ترعاها رعاية خاصة فعهدت بها الى احمد جمال باشا الذي عرف الجيش ما جرى على يديه من بطش وارهاب . وعاقساءُ العرب في عهده من شدة وضيق

فمن الطبيعي في مثل تلك الاحوال ان لا يكون في البلاد العربية الثمانية أدب سياسي حر وان تكبت العواطف الحقيقية في اعماق الصدور . واذا أضفت الى ذلك ان الخلافة الاسلامية كان لا يزال لها تأثير عميق في نفوس المتدينين ، وان المآرب الذاتية كانت تمشش في صدور الكثيرين فلا تستغرب ان ترى الادب العربي يومئذ تلبس اثواب التعصب للسيف التركي او

الخلافة التركية . خذ بيروت مثلاً فقد كانت اهم مركز ادبي في الشرق العربي (خارج مصر) ومستنبتاً خصباً للدعايات الاصلاحية . كان فيها عشرات الصحف والمطابع والمعاهد العلمية . والذي يُلاحظ ان كثيراً من الصحف العربية كان قبل دخول تركيا الحرب يجاهر بميله الى الحلفاء ، فلما دخلت اضطرّ امّا الى التوقّف وإما الى مجاراة السلطة . فلم يبقَ في تلك المدينة اكثر من ست جرائد . وبالطبع لم تكن اخبارها الاّ بلاغات تركية المانية ، ولم تكن مقالاتها الاّ اناشيد مدح لاعمال الدولة العلية . وانهُ لمن المدهش بل المضحك ان تقابل بين ما كانت تكتبهُ طائفة من تلك الجرائد خلال الحرب وما كانت تكتبهُ بعدها ، ولاسيما فيما له علاقة بنهضة العرب ومطاليهم القومية

ومن افضل الامثلة على الادب السياسي الحكومي في تلك الاثناء مجموعة من الخطب والمقالات والقصائد صدرت في بيروت في كتاب خاص بعنوان « البعثة العلمية الى دار الخلافة الاسلامية »[1] ففي ايلول (سبتمبر) سنة ١٩١٥ نظّمت قيادة الجيش الرابع وفداً من اكثر من ٣٠ رجلاً يمثلون سوريا ولبنان وفلسطين وشمال الجزيرة العراقية وارسلتهم الى عاصمة السلطنة للاغراض التالية [2]

١ — لعرض اخلاص السوريين وشعورهم على سدّة الخلافة الاسلامية

٢ — لمشاهدة عظمة الدولة واستعدادها الحربي

٣ — بث عواطف اهل البلاد الى اخوانهم الغزاة المجاهدين

وبعد ان قضوا نحو شهرين هناك بين مآدب تكريمية ومشاهد حربية ، وحفلات خطابية ومواقف شعرية عادوا الى اوطانهم يقصون على الملإ ما شاهدوا وسمعوا وقد دوّنوا لنا اقوالهم ومشاهداتهم في الكتاب المذكور واليك بعض النماذج منها —

فقرات من خطب القيت في حضرة وزير الداخلية — [3] يا صاحب الدولة والفضل : —

« ان الانقلابات التي وقعت منذ نشرتم واخوانكم احرار العثمانيين القانون الاساسي في السلطنة قد علّمت الناس وولاة امورها تعاليم كثيرة . . فتعلمنا بالحرب البلقانية والحرب الطرابلسية كيف تجمع شملنا ونسير في داخليتنا وخارجيتنا . حتى اذا نشبت الحرب العامة اثبتنا اننا امة لا تزال حية »

« كان اناس قليلون في ديار الشام يهمسون في سرهم في اوائل النفير العام بقولهم : ما لنا وللحرب . ان الحياد ابقى علينا وأسلم لكياننا . ولم تكن الاّ مدة قليلة حتى عرف الخاص والعام بان الحرب مع دول الاستعمار كانت مقرونة لحياتنا السياسية والملية »

(١) المطبعة العلمية ١٩١٦ — تأليف الباشر — كرد علي — الخيالي — الاسمر

(٢) البعثة العلمية ص ٢٥٢ (٣) راجع الكتاب المذكور ص ٤٥ — ٥١

« كانوا يقولون ان في الحرب خراب البلاد ولكن حربنا الحاضرة والحمد لله قد عمرت بلادنا ومحّصت الناس فتبين الخائن المائن من الوطني المخلص ، والخامل من العامل ، والجاهل من العالم . ولو لم توفق الحكومة الى انتداب امثال جمال باشا واخوانه الولاة لسياسة سورية اثناء هذه الازمة لتمّ فيها المضحك المبكي » . ومن الثاني :—

« يا صاحب الدولة — ان قدوم هذا الوفد العلمي المنتخب من خيرة علماء الدين الى دار الخلافة الاسلامية الكبرى والامامة العظمى لاداء فروض العبودية وواجب الاخلاص لعرش الخلافة الاسلامية المقدّس واهداء سلام الشعب السوري الى الابطال المجاهدين في جناق قلعة وساحات القتال واظهار ما يكنّهُ الشعب من عظيم الشكر لاولئك الابطال الذين دافعوا عن حوزة الخلافة وحياض الدين دفاعاً مجيداً خلّده لهم التاريخ بأحرف من نور . . . لهو أنصع برهان على السمي وراء تلك الغاية الشريفة ، وتمكين عرى الرابطة المحمدية والاتحاد الاسلامي ، وتوطيد دعائم الجامعة العثمانية تحت ظلال الهلال المظفر الذي سيحقق ان شاء الله بفضل جهادكم المشكور عن قريب في ربوع قفقاسيا وفوق وادي النيل »

ومما قيل في حضرة ولي عهد السلطنة —[1] « بيت عثمان باذا الايادي البيضاء على هذه الامة انك جمعت شمل المسلمين تحت لواء الهلال المنصور قروناً وستكون كذلك ابد الدهر ، فكيف لا تتأصل محبة اركانك في قلب كل وليد »

وبعد ان يعرض الخطيب للعلاقات المتينة بين العرب والترك ولفضل العثمانيين في هذه الاخوة المقدّسة يقول — « فكنا امام العادين من دول الغرب في كل وقت نحارب معاً ونعود ظافرين ببركة هذه الاخوة ونحن اليوم كذلك في هذه الحرب الحاضرة وسنكون غداً وبعد غد والتوفيق حليف عَلَمنا الذي يظلّنا بفضلكم يا بني عثمان وحفظة بيضة الدين والايمان » . وعلى هذا النسق اكثر الادب السياسي المنثور او كله في ذلك العهد . ولم يختلف عنهُ الادب المنظوم ، ففي مجموعة « البعثة العلمية » نحو من سبع عشرة قصيدة لبضعة شعراء كعلي الرعاوي وعبد الكريم عويضه ، وحسين الجمال ، وبدر الدين النسابي وسواهم وكلها ترمي الى نفس الغرض — والبك أمثلة منها . قال أحدهم من قصيدة : —[2]

يا رجالَ الملك إنا أمــةٌ لا ترى عن آل عثمان بديلْ
حيّها يا وفدُ حيّ جنــدها قاهر الاعداء بالسيف الصقيلْ
نصرَ الدينَ وأعلى شأنه فغدا الاسلام في ظلّ ظليلْ

ومنها مشيراً الى تراجع أسطول الحلفاء أمام قلاع الدردنيل

(١) راجع البعثة العلمية ص ٦٦ (٢) البعثة العلمية ٦٨

حيّ قوماً أدهشوا كل الورى بثبات العزم والصبر الجميلْ
قهروا الاسطول في البحر فما أبحر الاسطول ان عاد ذليلْ
دافعوا عن حوزة الملك بما يحفظ التاريخ جيلاً بعد جيلْ
وبنو الشرق الى مصر انبروا « وجمال الدين » للفتح كفيلْ

ويؤيّد بذلك الى الحملة التي كان يعدّها جمال باشا لعبور ترعة السويس ودخول مصر وللشيخ الرمحاوي قصيدة خاطب بها جمال باشا عند عودة الوفد وهي نحو ٤٥ بيتاً وفيها يصف ما رآه الوفد في الاستانة ومقابلتهم لاركان الدولة هناك فيقول (١)

فجئنا الى دار السعادة والمنى حططْ رحال العزّ والعزُّ يُقصدُ
وزرنا عميد الملك يسمو عماده وزرنا وليّ العهد بالفضل يُعهدُ
تحفّ بنا القوّاد من كل جانبٍ وأقطاب دار الملك تحفى وتحمدُ
ومنها — خطبنا لهم جمّا وقد خطبوا لنا وأنشد منا القائلون وأنشدوا
مجالس كانت كالربيع بواسماً ذكرناك فيها والحقيقة تشهدُ

***

ومنها — رجعنا وما بالقول شيء لمربٍ ولا بمربٍّ ينسى الجميل ويجحدُ
على أننا أبناء دين محمد يحكّم هذا الحبّ فينا ويعقدُ

وله قصيدة أخرى مطلعها

تيقظتم حزماً فأيقظتم الدهرا وأعلمتمُ عزماً فأدهشتم العصرا

وفيها يقول (٢)

سلامٌ عليكم ما أجلّ فعالكم وأعظم في الايام آياتها الكبرى
سلامٌ على الدستور حلواً مذاقه وان كان بعض الناس قد ذاقهُ مرّا
حماةَ الهدى والملك لله درّكم على الخصم قد طبّقتم البرّ والبحرا
ومنها — سعيتم فقرّبتم بني الحرب منكم وقلّمهمُ الاخوان في الضرّ والسرا
فكانوا لكم أزراً على كل خارجٍ عدوّ وما كانوا وحقّكم وزرا
يعدّون هذا الملك فيهم ومنهمُ ولا ينقصون الترك سرّاً ولا جهرا
فكنتم نجاد الملك والحرب سيفه وكنتم يمين الملك والحرب اليسرى

ونختم هذه الامثلة ببعض ابيات من قصيدة لبدر الدين النسابي في احمد جمال باشا قال: (٣)

لئن أكثر المدّاح فيك القصائدا فما بلغوا في الالف من ذاك واحدا

(١) البعثة العلمية ٢٦٠ — ٢٦٥ (٢) البعثة العلمية ٢٠٨ (٣) البعثة العلمية ٢٨٥

ومنها : رمى الله منك الانكليزَ بصارمٍ صقيل يقدُّ الهندوانيَّ غامدا
عَتَوا وأبوا الاَّ لقاءك في الوغى أراهم بما راموه منك حصائدا
أقاموا على شط القتال معاقلاً ستبقى لهم يوم اللقاء مصايدا
قطعتَ اليهم بالجيوش مفاوزاً بها الصرصر النكباء تشكو الجلامدا
لقد عزَّ جيشٌ كنتَ فيه رئيسهُ وعزَّت جموعٌ كنت فيهنَّ رائدا
فلم أرَ مثل اليوم أرفع همةً وأعظم آثاراً وأكثر حاشدا
وأطهر أخلاقاً وأصفى سريرةً وأنجب مولوداً وأكرم والدا
وقفت على علياكَ فيضَ براعتي وقسي وفكري والقوافي الشواردا

هذا هو الادب الحكومي الذي كان ينتشر في سوريا والعراق . وهو وان لايجوز اعتباره وصفاً صادقاً لحوادث ذلك العهد ورجاله فانه بلا شك صورة غير كاذبة لما كانت تثيره الحالة السياسية في الصدور من رهبة ورغبة او هوًى ديني . واذا عرفنا زمانه ومكانه واستطعنا ان نقرأ ما بين السطور تجلى لنا فيه من الشاهد ما قد يساعدنا على فهم كثير من الحقائق

وما يصدق على سوريا والعراق قد يصدق على مصر ايضاً . الاَّ ان المشهدين يختلفان . فمصر كانت عاطفتها كما وصفها الدكتور محمد حسين هيكل بقوله [1] — « تتجه حتى العصور الاخيرة الى جهتين — تتجه صوب مكة ومكة في بلاد العرب والنبي عربي والقرآن عربي . وهي تتجه او كانت تتجه صوب الاستانة مقر الخلافة الاسلامية والاستانة عاصمة الترك . فكل سلم تمثله وحدة المسلمين كان يتجه ببصره — الى حين البيت الخلافة — نحو مكة والاستانة : يستمد من الاولى المدد الروحي ومن الثانية مدد السيف والمدفع »

ومع كل ذلك لم تحرك مصر ساكناً حين أعلن وزير الخارجية البريطاني في ١٨ ديسمبر ١٩١٤ « انهُ بالنظر الى حالة الحرب التي سببها عمل تركيا قد وضعت بلاد مصر تحت حماية جلالته وأصبحت من الآن تصاعداً من البلاد المشمولة بالحماية البريطانية . وبذلك قد زالت سيادة تركيا على مصر الخ [2] » وما ذلك الاَّ لان السلطة البريطانية اصبحت يومئذ الكل وفي الكل . وصار المصريون يشعرون انهم انما يعيشون في ظل سيفها المصلت . فلم يكن من الغريب ان نرى الشعراء يتبارون في التقرب من السلطان حسين كامل . كاسماعيل صبري . وأحمد شوقي . وحافظ ابراهيم . وولي الدين يكن وسواهم . وهذه قصائدهم فيه تشهد بانقلاب الحال او بالتقية

(١) مقدمة الشوقيات ج ١ — م (بتصرف) (٢) الهلال ٢٣ — ٣٢٦ راجع أيضاً به بلاغات الوكالة البريطانية

حتى ان حافظاً الوطني الصميم وصاحب المواقف المشهورة قبل الحرب لم يتورع عن ان يقول في الانكليز مخاطباً السلطان (١)

فش الليل سلطاناً ايّا له في ملكه عقد وحلّ
ووالي القوم انهم كرامٌ سيامين النقية ابن حلّوا
لهم مُلكٌ على التامين (٢) اضحت ذراه على المعالي تستهلّ
وليس كقومهم في الترب قومٌ من الاخلاق قد نهلوا وعلّوا
فان صادقتهم صدقوك وداً وليس لهم اذا فتشت مِثل

اما شوقي شاعر الخديو عباس (خصم الانكليز) فقد كانت قصيدته في السلطان حسين كامل « لبية » فنية حاول فيها الجمع بين وفائه لاميره السابق والواجب عليه للسلطان الجديد وتجنب سخط الانكليز. وقد توفق الى حدّ يذكر له. اذ قال مشيراً الى عباس:

الله يعلم ما كفرتُ صنيعةً في ذا المقام ولا جحدت جميلا

ثم في اعتذاره عن مدح الامير الذي حل محله

أأخون اسماعيل في ابنائه ولقد وُلدت بباب اسماعيلا

ولم يستطع الا ان يقول كلمة في الانكليز فقال:

حلفاؤنا الاحرار الا انهم ارقى الشعوب عواطفاً وميولا
أعلى من الرومان ذكراً في الورى وأعز سلطاناً وأمنع غيلا
لما خلا وجه البلاد لسيفهم صاروا سماحاً في البلاد عُدولا
وأتوا بكابرها (٣) وشيخ ملوكها تسليكاً عليها صالحاً مأمولا

على انهُ لا بد من القول ان الشعر المصري الحكومي برغم اضطراره الى مجاراة السلطة لم يبلغ في تلك المجاراة مبلغ الشعر السوري والعراقي، بل ظل اكثر تحفظاً وأقل تطرفاً. واذا كان في مصر يومئذ من غارات ادبية عنيفة على الاتراك فنشؤها في الاكثر الاوساط اللامصرية تشهد بذلك صحائفهم ونفثات اقلامهم. ولم يكن على ما يظهر مبعثها التملق او التعصب بل الاقتناع (خطأً او صواباً) ان الخلاص من تركيا سيكون فاتحة عصر جديد يحمل الى الاقطار العربية انوار المجد والسعادة

***

اما الادب السياسي العمومي (اي ما كان خارج دوائر السلطة) فتشابه في جميع الاقطار اذ هو منبعث عن شعور الناس بوطأة الحرب. ومن الطبيعي ان يكون اثره في مختلف البيئات

(١) الهلال ٢٣ — ٣٣٧ (٢) نهر لندن (٣) اي بالسلطان حسين كامل

بالنسبة الى شدة تلك الوطأة او خفتها، كما يتضح لنا اذا قابلنا ما نظم منهُ في مصر بما نظم في العراق وسوريا ولاسيما بيروت ولبنان حيث بلغت المحنة أشدها. ومن شواهده تلك القصائد التي قيلت في أهوال الحرب وفظائعها كقصيدة الزهاوي « مشهد من الحرب الكبرى » ومنها [1]

في كل ارضٍ وصقع مدافعٌ ثائراتُ
يقتلن كلَّ فتىً قد تفيد منهُ الحياةُ
وليس يبقين الاَّ ارامـلاً ويتامى

***

هناك بحرٌ بخضمٍ يجري ليغمر بحرا
هناك بركان نارٍ تسعى لتأكل اخرى
هناك جيش لهامٍ يؤمُّ جيشاً لهُاما

***

من قاذفاتٍ صباحاً يهتزُّ منها المكانُ
وبارقاتٍ مساء يحمرُّ منها الدخان
وناسفاتٍ بليلٍ يبتنَ موتاً زؤاما

***

القتل قتلٌ ذريع والخطب خطب جُسام
فوق الرغام دماء يحمرُّ منها الرُّغام
والارض تشرب منها ولا تبلُّ أُواما

وكقصيدة أنشدت في بيروت سنة ١٩١٥ موضوعها « متى تضع الحرب أوزارها » ومنها: [2]

ربوعُ الحضارة أمست محـــطَّ النسور ومنتجعَ الاضبُعِ
وإنَّ ابن آدم شرَّ الضواري اذا هاجهُ هائجُ المطمعِ
فتى الحرب سلْ عنهُ نيرانها وحُمر الدماء على اليرمعِ
وأشلاء قتلى أبادهمُ مبيدٌ من السيف والمدفعِ

ولو أردنا ان نسرد القصائد التي تضمنت وصفاً للحرب وبلاياها لضاق بنا المقام ويكثر فيها وصف محن الناس من بؤس وجوع وخوف وثرمل نساء وتيتم أطفال وما الى ذلك مما يدخل اكثره في باب المواضيع الاجتماعية فنرجيء الاسهاب فيهِ الى فرصة أخرى

(١) ديوانه (١٩٢٤) ١١٤ (٢) راجعها في جريدة الحقيقة (بيروت) ٧ — ٥٩٨

لراهبي الراعي

فكتور هيجو

شاعر الشعراء

كل شعر من أشعار هيجو أصبع من كف السماء ، تشير الى مجده . . . . ولسان من نار يتدلع في سماء الادب والتاريخ ..

الجيل في روعته والبحر في زبده ودرره وأمواجه والافق في صفوه وترامي أطرافه اجتمعوا ذات يوم وتداولوا في من يقيمونهُ محامياً يعبّر عن أسرارهم المستقرّة في أعماقهم فاستقرّ رأيهم على ان يكون الشاعر ذلك المحامي، ونطق الشاعر فاذا هو هيجو . . .

ولد فكتور وعلى رأسه سربٌ من النسور هبطت من أعالي الفضاء وهي مأخوذة بزميلها الجديد ، مضطربة من مستقبله ومنافسته . .

في ذلك اليوم كان يوم النسور يوماً قاتماً .. أتاها شاعر الشعراء فما هي بعده.. وماذا تفيد حوماتها . . .

ولد فكتور فكان يوم ولادته كيوم نابليون في وحيده فلقد تناوله الشعر في ذلك اليوم وأطلّ به من شرفة الادب على دولة الادب وصاح : المستقبل لي ..

ولد في مقر الاولمب في ظلّ جوبيتر ، وعلى وجهه نور من أنوار السماء ، وأطلّ على الحياة تعب الفؤاد لاهث الصدر من وطأة القرون على منكبيه فقدّم لهُ فرجيل كأساً من الخمرة صبّ فيها البحر من زبده فشرب فلم يُطفىء غليله فشرب من دمه فلم يُطفىء غليله فالتقط دموع الناس دمعة دمعة فلم يُطفىء غليله فلما ضاق به الامر شرب من قلبه طبقة اثر طبقة فلما أطلّ عليه الفجر كان قد أحرق دمه في القراطيس فكان مسيح الشعر . . ولما اشتدّ ساعدهُ جاءهُ هوميروس وقال لهُ : أنا الضرير رأيتك على الرغم من عماي فقد شقت أشعتك حجاب نظري . . وأقبل عليه موسه فجلسا ساعة ، تحت الصفصافة الباكية ، وصعد لامرتين الى قمة الجبل ونفخ في البوق مبشراً الدنيا بقدوم شاعر الشعراء . . .

فكتور هيجو . . ومن لا يعرفهُ . فكتور . . وكفى . .

ورأى ابا الهول فقال له: لقد أتيت قاصم فأنا في صرختي العجيبة أنت في صمتك العجيب

الصدمة التي تشفي

علاج الخَبَل بالانسولين
وتأثير صدمته في المدمنين

هو ذا طريقة جديدة لعلاج الجنون (insanity) [1] وتاريخها لا يرجع الى ما قبل سنة ١٩٣٠ ففي تلك السنة كان الطبيب النفسي النمسوي الدكتور ماقرد ساكل Sakel معنيًّا بدراسة أحوال مدمني المورفين عندما يمنع المورفين عنهم . فتبيَّن ما تبيَّنهُ غيرهُ من الاطباء ، اي الاضطراب والهيج بل والجنون الوقتيّ في هؤلاء المدمنين وهم في هذه الحالة . فلم يكتف بذلك بل خطر لهُ خاطر جعلهُ أساساً لرأيهِ . ذلك بان تنقُّل المدمن الممنوع عن المخدِّر ، من حالة عقلية الى أخرى ، حملهُ على الظن بان المخدِّر احدث تغييراً في انتاج الجسم علاوة على التغير في أحوال العقل . وذهب الى ان خلايا الدماغ تتأثر بالمورفين — وهو سمّ — تأثراً ضارًّا ، فتجذب وهي في هذه الحالة مقادير من المفرزات المهيجة او المثيرة التي تفرزها الغدد ، أكبر مما تجذبهُ في الاحوال السوية

والاطباء يعلمون ان الانسولين فعلاً يميل بأفعال الجسم الحيوية الى الهبوط . والانسولين كما لا يخفى تفرزهُ ألغدة الحلوة السليمة فيساعد الجسم على تمثيل السكر . والمصاب (بالديابيطس ملبتوس) داء البول السكري لا تفرز حلوتهُ الانسولين فيتجمع السكر في الدم . فاذا حقن المصاب بالقدر الكافي من الانسولين المحضَّر في المعامل فعل فعل الانسولين الطبيعي فيهبط مقدار السكر المتجمع في الدم . ولولاه لمات كثيرون ودمهم مكتظ بالسكر . ولكن اذا حقن المصاب بقدر من الانسولين اكبر مما يجب ان يكون هبط مقدار السكر في الدم الى اقل من مستواه اللازم فيصبح المصاب المحقون وكأنهُ ثمل او مخدَّر بالكحول وقد يفقد وعيهُ وتستولي عليه غيبوبة . وعلاج هذه الحالة ادخال مقدار اضافي من السكر في الدم ، والغلوكوز هو ما يستعمل على الاكثر في هذه الاحوال

واذاً فلا يستغرب ان يستولي التماس على اثر الحقن بالانسولين ، مع ان الانسولين ليس

---

(١) اشرنا الى هذه الطريقة اشارة ملخصة في مقتطف يوليو سنة ١٩٣٧ في باب الاخبار العلمية ص ٢٣٣ وقد قرأنا في هذا الموضوع مقالات في « السينتفيك أمريكان » و« الفوروم » و« رسالة العلم » فلخصناها جاعلين الاعتماد على مقالة السينتفيك أمريكان

مخدراً يحصر الشفى . ولذلك فكر الدكتور ساكل في استعمال الانسولين لتهدئة أعصاب مدمني المورفين الذين حيل بينهم وبينهُ . فأصاب في ذلك قسطاً من النجاح . ومع انهُ استعمل مقادير يسيرة من الانسولين في حقن المدمنين لاحظ تغيُّراً يستوقف النظر في احوالهم النفسية بعد الحقن . فالمدمنون الهائجون أخلدوا الى السكينة ، والمنطوون على انفسهم القاطعون كل صلة لهم بعالم الحقيقة عادوا يدركون الحقيقة والواقع ، والنازعون الى الانزواء والخصام انقلبوا الى المودة والتعاون

وقد كان هذا التغيُّر بادياً فيهم حتى في الايام الاولى من انقطاعهم عن المخدِّر ، وفي هذه الايام الاولى كان المدمنون اشد ما يكونون عنفاً وهياجاً . فلم يخاطر الطبيب المسوي بارق رجاء خطاف. فالانسولين على ما يبدو من تجاربه يجنح بالمرض الى التراخي والسكينة ، اي الى ان يعود المدمن سوياً فترة طويلة أو على الدوام مع ان مقادير يسيرة استعملت في حقنه. فهل يكفي الانسولين لشفاء دماغ المجنون اذا حقن بمقادير كبيرة منهُ . ان الفكرة لجريئة ولكنها جديرة بالامتحان

وكان قد علم هو وغيرهُ من معالجة مصابي البول السكري بالانسولين أن حقنهم بمقادير كبيرة من الانسولين لا يؤذيهم الاَّ في أحوال نادرة وإن حقنهم حينئذٍ بالغلوكوس يبطل ما يتعرضون لهُ من خطر . ولكنهُ أراد ان يستوثق لانهُ طبيب ذو ضمير حيّ

ولذلك تقدَّم الى امتحان فكرته هذه خطوة وثيدة أثر خطوة وثيدة وشعارهُ في كل خطوة يخطوها سلامة المصاب . انها في نظره مقدمة على كل شيء آخر . فعلم من تجاربه المتعددة ان جميع أنواع الاضطرابات العصبية والعقلية لا تستجيب لعلاج الانسولين هذا . فالخُبَّل Shizophrenics يجنون منهُ فائدة عظيمة وأما المصابون بالجنون السوداوي (مقابل لفظ manic-depression وهي حالة يتداول فيها المصابَ دورُ الجنون فدور السوداء : عن معجم دورلند الطبي) فقلما يجنون فائدة ما

والخُبَّل (shizophrenics) ذوو الشخصية المنافقة الموزَّعة يشملون الذين تنطوي عقولهم على ذواتهم فيعيشون وكأنهم في حلم وينشئون عالماً خاصًّا بهم لا صلة لهُ بالواقع ويتخيلون انهم يعيشون مع ملوك وملكات وأميرات . ويكثر ان يظن الأخبل نفسهُ شخصاً آخر ، وفي هذا التخيُّل متنفذ لهُ من حقيقة الواقع . والمصابون بهذا الضرب من الاضطراب العصبي العقلي ، هم السواد الذين يؤخذون الى مستشفيات الامراض العقلية كل سنة في أميركا وعددهم يبلغ نحو مائة الف

ولا يعلم من سبب هذه الحالة شيء واضح فيكتفي الاطباء بقولهم ان مردَّها الى « أسباب وظيفية » وهذان التفظان لا يبينان شيئاً

ثم هناك المصابون بالجنون السوداوي وهم على الغالب نمطٌ موزَّع بين النشاط والتراخي او الهياج والهبوط وعلتهم أيضاً تعزى الى « أسباب وظيفية » . وليس ثمة من يعلم هل حالة الاخبل وأحلامهُ الغريبة ، وحالة المجنون السوداوي ، مرضان قائمان بنفسهما او هما عرضان لاصابة

جسمية خفية ؛ ليست صلتها بالدماغ والجهاز العصبي الا صلة ثانوية. ولذلك يمكن ان تحسب طريقة العلاج بصدمة الانسولين من أعجب الطرائق الطبية الحديثة لانها تعالج مرضاً لا يزال سببهُ سرًّا مغلقاً

قرّر الدكتور ساكل ان خير اسلوب يتبع في العلاج ، ان يحقن المصاب بمقادير متزايدة من الانسولين حتى يبلغ مقدار الحقنة الواحدة المقدار الذي يحدث الصدمة في الجسم . ومقدار « حقنة الصدمة » يختلف باختلاف المصابين ويتفاوت من ١٥ وحدة انسولين الى ٤٥٠ وحدة

ويقصد بحقنة الصدمة ذلك المقدار من الانسولين الذي يلزم لاحداث الغيبوبة في المحقون بعد اربع ساعات او خمس ساعات من حقنها فيه . وبعد بلوغ هذه المرتبة يحقن المصاب بمقدار الانسولين الذي يحدث الصدمة من ثلاث مرات الى ست مرات في الاسبوع حتى يجني اكبر قدر من الفائدة . والغالب ان لا يعطى اكثر من خمس حقنة اذا لم يستجب لتأثيرها . فاذا استجاب جسمهُ لتأثيرها فقد يعفى من الحقن يومين او ثلاثة ايام بعد كل حقنة ، وعلى كل حال يجب ان يعفى من الحقن يوماً واحداً في الاسبوع على الاقل

وقد كان أصعب ما اعترض سبيل الدكتور ساكل معرفة طول الغيبوبة التي يحفظ فيها المصاب وعدد « حقن الصدمة » التي يحقن بها . فمنهم من تكفيه ثماني حقن ومنهم من لا يبدأ جسمهم بالاستجابة لتأثير الحقنة الا بعد خمس حقنة . ثم يبدأ الطبيب في تقليل مقدار الانسولين تدريجاً حتى يغدو مقدارُ الحقنة الاخيرة مقدارَ الحقنة الاولى

ولا يسمح للمصاب بأن يتناول طعاماً قبل الحقن والغالب ان يحقن في الساعة السادسة صباحاً ثم يبطل فعل الانسولين في الجسم بحقن محلول من السكر في الشريان او بأخذه عن طريق الفم ، وذلك في الساعة العاشرة صباحاً اي بعد انقضاء اربع ساعات على اعطائه الحقنة . واذا كانت الحقنة كبيرة واحدثت صدمة وغيبوبة ، بقي المريض في فراشه ويراقب مراقبة دقيقة حتى اذا بدا عليه اي عرض من اعراض الضعف او الهبوط اعطي السكر اللازم لتعزيز قواه

وبعد ان يعطى محلول السكر يستحم ويتناول فطورهُ ويسمح لهُ بالقيام والتجوّل . ولكن المراقبة الدقيقة لازمة جدًّا ، لان السكر ينقص فجأة احياناً حتى حدود الخطر ولو كان المصاب قد اكل وشبع . وفي هذه الحالة يجب ان يحقن بمحلول السكر ايضاً

وفي سنة ١٩٣٣ أذاع الدكتور ساكل شفاء عليه الاول بهذه الطريقة وتبعهُ كثيرون ، ونشرت نتائج بحوثهم والحالات التي عالجوها ، فدهش علماء الطب النفساني مما قرأوهُ في رسائله ، لان تصديق ما فيها بدا صعباً . ولكن الدكتور ساكل شفى ثمانين في المائة من الخبل الذين عالجهم كذلك . والاقبال على تجربة هذه الطريقة في اميركا كبير والصحف حافلة بانبائها ، ولكن التسليم الآن سابق لاوانهِ والتجارب يجب ان تجرى بحذر عظيم

المذاهب الاشتراكية — ٢

أثر الماركسية

في الادب

لطيم سترى

احب بعد ان طرقت هذه الابواب في الاشتراكية ومذاهبها مما قد يقره العقل الاجتماعي الحديث او لا يقره ، أن أعرض للبحث الاساسي المقصود به هذا المقال وهو علاقة الماركسية بالادب . فاذا استعرضنا بعض النتائج التاريخية والحركات الفاصلة في تاريخ الاجتماع وجدنا ان الفكر السياسي في اوربا كان قد تطوّر نحو اتجاهات عديدة في الفترة التي استقرت فيها الحال بعد الحروب الثورية في القرن الثامن عشر . ولقد كانت المدرسة الفلسفية الذائعة الصيت إبان ذلك تلك التي قامت على فلسفة « هيجل » وتزعمها « هيجل » نفسه والتي قامت ايضاً من قبله على اكتاف « كانت » الفيلسوف الكبير ومن قبله أساً فيلسوف الطبيعة « روسو »

ان كثيراً من تعاليم ماركس بل اشتراكيته نفسها في مظهرها ، يعود الى « هيجل » . فقد كان نجاح « هيجل » كفيلسوف يعود الى تقديسه « الفكرة » التي اعتبر المادة لها اثراً . واما ماركس فقد أخذ هذه النظرية وقلبها رأساً على عقب وكان باعثه في ذلك النحو من الرأي ان الفكرة في ذاتها لا تقرن الى « تحصيل المادة » في بناء الجمعية الانسانية ، وانشأ على هذا الاساس نظريته الاجتماعية : « Materialist Conception of History » « النظرية المادية للتاريخ »

والآن دعنا نبدأ « بماركس وانجلز » ونرى مدى ما قصد به الادب والفن في مذهب « [illegible] الجدلية » « Dialectical Materialism » او الفلسفة الجدلية أو المنطقية — اذا صح هذا التعبير — . فقد اعتبر ماركس وانجلز ان وجود المجتمع الانساني في أية مملكة وفي أي جيل مما توقف على وسائل الانتاج وقد ينتهي للمجتمع فضلاً عن ذلك « كفايات عليا » كالسياسة والقانون والدين والفلسفة والادب والفن . واستطرد في غير تحرج ان نطلق على هذه الكفايات « مظاهر انتشاط » وهي لا تجتمع كلها في المعاني الاقتصادية وانما من شأنها أن تكوّن بطرق مباشرة أو غير مباشرة « التناسق الاجتماعي » وهي تمتد الى مختلف المرافق العامة كل منها في

اتجاهه الخاص على انها ترتبط في نظام واحد لانها تمثل متضافرة كما انها ترتكز على الحياة الاقتصادية . وإذن فلا يجوز ان يقال ان الحالة الاقتصادية هي وحدها الاثر الفعال وما عداها فلا يعتد به . فقد يتاح مثلاً لطابع اي عصر من « العصور الفنية » ان تؤثر حيويته في « نظام » ذلك العصر بصفة عامة وفي نواحيه الاقتصادية بصفة خاصة . . . لم يحاول « ماركس » أو « انجلز » إقامة مذاهب اجتماعية اقتصادية لكي يستطيعا بها تحديد « المنزلة الفنية للاجتماع » فقد نشأ كلاهما في مغرب أيام « جيته » الشاعر الالماني العظيم قبل ان ينتهي العصر الذهبي للأدب الالماني . ولقد حاول « ماركس » وانجلز ان يطرقا ابواب الشعر في صدر شبابهما بل لقد اندفعا في تيار الحياة الخيالية واستطاعا أن يبلغا فيها شأواً بعيداً بل استطاعا ان يكونا ناقدين لم تقبل عقليتهما هضم ما كان يكتبهُ « أوجين سو » في مؤلفه « الناثلة المقدسة » عن طرق العلاج لبؤس الطبقات المتوسطة في المجتمع . بل لقد نددا « بفردريك فريليجرات » الذي عجر عصبة الاشتراكيين وارتدَّ وطنيًّا في عام ١٨٧٠ وكذلك أخى ماركس باللائمة على « هنريش هيني » عند ما ظن ان هذا الاخير قد انحنى خوفاً أمام اصحاب السلطة عندما كتب « تعبيرات الزهد » في وصيته . وهذا ثابت من رسالة ماركس الى انجلز في ديسمبر ١٨٦٦ مع ان ابنة ماركس تقرر ان والدها كان يحب « هيني » بقدر ما كان يتقاضى عن إخفاقه السياسي . ولقد كان ماركس يقول ان الشعراء قد يكونون عاثرة اذا ماتركوا في سبيلهم احراراً فليس من المفروض اساساً أن نضعهم في المستوى العادي الذي نضع فيه سواد الناس

لم يكن من مميزات ماركس وانجلز الحكم على الآداب — آداب السمو والقوة — في حدود اتجاهاتها السياسية . فلقد طالما انذر ماركس روائي الاشتراكية عما ينجم من خطر عن الآداب الناضحة التي قد تؤدي نتائجها الى اغراض غير صريحة . ولقد كتب الى « ماكيتكي » يقول لها عن احد مؤلفاتها ان شخص البطل والبطلة في قصتها قد ذابا في المبادىء التي يمثلانها ويقول لها لقد اتخذت بعض جوانب تلك القصة لابراز نظرياتك الى المجتمع على أني أرى ان الاتجاه يجب ان يصدر عن الحوار والحركة دون ان يركزا في مذاهب اجتماعية او نظريات علمية وانهُ ليس على الشاعر ان يطلع على القارىء بحل ما يختتم به نهاية النزاع الذي يسرده »

ولقد أرسل « فرديناند لاسال » مأساته الشعرية « فرانز فون سيكنجن » الى ماركس وانجلز يدعوهما الى نقدها . فكتب اليهِ ماركس يقول « اذا تركتُ جانباً أي فكرة تعرض لي عن نقد هذا المجهود الأدبي فان قراءتي الأولى لتلك الدرة الثمينة قد أثرت فيَّ التأثير كله وطبيعي ان يثير مثل هذا الادب كل ذي وجدان » . أما انجلز فقد قال انهُ قد قرأها مثنى وثلاث ومن فرط اعجابه بها وضعها جانباً متأملاً في ما عسى ان تمليهُ عليهِ مواضعها من نقد . . . » ولقد

نحدثنا في هذا عند ما كانا يدفعان بنفسيهما الى المحيط الادبي لكي يطّلعا على الانتاج الفكري ويضمان بصدده ما يعن لهما من الملاحظات . ولا تعجب في عصرها بلغت « الدراما » مكانة رفيعة ولقد أمكنهما ان يبينا كيف ان مكانة « لاسال » السياسية جعلته يخطىء فهم الدور الذي لعبهُ بطل مأساته . أما « شاكسبير » فقد كان « ماركس » يكلف بآثاره الادبية والشعرية كلفاً شديداً . فكان يحفظ شعره عن ظهر قلب . وكان مشغوفاً بكتابة مذكرات عنهُ . ولكن لم يحاول ان يخرج منها بأية فكرة عن الاشتراكية

ولقد كتب ماركس مبيناً مدى العلاقة بين الفن والنظام الاجتماعي فأشار في مقدمته لنقد « الاقتصاد السياسي » الى ان في بعض العصور التي شارف فيها الفن المثل الاعلى لم يكن لهُ ثمة اتصال بالتقدم الاجتماعي . بل لم يكن لهُ صلة بالقواعد المادية التي يقوم عليها نظام الاجتماع . ولم يكن ماركس او انجلز ممن يتخذون الفن سلاحاً . « Art as weapon » بل كانا يتأثران بالمثل الاعلى للعقلية التي تشترك في مناحٍ كثيرة للعلوم والمعرفة فلم يحبذا التخصص في احد العلوم او الفنون بل كانا يقدران شخص ذلك العالم الذي قام في أيام «النهضة الاوربية» Renaissance والذي كان موسوعيّ الثقافة

وهذا «ليوناردو» كان مصوراً ورياضيًّا وعالماً هندسيًّا . ودونك «بنفنوتو سيلليني» فقد كان شاعراً ومؤرخاً وسياسيًّا ماهراً . كان هذان الرجلان اذن يمثلان تلك النظرية التقنية قبل ان يكون لتقسيم العمل « Division of Labour » هذا التحديد لطبيعة العقل ونموه وقبل ان يُفرض على كل انسان عمل خاص . على اننا اذا ما نظرنا الى «لينين» مثلاً وجدنا أنفسنا أمام شخصية مثقفة بحرية وانا نجد أيضاً ان ماركس خصَّ نفسه بشيئين « التنظيم والكفاح » ولقد كان كمظم الروسيين — يعشق الموسيقى . ويتحدث عنهُ جوركي فيقول « لقد كان يستمع ألحان بيتهوفن فيؤثر سماعها كل يوم على أي شيء ويعبر عن احساسه نحوها فيقول . تلك هي الموسيقى التي ترتفع عن عواطف البشر وانني لا أذكر بفخر ما يصل اليه سمو العاطفة وجلال الالهام بل ما يصل اليه العقل شيء اني لا أستمرىء سماع الموسيقى كثيراً . فهي تؤثر في أعصابك وتجعلك اما متبرماً ساخطاً ، او روحاً راضياً على ان ينتهي هذا التبرم او السخط وذلك الفرح والرضاء الى الاعجاب بأولئك الذين يخرجون الى العالم درراً وفرائد ويعيشون في وادي الجحيم »

ولقد كان لينين مشغوفاً بالقصة والشعر والتمثيل وكان ذا نزعة خاصة في تذوق الفنون الرفيعة ولقد قص ذات مرة في أثناء حديث لهُ في احدى ندوات الشباب : ماذا تقرأون ؟ أتقرأون بوشكين ؟ ؟ — لا . لا انهُ كان كاتباً من كتّاب العامة . وانا نحن نجل «مايكوفسكي» . فيتدخل أحد الموجودين وقال : اني لا أظن ان « بوشكين » يفوقهُ كثيراً

وكان لينين يمجد « تولستوي » وكثيراً ما كان يقرأ كتابه « السلم والحرب » ولقد قال لينين عن تولستوي ان عبقريته متقطعة النظير وانهُ الفنان الذي يجب ان يتخذ مثلاً أعلى . ولقد كان لينين يكتب عنهُ مسالماً نواحي عبقريته كما كان « إنجلز » يحلل قصة الشاعر الالماني « جيته » وان كان قد عرّض بعدم مقاومته وتصوفه . وقد كانت فكرة لينين عن جوركي كفكرة ماركس عن « هيني » وكان يقترح في بعض رسائله ان يكون جوركي كاتباً صحافيًّا يدعو للبلشفية . . . على ألاَّ يكون من وراء هذا تحطيم نزعته الادبية العالية . . . وجوركي هذا الذي يعنيه لينين لم يستطع احتمال استبداده ودسائس انصاره فهاجر الى أوربا تاركاً منصبه في حكومة الروسيا وقد كان فيه مديراً للفنون الجميلة

ان لينين يمثل تلك « الطوبى » التي تخيلها « ماركس » عن « الاشتراكي المكافح » فقد كان دائم الجلاد والعمل ليصل بأصحاب « الايدي الناعمة » الى مركز الحكم . ولقد كانت نظريات « كارل ماركس » انجيلاً يستنير به في حياته الاجتماعية بل كانت الحافز الذي دفع بلينين الى ان يعتنق تلك الفلسفة الجديدة في الاجتماع حتى أتيح لهُ ان يصل الى تزييق النظام (الرأسمالي) . ولقد كان لهُ ان يحذق تلك الاساليب المختلفة التي يحتاج اليها الهدم والبناء وكانت نظريتهُ ان المبادىء شيء والاعمال شيء آخر وان القائد يجب أن « يجرب » لكي يصل الى خير الوسائل والطرق وبذلك ينتهي الى ما يطمح في الوصول اليهِ . ومما قرب للينين الطريق ما في خلقهِ من حزم واستهتار وبوهيمية

فقد عرف هذا الرجل كيف يسبر غور النفس الانسانية وكيف يختار الرجال ويدرس أوساطهم وبواعثهم النفسية . واستطاع ان يسخّر المجتمع رجالاً ونساء لخدمة اغراضه التي تنحصر في ان الحكومة يجب ان تسودها الطبقات العاملة (Proletarians) وهذا الرجل الذي كان يعمل بآراء ماركس في الحكم كان يبشر بهذه الآراء ذاتها في الادب والثقافة وكان من رأيه ان يكون الادب خادماً للحياة وان يكون وسيلة ضالة من وسائل التقدم الاجتماعي . واذا كانت الحرية غاية في ذاتها فتحرير الفكر من أسر التقاليد هو « الغاية » التي يجب ان يسعى اليها الادب

أما « تروتسكي » فكان أديباً يفضّل على لينين . أخرج عام ١٩٢٤ دراسة مسهبة عن « الادب والثورة » عالج فيها المشاكل التي تعرض لها الكتّاب الروسيون وعن علاقاتها بالمجتمع الجديد الذي يعتبر وليداً للثورة . ولقد تعرّض في بحثه لاشياء لم يتعرض لها ماركس وأنجلز من موضوعات تختص بالنقد الادبي تحدث فيهِ عن قيمة الادب ورسالته في الحياة . لقد قدر تروتسكي منزلة « شكسبير واليونان » فليس يحق لكاتب من كان ان يثير غباراً على هذه الآثار الخالدة الحية . ولقد كان هذا رأيهُ بينما الكتّاب الروسيون كانوا يتساءلون عن منزلة الادب

والفن في عصور الانحطاط الدكتاتوري او الحرية الاشتراكية . وما هي الثقافة التي للطبقات العاملة التي عنها تنشأ الاشتراكية . وهل تكون هنالك آداب شعبية جديدة في أساليب جديدة تمثل عواطف وآراء تلك الدكتاتورية الشعبية ؟ لقد كان في روسيا جماعة أطلقوا على انفسهم « البروليكلت » رغبت تلك الجماعة في ان تحتكر الاشراف على الآداب السوفيتية . على ان لينين بدأ في معارضة المشروع بحجة ان الآداب الشعبية شيء لا يقوم على قوة السياسة او استغلال الآراء السياسية وانما يقوم على التطور الطبيعي القائم على المعرفة والعلم والتي جاهد من أجلها الشعب تحت ضغط رأسمالية الاشراف والحكام . ولقد زعم تروتسكي في كتابه « الادب والثورة » ان الآداب الشعبية والثقافة الشعبية تنتهي الى نتيجة خطيرة في التكوين العلمي لعقلية الشعب اذا اشتركت ، إذ تجمع خطأ ثقافة المستقبل في الحيز الضيق لحالتنا الاجتماعية الحاضرة . وانا نفهم من « ماركسيته » اتجاه التأثيرات الخاصة بالادب القومي الذي يدعو الى الحرية والبعد عن تأثيرات اصحاب السلطة . ولقد قدر تروتسكي أولئك الكتاب والشعراء والروائيين الذين المتهم الحياة كثيراً من دروسها وعرفوا مدى ما ينتهي اليه تفكيرهم من بحث الازمات الاقتصادية . . . وهو مع هذا لم يكن يؤمن بالادب الشعبي الذي حل محل الادب « البرجوازي » . فلقد نما ادب الثورة الفرنسية البرجوازي في كنف العهد القديم ولكن روسيا « الامية » لم يكن لها مثل هذا الحظ من الثقافة وقد لا يحتمل أن تتمتع به في المستقبل لان الدكتاتورية الشعبية لم تكن الا فترة انتقال قصد بها إيجاد فكرة انسانية عظيمة . فالشيوعية لم يكن لها حتى اليوم ثقافة فنية ولكن كان لها ثقافة سياسية ! ! . ويقول تروتسكي — لم يكن من السهل ان تطبق مبادىء ماركس على الصور الفنية كما انهُ من السهل ان نقيس الصور الفنية الى مكانتها من السمو الفني بمقاييس الفن نفسه ! ! . لم يتعود الناس في روسيا ان تشرف الحكومة على الاعمال الادبية والفنية . وكذلك لم تحاول الهيئات الادبية أن تثبت وجودها عن طريق الحكومة . وانما كانت في روسيا منذ الانقلاب الثوري جماعات أدبية حاولت ان تسيطر على الادب برعاية السلطة حيناً وبدون رعايتها حيناً آخر . ولقد كان تروتسكي بمكانته الرسمية يضاد هذه الجماعات ويحتقرها . وكان نحو الادب الروسي يعتقدون أن هذا النوع من الاستقلال بعيد عن الروح الاشتراكي . انهُ شر محض وان الحكومة لا الادب يفيد كثيراً من هذا الاشراف على الثقافة . وهذا السبل بعيد عن جادة الصواب فقد كان الادب « الروماتيكي » في عهد القيصر يلعب دوراً لم يتح لمثله ان يشبه في عهود التاريخ كلها . فقد كان النقد الاجتماعي والسياسي والادبي مقضياً عليه بالرقابة . وكان أن أبيس النقد يومئذ لباس « الدراما » لكي يظهر في أثواب مسرحية . ولقد تهيأ المسرح يومئذ عهد جليل من عهود التمثيل الفنية في القرن الثامن

عشر بل ان هذا هو السر في قوة تلك القطع الروائية العظيمة التي انتجها عباقرة الكتاب في تلك الفترة منذ عهد بوشكين حتى تولستوي وكان هذا الادب التمثيلي يتسم بالتعريض art of implication ولقد كان يكفي لان يفلت مؤلف «تورجنيف» من يد الرقيب لكي يطرد الرقيب نفسه بل يسجن وكان هذا الموضوع التمثيلي « A Sportsman's Sketches »

ظلت الآداب كالسياسة منذ الثورة في حالة شديدة من التناقض والارتباك . أما بعد الثورة فقد كان المفكرون انفسهم اصحاب قوة ورأي . وكان اندماج الثقافة بالسياسة يومئذ لا يخلو من اخطار وشرور . فعمد لينين وتروتسكي ولوناشارسكي وجوركي الى تحرير الادب من اي دعوة . وكان لهم أن يناهضوا هذا الشعور الفكري الذي وجد في اذهان الشعب منذ عهد القيصر والذي كان يعتبر الفن سلاحاً للدعوة . وكان لينين لهذا يفيد كثيراً من دعاوة الصور المتحركة وكان اول فيلم شاهده الشعب هو « لاينشين » و« بترونكين » وهو قطعة عظيمة في التعريض والنقد الاجتماعي على نسق الروايات التمثيلية التي مثلت في عهد القيصر . على ان البلاشفة قد أخفقوا بعد موت لينين ونفي تروتسكي في النهوض بهذا النوع من الآداب ولان «ستالين » لم يكن على درجة من الثقافة تعدل تلك التي للينين أو تروتسكي . ولقد خمدت حركة النقد المسرحي نفسه لان ذلك الشعب الامي لم يكن ليصل الى تلك الذروة من التفكير

كان جوركي مدافعاً عن حرية القلم بل كان قد ارصد نفسه للدفاع عن حرية الفكر فاليه يرجع هدم «الراب » R. A. P. P. آخر مجهود في الاحتكار الثقافي . ولقد فتح الكنائس والمعاهد السوفيتية لاقطاب الكتاب الاجانب وكذلك لكتاب الكلاسيكيين وان كان هذا التصرف قد ادى الى تدعيم المظهر الديمقراطي وهيأ مجالاً واسعاً للاطلاع على الآداب والعلوم والفلسفات . وهذه الفترة تفضل كثيراً عهد « ستالين » حيث لا سبيل الى معارضة سياسية او نقد اجتماعي . وفي روسيا نجد السياسة تقرر المصير الاجتماعي ؟ . . واذن ما هو على وجه التحديد موقف المفكرين الروسيين . اولئك الذين يهتمون بفلسفة التاريخ او فلسفة الفنون والذين نضعهم في الصدارة اذا ما ذكر ادباء الاجتماع في العالم ! ! ان الموضوعات التي يعرض لها الادب التمثيلي اليوم في الروسيا لا تمت بصلة الى «الميلودرام» ذلك التمثيل القوي الذي يصدر عن العاطفة والمعاني الخلقية . وانما نجد اليوم في الروسيا قصصاً تمثيلية عزيزة تتجه نحو الدعاوة الى اسلوب الحكم الذي يقوم به «ستالين»

ان موسيقى «موسورجسكي» التي لم يتذوقها الجمهور كانت دليلاً على اهمال الديمقراطية ومبادئها . وطبيعي ان موت «جوركي » وسجن « بوكارين» و « رادك» ازال « الفرملة » التي كانت تحول دون التدهور الفني وبعبارة اخرى التدهور السياسي . ان تمويه الحقائق التاريخية

في عهود ازمات ستالين وتروتسكي قد ادت الى نتائج وهمية حتى ان الحكومة لا تتوانى في ان تضع للناس برنامجاً جديداً يمثل تاريخهم القديم ويصف اخلافهم . ومثل هذا التصرف لا ينتهي الا بأفساد الحياة العقلية التي تقوم عليها مظاهر الاجتماع وتقدمه . على ان هذا كله يقابله العالم اجمع في شيء من الهدوء والابتسام . وعلى هذا النحو فقد دفعت « الماركسية » بنفسها في مأزق حرج او كما يقولون قد اسقطت نفسها في بئر . ونحن قد يخيل الينا ان « السوفيتيين » لم يبق لهم من ماركسيتهم حتى « الثقافة السياسية » في أعنف صورها . وهكذا فقد بعدنا عن تأثير الحرية طالما قد فقدنا إلمامها . واذن الى اي غاية تنتهي قضية « الماركسية والادب » . انا يجب ان نتذرع في هذا البحث بالمنطق السديد وبحكم العقل واذن فلا ينبغي ان نغفل تلك الآيات الادبية الخالدة التي اخرجها آباء الماركسية . اننا قد بعد قليلاً عن « تروتسكي » فيما قد قررناه من أحكام ونصرّح بأن « الماركسية » وحدها لا يمكن ان تدلنا على الطيب أو الرديء من الانتاج الفني . فقد يكون هنالك « ماركسيٌّ » ممتاز ولكنهُ قد فقد ملكة التخيل او الذوق واذن فهو لا يستطيع ان يفرق بين الغث والسمين في الانتاج الادبي وهذه نتيجة « ايديولوجية » خاصة بتكوين ثقافته

ان دراسة الادب وعلاقته بالاجتماع قديمة جداً قدم « هردر » وفيكو . ولقد سبق « لكولردج » ان تحدث عن تلك العلاقة التي تقوم بين الادب والمجتمع . فقد تبين « قوة » السلطة اليونانية في عهودها التاريخية في ثنايا التعبيرات الادبية اليونانية . كما قد تستطيع ان تلمس « الفردية » الانجليزية في محاورات « تشوسر » . على ان « ابرجوازي » الاكبر في هذا السبيل من النقد هو (تين)

ان الكاتب اذا شاء ان يطبق المبادىء والنظريات الماركسية ولا سيّما نظرية ماركس عن « الفلسفة الجدلية » ينبغي ان يدرس الادب الانساني درساً عميقاً . فالشيء الذي يجب ان يتنبه لهُ الكاتبون يتعلق بالمعاني التي ترمي اليها حقائق الادب . ولعل هذه الحقائق لن يصل اليها العقل في يسر وسهولة فقد لا يستطيع الاديب نفسه اداء هذه المعاني في شيء من التبسط . إما لغموضها وإما لابهامها وإما لرمزيتها . وقد يعاني القارىء شيئاً غير قليل من العسر اذا ما انتهى الى حدٍّ يخيل اليه انهُ الحقيقة او المعنى الذي اراده الكاتب . وقد يكتفي بما يعثر عليه من آراء اشتراكية تهذيبية . وقد يخصي اذا ما عرف معنى من المعاني بخلاف تلك التي يرمي اليها الكاتب . فبعض المعاني والالفاظ يصح ان يتخذ فيها اكثر من تفسير واحد او معنى واحد . ولقد كتب (فريدريك انجلز) الى (مارجريت هاركنيس) عن هذا فقال لها . (كما استطاع الكاتب ان يخفي آراءه او خواطره السياسية كلما كانت اقرب الى الوضع الفني . فلذلك بآرائه الرجعية يفضل زولا كثيراً رغماً عن آرائه الاخيرة الديموقراطية) فلذلك كان موضع اعجاب ماركس وانجلز . ولقد كان يزري لهدم الطبقة النبيلة في المجتمع وكأن نقده لم يكن مرّاً واستهزاءه لم يكن

عميقاً عند ما كان يصور الشخصيات الارستوقراطية المعاصرة . تلك الشخصيات التي كان يحبوها بعطفه . بل التي كان اعجابه بها سافراً . وهؤلاء انفسهم كانوا من معارضيه السياسيين الذين استطاعوا ان يمثلوا مطالب الطبقات الشعبية في الفترة بين عامي ١٨٣٠ — ١٨٣٦ . وعلى هذا فليس من المحتم انهُ ينبغي في الآية الفنية تحديد الاشخاص في معرض النزاع او غيره من شؤون الاجتماع حتى يتهيأ إعداد الصورة الكاملة عن المجتمع . وهذا ما قد يعرض لهُ الادب كما قد تعرض لهُ الموسيقى من وجهة الفن . على انهُ من المفروض تحديد العواطف والانفعالات التي تدفعنا الى الحركات والاعمال ومن هذا نرى ان الذكاء الحقيقي واستشفاف حجب الغيب يدلان على حيوية التفكير في النفس وهذا ما يستطيع الكاتب تبيانه في ادبه اذا كان موهوباً واذا عرف ان يصل الى ما تهيؤهُ لهُ افكاره من صور وما ينبغي عليه عقله من آراء علمية متزنة

وليست الماركسية في النقد تعني الهدم وانما هي تعني البناء . فناقد (اليسار) الذي لا يتزود بالكفاية الادبية قد يصدر الى وزن المؤلفات الادبية بموازين ليست مضبوطة . وهذا مصدره قلة التحصيل والاطلاع على مقاييس القيمات الادبية والخلقية . فالناقد ينبغي ان يعرض للادب باعتباره (وسيلة) لا باعتباره (غاية) فالمثل الاعلى للادب الماركسي مثلاً هو (فائدته) التي تعود على هذا المجتمع الكبير . كأن يقرر الوضع الصحيح للفرد والمجموع وحقوق المرأة ورسالة العلم في الحياة وماهية الفلسفة وتعديل النظم الاقتصادية وتعريف الحقوق والواجبات . والالتزامات الخلقية المفروضة في الكتّاب والادباء . واليوم الذي تصل فيه الماركسية الى هذا حد الفترة التي « تتحجر » فيها وتصير مذهباً فلسفياً كالمذاهب المعروفة . أما ميزات المثل الاعلى للادب الماركسي فهي كما ذكرها (جراشل هكس) في مقال لهُ عن الأزمات في النقد ما يأتي : —

أولاً : ان تكون وظيفة هذا الادب ان يفهم القارئ من طبقة العمال دوره الذي يقوم به في الكفاح الاجتماعي . ثانياً : ان يظهر ذلك الادب بطريقة مباشرة او غير مباشرة نتائج كفاح الطبقات

ثالثاً : اشعار القارىء ان الكاتب يساهم في هذا الضرب من الحياة الاجتماعية التي يعرض اليها

رابعاً : ان يكون الكاتب نفسه في مقدمة طبقة العمال عطفاً وروحاً

ولقد عقد في فلسطين عام ١٩٣٥ مؤتمر الكتّاب الروسيين وتبنى فيه مذهب (الاشتراكية الواقعية) في الادب ولم يكن هذا غير محاولة لتقرير بعض الموضوعات الادبية عن الحياة . أما « الفرضيون » الذين يتصورون الى حدٍّ ما أدب المستقبل فلهم ان « يحكموا على نسبة ما وصل اليه الانتاج الادبي في عصور الامبراطورية » وبين فقر الادب في هذه الايام . واذا كان في عرفهم انهُ لم يظهر حتى الآن أديب يسمو الى تقدمهم او يكون مستحقاً لهُ فهم من أجل هذا يؤملون كثيراً في المستقبل ويعولون انهم سيعلون على عصر « سادي » او كفاحي قد يوجد فيه طائفة من « المثاليين » .

«والانسانيون» في عرفهم قد وجدوا خير معين في أدب سوفوكليس وشاكسبير « والاشتراكيون الواقعيون » Realist كان لهم تولستوي وأضرابه. على انهُ من الثابت لو ان تولستوي قد عاش في حيز ما يفرضهُ او يحدده هؤلاء لما كان قد كتب فصلاً واحداً وكذلك لو ان (بايبت) و(مور) قد أمكنهما ان يقيا أمام (شكسبير) فروضها لما كان قد خط حرفاً من قصيدة

لقد بدأ الادب الروسي منذ أول هذا العصر ان يسير في وجهتين مختلفتين الاولى وجهة الادب الواقعي والثانية وجهة الادب البرجوازي الكثير (الرومانتيكيات) وقد انتصر الاول بانتصار الماركسية وتهدم الثاني لبعده عن الحياة وقربه من الخيال والصنعة والارستقراطية ولقد ظل هذا الاخير منذ نهاية القرن الثامن عشر يسعى للدخول في الحياة ويحاول لكي يجد لهُ تأثيراً فيها فأخفق بعد ما يقرب من المائة سنة بينما الادب «البروليتاري» التقريري قد عرف كيف ينفذ الى صميم الحياة بعد النصف الاخير من القرن التاسع عشر وهو قد بلغ أوج مجده في السنوات التي اعقبت الحرب الكبرى

وقد يقول قائل وما ادعى الاوقات ملاءمة للانتاج الفني ؟ قد يكون في عصري الثورة وما قبل الثورة انتاج ادبي فيهِ حيوية وتجدد . وهذا ما يخالف وقت الثورة نفسه فما لا شك فيهِ ان الصور الادبية العالية يحتاج في صنعها الى فراغ وهدوء والكاتب في غضون الثورة محروم منهما. فأدب الثورة الفرنسية احتوته خطب (دانتون) ومذكرات (كاميل ديمولان) وقصائد (اندريه شينيه) السياسية القليلة التي كتبت قبل ان تنزع رأسه (الجيلوتين). أما أدب الثورة الروسية فقد احتوته كتابات لينين وتروتسكي واشعار الكسندر بلوك (الاثنا عشر)

أما ما قبل الثورة فقد كانت العوامل كلها تدعو لاختمار الافكار . ففي القرن الثامن عشر في فرنسا والقرن التاسع عشر في روسيا لم تكن قوة الادب فيهما مستمدة من الثورة المتوقعة ولكن كانت هنالك ظواهر ملموسة للأدب الراقي الذي يسير بخطى واسعة نحو الكمال ولقد كان للمعاهد العلمية الكثيرة وجهابذة الفكر والادب فضل في هذا الصدد لا ينكر واذا عرضنا للادب (البروليتاري) الذي لازم الثورة الاشتراكية فقد نقول ان الكتاب كانوا يكتبون عن (الواقع) الذي يحيا فيهِ العامل وكانوا كذلك يكتبون عن (البرجوازيه) في أسلوب تميز بالاختصار حتى لكأنهم يطوقون الادب بهذا الغلاف (الرمزي). لقد كان البؤس والفقر والمظالم السياسية موضوعات تولستوي وديستويفسكي وجوركي والقصص التي كتبها هؤلاء جميعاً تنحو نحو النقد الموضوعي على ان (القصد) عندهم لم يكن واضحاً وضوح (الفن) وتلك ناحية في الاسلوب قد تطبع أدبهم بطابعها الخاص. على اننا لا ننسى ان جوركي كتب حقاً عن موضوعات هي كالموضوعات التي عرض لها تولستوي وديستويفسكي واضرابهم وانما كان إيضاح الغاية والقصد ما يجب ان يصل اليهِ دائماً . ولعل من ابعث الاسباب للتجديد في أدبهِ انهُ كثيراً ما عدا الوسط الذي يعيش فيهِ ولذلك فقد كتب عن الاقتصاد وحرية المرأة وعدم المبالاة بالعرف الاجتماعي

٤ — علم الانسان

الانسان المجهول

تلخيص : اسماعيل مظهر

٧ — ضرورة المفاضلة بين المعلومات المتباينة الخاصة بالانسان — بردجمن ومذهبه في التصور الفعال — نبذ المذاهب العلمية والفلسفية — وظيفة الفروض

إنّ جهلنا بأنفسنا لجهل ذو طبيعة خاصة . جهلٌ ليس مصدره صعوبة الوصول إلى المعلومات الضرورية ، ولا خطأ تلك المعلومات ، ولا ندرتها . بل هو على العكس من ذلك ، جهل سببه وفرة المعلومات التي كدّسها الانسانية عن نفسها خلال تتالي القرون ، فتناثرت ولم تتسق . أضف الى ذلك تجزيء الانسان قطعاً وتمزيقه تمزقاً من طريق تلك العلوم التي حاولت ان تدرس تركيبهُ الجسماني ووَعيه . غير ان هذه المعرفة الواسعة لم تستخدم لمصلحة الانسان في غالب الامر . والواقع انها معرفة لا يمكن استخدامها ، وبوارُها ظاهر يتجلى في ركاكة التصورات القديمة ، وفي الاسس التي قام عليها الطب وعلم الصحة والتعليم وعلم الاجتماع والاقتصاد السياسي . غير أنا نجد إلى جانب هذا أن هنالك حقيقة حية مقعمة بالقوة تتضمنها تلك الكتلة الهائلة من التعريفات والنظريات والمذاهب والمبادىء والرغبات والاحلام ، تلك التي تمثل لا نظارنا حقيقة تلك الجهود التي بذلها الانسان في سبيل استجماع المعرفة عن ذاته . اضف الى مذاهب الفقهاء وتأملات الفلاسفة ، تلك النتائج العملية التي بلغها الانسان من طريق التجارب التي مارسها اهل القرون الغوابر ، هذا الى جملة وافرة من المشاهدات كانت روح العلم ، وإن شئت فقل «الفن العلمي» السبب المباشر في ان يقوم بها الانسان ويستكنه مغلقها طامة ذا يحفزه حثاً الى التصور بضرورة المفاضلة واختيار الاصلح من تلك الاشياء المتباينة المتنافرة

من التصورات العديدة المتعلقة بالانسان ، نذرٌ هو بطبعه مجرّد تأليف منطقي مصدره العقل الصرف . ولو بحثنا لعجزنا عن أن نجد في العالم الخارج عن حيز العقل (كائناً) ينطبق عليه ذلك التأليف المنطقي . أما غير ذلك من التصورات فنتاج للتجربة والاختبار . وهذه هي التي دعاها (بردجمن) (التصورات الفعّالة) فكل المعرفة الايجابية (اليقينية) تتطلب منا استخدام

فنرمّا ، وبالحري تتطلب بضع عمليات او أفعال طبيعية أو عقلية . فاذا قلنا مثلاً ان شيئاً يبلغ من الطول متراً ، فانما نعني بذلك انهُ يبلغ من الطول مبلغ قطعة من الخشب أو المعدن ، امتدادها مساوٍ لامتداد المتر القياسي المحفوظ في المكتب الدولي للمقاييس والموازين . ونستخلص من هذا المثل ان تصور الطول انما يترادف ومقياس المتر الطولي . ومن هنا يقول بردجمن ان التصورات التي تتصل باشياء خارجة عن حيز الاختبار ، تصورات مسلوبة المعنى ومن هنا يقال ان سؤالاً ما انما يكون معدوم القيمة والنفع ، اذا كان من غير المستطاع أن يستكشف الانسان « العمليات » التي تؤهل بنا الى الاجابة عنهُ

ان دقة « السؤال » في كل الحالات ، تتوقف على « العمليات » التي تؤدي الى فهمهِ واستيعابهِ . فاذا عرفنا الانسان مثلاً بأنهُ « كائن يتألف من مادة ووعي » فان هذا التعريف يكون ولا شك فاقد المعنى . ذلك بأن العلاقات التي تقوم بين الوعي وعالم المادة لم تدخل بعد منطقة الاختبار حتى الآن . وانما يكون التعريف الذي نضعهُ للانسان « تعريفاً فعّالاً » اذا نحن اعتبرناه كائناً قادراً على ان ينشط نشاطاً تتجلى فيهِ آثار الافعال الطبيعية الكيميائية والوظيفية والنفسية . ذلك بأن التصورات الثابتة الحقيقة الدائمة الماهية ، والتي ينبغي ان تكون على الاستمرار أساس علمي الاحياء والطبيعة ، هي التصورات التي ترتبط بأساليب الاختبار . ولنضرب لذلك مثلاً . فان فكرتنا القائمة الآن عن خلايا القشرة المخيّة ، وشكلها الهرمي ، وزوائدها الجذرية للشعبة ، إنما تعود برمتها الى الوسائل التي كشف عنها (رامون كايان) . هذا « تصوّر فعال » . ومعنى انهُ فعال انهُ تصوّر يظل ثابتاً لا يتغيّر حتى تستكشف وسائل أخرى أدق من الوسائل الاولى وأجدى في كشف حقائق جديدة . أما ان نقول ان خلايا القشرة المخية هي مقر الظواهر العقلية ، فلا شكّ يكون قولاً فاقد القيمة واطلاقاً مسلوب القدر ، لاننا لا نستطيع ان نشاهد ظواهر عقلية مندمجة في مادة الخلايا المخية . بهذا نجد ان (التصورات الفعالة) هي الدعائم الثابتة التي يمكننا ان نشيد من فوقها آمنين . واذن ينبغي لنا أن ننظر في قدر المعرفة العظيم الذي استجمعناهُ عن أنفسنا لنختار منهُ القواعد والمعلومات التي لا تلائم ما هو قائم في أذهاننا لا غير ، بل تلائم أيضاً طبيعة الاشياء

وانا لنعلم ان من التصورات ذوات العلاقة بالانسان ما هو مقصور عليهِ وحدهِ ، ومنها ما يتعلق بجميع الاحياء ، وان هنالك تصورات غير هذه وتلك ، كالتصورات المستمدة من علم الكيمياء أو الطبيعة أو الميكانيكا . وانا لندرك فوق هذا جميعهِ ان هنالك طوائف من التصورات والمدركات تتكوّن ما يشبه الطبقات المتراكم بعضها فوق بعض حتى اذا بلغت القمة ، فعندها تقع على الانظمة الحية . فأول تلك الطبقات تتكون من تصور الكهربات والجزيئات والذرّات ، وهي أشياء نجدها في أنسجة الانسان العضوية كما نجدها في الاشجار وفي الحجارة وفي السحاب . ثم يأتي بعد ذلك تصور (المكان — الزمان) وتصور الاستمرار والطاقة والقوة والكتلة ، ويعقّب على ذلك بتصور القدرة

والتفريغ الكهربي والايونات (الشوارد او الدوالف) والتجمع والتبدّد الى غير ذلك . فاذا تجمعت الذرات وأمكنها بذلك التجمع ان تبني خلايا لسيجية، وتألفت الخلايا فكونت أعضاء وتعضّيات، فلا مندوحة من ان نضم الى التصورات السابقة تصورات أخرى كتصور الاجسام الصبغية في الخلية والمورّثات genes والوراثة والتهايؤ adaptation والغريزة الى غير ذلك . على ان كل طائفة من هذه التصورات ينبغي ان تستخدم في المجال العلمي التي هي تابعة لهُ فلا تتطفى طائفة منها على مجال طائفة أخرى ، والاّ ضللنا السبيل وعجزنا عن ادراك الحقائق ادراكاً يجعلها ذات فائدة عملية

لهذا نقول ان تنافر وجوه المعرفة ذات العلاقة بأنفسنا انما يرجع الى وجود بقايا المذاهب العلمية والفلسفية الدينية متغلغلة في ثنايا الحقائق الايجابية الثابتة . فان العقل اذا أبغض صبغة مذهب من المذاهب أيًّا كان ، فان بغضهُ هذا لا يمكنهُ من ادراك الظاهرات الجامدة الواقعة على وجهها الصحيح . ولقد استمرت الانسانية في خلال كل العصور تنظر في ذاتها من خلال مناظير غشيتها المذاهب والمعتقدات والاوهام . وتلك أشياء يجب ان تندثر وتتبدّد . ولقد قال (كلود برنار) انهُ من الضروري ان يتخلص الانسان من آصار المذاهب الفلسفية والعلمية اذا هو أراد ان يتخلص من البودية . على اننا لم نحصل على هذه الحرية بعد . فالاحيائيون — Biologista ومن ورائهم القائمون على شئون التربية والاقتصاديون والاجتماعيون ، عندما تواجههم معضلات مهوشة معقدة ، يستسلمون عادة لاغراء الفكر ويروحون يقيمون نظريات ، ثم لا يلبثون ان يحوطوا هذه النظريات بصور من القداسة تتبلور ثم تصير عقائد ، حتى لقد نرى ان علومهم قد تبلورت بالفعل حتى بلغ تبلورها من التعقد والشدة مبلغ المذاهب الدينية

نواجه في التاريخ أمثالاً عديدة تبين لنا عن أمثال هذه الاخطاء شائعة في كل مناطق المعرفة . وأجلى مثل على هذا ، العراك القائم بين القائلين بالروحانية والقائلين بالآلية . ان هذا العراك لباقٍ الى يومنا هذا . وهو فوق ذلك عراك سببه خطأ من أشهر الاخطاء التي استمرت الانسان . فالروحانيون يظنون ان الكائن المتعضّي ما هو غير آلة تتماسك أجزاؤها بفضل عامل مفارق للبدن ، وان هذا العامل لا علاقة له بالقوانين (الطبيعية الكيمياثية) . هم يقولون ان تفاصيل الجسم الحي انما تظل متماسكة مترابطة بحكم مبدإ روحاني مستقل عن البدن ، وان مثل هذا المبدأ كمثل المهندس الذي يصمم الآلة ويحكم سيرها . بل قالوا ان هذا العامل المستقل ليس بطاقة ، بل ولا يستحدث طاقة . وانما هو مُوكل بتدبير شئون الكائن المتعضّي . ومن الجليّ أن هذا المبدأ الروحي ليس (تصوراً فعالاً) . انهُ في الواقع تأليفاً عقليًّا . وعلى الجملة نقول ان الروحانيين يعتبرون البدن آلة يدبّرها مهندس يسمونهُ (الروح) أو (القوة العليا) . هذا ولم يتحققوا يوماً ما من ان ذلك المهندس المدبّر ليس شيئاً سوى (ذكاء) الانسان ذاته

وكذلك الحال اذا نظرنا في ما يقول الآليّون ، فهم يعتقدون ان جميع مظاهر النشاط

الوظيفي والنفسي يمكن تعليلها بحقائق مستمدة من العلم الطبيعي والكيمياء والميكانيكا. فهم بذلك يشيدون آلة. ولكنهم نسوا، كما نسي الروحانيون من قبلهم، انهم هم بذواتهم المهندس الذي أقام هذه الآلة وحبك اطرافها. فهم، على ما يقول (وودجار)، قد غفلوا عن حقيقة ذلك المهندس ووجوده. ولا شك في ان هذا النصور بذوره ليس تصوراً فعّالاً

بذلك يظهر لنا ان القول بالروحانية والقول بالآلية قولان ينبغي ان ينبذا ويتدرءا، شأن كل المذاهب الاخرى، ولنفس الاسباب التي تدعونا الى القضاء على المذاهب عامة. على انهُ ينبغي لنا الى جانب هذا ان نتحرر من الاوهام ومن الاخطاء ومن الحقائق التي لا تقوم على مشاهدة صادقة. ومن المسائل التي تناول حلها علماء اتصفوا بضيق العقل وضعف التفكير، ومن المستكشفات الزائفة التي روّجها أدعياء او علماء اكتسبوا شهرتهم بدعاوة الجرائد والصحف الاخرى. ولا ينبغي لنا ان نتحرر من هذا وحده، بل من اشياء أخرى لا تقل عن تلك أثراً، كالبحوث غير المثمرة والدراسات الطويلة المملة لاشياء فاقدة المعنى مسلوبة القصد والمغزى

إذا طهّرنا أنفسنا من آثار ذلك جميعاً، اصبحت نتائج البحث الجدّي في العلوم ذوات العلاقة بالانسان، والثروة العظيمة التي تربت على التجاريب والاختبارات العلمية، الاساس الصلب الجامد الذي تقوم من فوقه معرفتنا. واذا نظرنا في تاريخ الانسانية لاستطعنا ان ندرك تفاصيل الجهد الجوهري الذي بذلته خلال العصور بلمحة واحدة

غير انهُ يجب علينا ان نعي انه الى جانب المشاهدات اليقينية الايجابية والى جانب الحقائق الثابتة، توجد اشياء كثيرة ليست إيجابية وليست بعيدة عن مجال الجدل. والواجب ان أمثال هذه الاشياء لا ينبغي ان تنبذ، بالرغم من أن «التصورات الفعّالة» وحدها هي الاسس التي يقوم من فوقها بناء العلم. ذلك بأن قوة التخيّل، وهي قوة ابتكارية خلاّقة، هي وحدها القوة القادرة على بعث تلك الظنون والفروض والاحلام التي سوف تستخلص عن حقائقها عصور المستقبل. علينا أن نستر نسائل انفسنا واضع امامها المشكلات التي تلوح من وجهة نظر النقد العلمي لا معنى لها ولا قيمة. وبفرض اننا حاولنا ان نصد عقولنا عن التطلع الى معرفة المستحيلات والمجهولات، فلا شك في اننا نخفق في ذلك. فان حب الاستطلاع صفة رسيخة في طبائعنا، بل هو دافع اعمى لا يعرف سنة ولا يطيع قاعدة. ان العقل البشري يمضي باحثاً في كل الاشياء الخارجية ويمضي مخترقاً اعمق اغوار نفوسنا، وأعمى تفاصيل كياننا على البحث، بهمة لا يصيبها الكلال ولا ينفذ اليها الملل. ان حب الاستطلاع يحفزنا الى استكشاف الكون واستيعاب ظواهره وحقائقه. انه صفة فطرية تقودنا في ركابها دائماً الى رحاب مجهولة، الى جبال شامخة صعبة المرتقى وعرة المتحدر. ولكنها جبال على شامخها ووعورة متحدراتها، تذوب وتتبدد امام هذه القوة، تبدد الدخان اذا ما ذرتهُ الرياح

نجم "العنز" العجيب

في سورة ممسك الاعنة
وعناية الفلكيين به

« ممسك الاعنة » او « صاحب العنز » او « العنّاز » ولهُ اسماء اخرى صورة من صور النجوم الشمالية ممثّلة في بعض الاطالس الاوربية النجوم في صورة رجل قائم خلف فرساوس بين القيفا والدب الاكبر ممسكٌ اعنة بيده اليسرى وحاملاً جدياً على ذراعه اليمنى . وقد رسم في كتاب الصوفي الفلكي العربي — ومنهُ نسخة خطية مصوّرة بدار الكتب المصرية — بصورة رجلٍ جاثٍ على ركبته اليسرى وعلى رأسه عمامة من الكشمير وباحدى يديه عصاً في اسفلها الشوكة وفي اعلاها خيطان ربط بهما حقتان . واسم هذه الصورة باللغة العلمية Auriga وبالانكليزية The Waggoner or Charioteer اي فارس المركبة

في هذه الصورة ما يزيد على ستين نجماً انورها العيوق Capella وهو من القدر الاول . ولكن النجم الذي يهمنا في هذا المقال من نجوم « ممسك الاعنة » ليس العيوق بل « العنز » المعروف في لغة الفلك العلمية باسم « ابسيلون اوريجي » (راجع « بائض على الفلك للدكتور صروف » و « المعجم الفلكي » للفريق امين فهد المعلوف) لانهُ من النجوم التي استوقفت انظار الفلكيين في الاشهر الاخيرة بوجهٍ خاص لطرائف خاصة متصفٍ بها كشف العلم عن حقيقتها

***

في مستهلّ القرن السابع عشر (سنة ١٦٠٣) حاول الفلكي الالماني باير Bayer ان يضع اسماء لجميع النجوم التي ترى بالعين المجرّدة وكان من النجوم التي تناولها نجم في « ممسك الاعنة » وسمهُ بالحرف الخامس من الابجدية اليونانية « ابسيلون » نعرف من ذلك العهد باسم « ابسيلون اوريجي » في كتب الفلكيين ومقابلهُ بالعربية على ما جاء في المعجم الفلكي (المعلوف) العنز

ولم يكن باير ولا غيرهُ من علماء عصره يحلم بان هذا النجم سيصبح في عصرٍ تالٍ موضوع

بحث دقيق . ففي القبة الزرقاء اكثر من مائة نجم تفوق « المنز » اشراقاً . وخمسة آلاف نجم تُرى بالعين المجرَّدة . وفي المجرَّة وحدها عشرة آلاف مليون نجم على اقل تقدير . واذا اخذنا بالظاهر من طبائع « المنز » لم نستطع أن نتبيَّن فيهِ ما يميزهُ عن غيرهِ من النجوم

الاَّ ان الواعظ الالماني فرتش Fritsch كان اول من ظنَّ ان هذا النجم يختلف عن غيرهِ ذلك بانهُ لاحظ في شتاء سنة ١٨٢١ ان اشراق « المنز » قد ضؤل حتى بلغ نصف ما يكون عليهِ عادة . ولكن هذه الملاحظة نسجت عليها عنا كب النسيان خيوطها الدقيقة ، ومضى نحو ربع قرن قبل ان عني أحدٌ بهذا النجم ففي سنة ١٨٤٨ لاحظ الفلكيُّ الالماني شمدت Shmidt ان اشراق المنز كان نصف ما كان عليهِ في ربع القرن السابق . ومنذ تلك السنة ١٨٤٨ مرَّ المنز في ثلاثة أدوار من صالة النور وضعف الاشراق ، كالتي لاحظها شمدت سنة ١٨٤٨ وقبلهُ فرتش سنة ١٨٢١ وذلك في سنة ١٨٧٥ ثم في سنة ١٩٠٢ ثم في سنة ١٩٢٩ — ١٩٣٠

ونحن نعلم الآن ان المنز ليس نجماً فرداً بل هو نجم مزدوج قوامهُ نجمان يدور أحدهما حول الآخر في فترة مداها سبع وعشرون سنة . والنجوم المزدوجة ليست نادرة في القبة الفلكية ، ولكن أوصاف المنز تختلف عن أوصافها . فدراسة عناصر هذا النجم المزدوج أفضت الى توقع كسوف فيهِ في ميعاد معين . فتمَّ الكسوف في ميعاده ، ولكن لوحظ ان ضوء الشريك الشرق في هذا النجم المزدوج لم يحتجب عند ما كان الكسوف تامًّا . فحجب الفلكيون وحيَّروا وظلوا محيَّرين حتى ظهر لهم ، أن المنز ليس نجماً مزدوجاً عاديًّا ، وان الشريك الخفيَّ ليس الاَّ كرة عظيمة من الغاز اللطيف حرارتهُ واطية جدًّا ، لم تعهد من قبل في اي نجم آخر درسهُ العلماء

وكان في مقدمة علماء الفلك الذين عنوا بدراسة هذا النجم الخفي الاستاذ كويبر Kuiper أحد علماء مرصد يركيس فبيَّن بالحساب الرياضي ان قطر الشريك الخفي في « المنز » يزيد ثلاثة آلاف ضعف على قطر الشمس . ووجد أيضاً ان الطاقة الاشعاعية التي يطلقها في الفضاء كل من نجمي المنز تفوق ستين الف ضعف ما تطلقهُ شمسنا من الضوء والحرارة . ولما كانت مساحة سطح النجم الخفيّ في المنز تفوق عشرة ملايين ضعف مساحة سطح الشمس فالحرارة التي تنطلق من كل بوصة مربعة من سطح نجم المنز الخفيّ تقلُّ مائتي ضعف عن الحرارة التي تنطلق من مساحة مماثلة لها على سطح الشمس

فاذا طبقنا القاعدة الطبيعية بأن قدر الطاقة التي يشعها جسم ما وثيقة الصلة بحرارة ذلك الجسم افضى بنا الحساب الرياضي على هذا الاساس الطبيعي الى ان حرارة سطح النجم الخفي في المنز من رتبة ١٣٠٠ درجة مئوية وهي حرارة واطية جدًّا لاي نجم من النجوم . فحرارة سطح الشمس

٦٠ آلاف درجة مئوية وحرارة سطح الشعرى ١٠ آلاف درجة مئوية . والجسم الذي حرارته نحو ١٣٠٠ درجة مئوية لا يكاد يبلغ درجة الحمرة ولذلك يكون معظم الطاقة التي يشعها من الاشعة التي تحت الاحمر . واذن فنجم النز الخفي لا يمكن ان يرى بالعين لان الاشعة التي تحت الاحمر لا ترى بالعين وكذلك لا يمكن تصويرها بألواح التصوير الضوئي العادية

ولما كان قطر هذا النجم يفوق قطر الشمس ثلاثة آلاف ضعف فحجم كرته يجب ان يفوق حجم كرة الشمس ثلاثين الف مليون ضعف ، ولكن مقدار المادة في هذا النجم لا تفوق مقدار المادة في الشمس الا ثلاثين ضعفاً واذاً فكثافة المادة فيه اقل من كثافة المادة في الشمس نحو الف مليون مرة . وأقل من كثافة الهواء نحو مليون مرة . ولذلك يصح ان نقول في نجم النز الخفي انهُ فراغ تام تقريباً يطلق أشعة تحت الاحمر

وقد عني الاستاذ سترومغرن Strongren أحد علماء مرصد يركيز بهذه الناحية من البحث فأثبت ان تجسماً هذه صفاته لا بدَّ ان يكون شفافاً تقريباً ولذلك يخترقهُ نجم رفيقهِ في أثناء الكسوف كما يخترق الضوء العادي جدار فقاعة من الصابون . وهذا يفسر المفارقة التي حيَّرت العلماء عند رصد كسوف « النز » وهي ان النجم الخفي لم يحجب ضوء النجم المشرق

***

وكل ما عرف من الحقائق عن الرفيق الخفي في « النز » انما يعرف بأساليب قائمة على الحيلة الطبية والمداورة لان أحداً لم يستطع ان يراهُ او يصورهُ حتى الآن

من هذه الاساليب ، أسلوب استنبطهُ وأتقنهُ الدكتور شارلس هتلر Hetzler أحد علماء مرصد يركيز . وقوامهُ ألواح دقيقة الإحساس بالضوء الذي تحت الاحمر ، ولكنهُ يضع أمامها ألواحاً تحجب من الضوء الواقع عليها كل أمواج الا الامواج الاشعة التي تحت الاحمر . وبهذه الطريقة تمكن الدكتور هتلر من كشف نجوم كثيرة لا تطلق الا أشعة تحت الاحمر . ولو كانت عيوننا تتأثر بالاشعة التي تحت الاحمر فقط لكنا نرى القبة الفلكية على غير ما هي عليه. فمعظم النجوم التي نراها الآن كانت تختفي لان ما في ضوئها من الاشعاع الذي تحت الاحمر قليل . ولرأينا نجوماً خفية وقد عظم اشرافها لانها لا تطلق الا هذا الضرب من الاشعاع

ثم هناك جهاز آخر يعرف باسم « الثرموكبل » . وهو جهاز لقياس الحرارة عن بعد ، وفي قدرة مستعمله ان يتبيَّن حرارة شمعة على بعد مائة ميل . وقوامهُ أنبوب مفرغ أدخل في جداره قطبان كهربائيان من فلزين مختلفين وقد ثبت بالتجربة ان خير الفلزات لهذا الغرض البزموث لاحد السلكين وخليط من البزموت والتصدير (١٠ في المائة) للسلك الآخر. فاذا عرض

أحد السلكين لضوء نجم وحرارته بوضع الجهاز في محترق مرتب كبير ، وأبقى السلك الآخر غير معرَّض لها ، تولَّد تيار كهربائي دقيق جدًّا يمكن قياسهُ بالجلفانومتر . فالنجوم التي تبلغ من الخفاء مبلغاً يجعل تصويرها متعذراً قد يكون في اشعاعها قدر يسير من الحرارة لاحداث تيار في سلكي الثرموكپل يمكن قياسهُ (١)

والثرموكپل يقيس ضروب الاشعاع من فوق البنفسجي الى تحت الاحمر . ولقياس ضرب معين من ضروب الاشعاع تستعمل مصافٍ خاصة توضع امام هذا الجهاز فلا يخترقها الاَّ الاشعة التي يراد قياسها . فيقاس مثلاً الاشعاع الكامل لنجم من النجوم ثم يوضع المصفى امام الجهاز ويقاس مقدار ضرب خاص من الاشعاع فتعرف النسبة بينهما . وبذلك تعين حرارة النجم

على هذا الاساس العلمي درس علماء مرصد بركز نجم النز المزدوج فتبينوا ان النجمين قريب احدهما من الآخر وان معظم الضوء المرئي منهما مصدره النجم المشرق وهو اصغرهما حجماً وأما الآخر فكبير الحجم جدًّا بحيث يمكن أن توضع الشمس وسيارتها حتى فلك اورانوس فيه

ومن اعجب النتائج التي اسفر عنها البحث في هذا النجم الخفي ، وجود طبقة من الغاز المؤيَّن ionized حولهُ . وهذه الطبقة تابعة بحكم الجذب للنجم وتدور مع كتلته الطبقة حول محوره كما يدور غلاف الارض الغازي مع الارض حول محورها . ولكن الطبقة الغازية التي حول نجم النز الخفي ، مثارة بالضوء الواقع عليها من نجم «النز» المشرق . فيؤثر فيها هذا الضوء تأثيراً مشابهاً لتأثير ضوء الشمس في الطبقات العليا من غلاف الارض الغازي . اي انهُ يؤين بعض ذرات الغازات فتنفصل الكهربات عن النوى فتتكوَّن طبقة كطبقة هيفيسيد التي تصل بالامواج اللاسلكية فعل المرآة بالامواج الضوئية ، فتمنعها من الانطلاق في الفضاء خارج جو الارض وتعكسها الى سطحها ، وبهذا الفعل يفسر انتقال الامواج اللاسلكية حول الارض

الاَّ ان فعل التأين في غلاف النجم الخفي في النز أشد جدًّا منهُ في الارض . فيجعل غلاف النجم الخفي كثيفاً غائماً . فيصعب على الضوء ان يخترقهُ بسهولة . وقد تمكن علماء مرصد بركز من رصد هذا الغلاف الكثيف بمرقبهم البالغ قطر مرآته اربعين بوصة

ثم يجيء ميعاد الكسوف في هذا النجم المزدوج ، مرة كل سبع وعشرين سنة فيقع النجم المشرق في النز وراء النجم المعتم . ولولا طبقة الغاز المؤينة حول كرة النجم الخفي لتمكن الرصاد على الارض من رؤية ضوء النجم المشرق كاملاً تقريباً للطاقة مادته الغازية . ولكن طبقة الغاز تحجب جانباً من هذا الضوء فيبدو للراصد الارضي ان ضوء النز قد ضعف على نحو ما بدا لبايرسنة ١٨٢١ ولفرتش سنة ١٨٤٨ ولعلماء هذا العصر في سنة ١٩٢٩ — ١٩٣٠

(١) راجع فتوحات العلم الحديث صفحة ٣٧٠

سنابل

من حقول العلم

الذهب في مصر : قديماً وحديثاً

تنقل الى قراء المقتطف في ما يلي ملخص جانب من المحاضرة النفيسة التي القاها الدكتور حسن صادق بك مدير المساحة والمناجم والمحاجر ورئيس المجمع المصري للثقافة العلمية في افتتاح مؤتمره السنوي التاسع قال : —

اما في القطر المصري فان ما وجد من الحلى الذهبية في مختلف العصور التاريخية يدل على عظيم اهتمام قدماء المصريين باستعمال هذا المعدن في مختلف الاغراض كما ان ما سطروه على جدران معابدهم وفي بعض اوراق البردي يدل على ان الذهب الذي استعملوه كانوا يحصلون عليه من المناجم المصرية نفسها وقد كانت الممالك المجاورة لهم تنظر الى مصر على اعتبار انها اكبر بلاد منتجة لهذا المعدن فكان ملوكهم يستجدون فرعون مصر للحصول منهُ على حاجتهم من هذا المعدن الثمين

كذلك استغلت مناجم الذهب المصرية أبان حكم العرب كما حدثنا عن ذلك المقريزي وغيره من مؤرخيهم . على ان ستاراً كثيفاً من النسيان أسدل بعد ذلك على هذه المناجم الى أن أزاحه محمد علي باشا الكبير مؤسس الاسرة العلوية الكريمة بفضل البعوث العلمية التي أوفدها الى الصحارى فأماطت اللثام عما بها من معادن ومناجم على ان استغلال مناجم الذهب المصرية لم يبدأ في العصور الحديثة الاَّ في اواخر القرن الماضي واستمر استغلال بعضها حتى عام ١٩٢٧ فبلغ مجموع انتاجها في تلك الفترة حوالي ٨٦ الف اوقية . على ان احوال العمل وتعذر وجود الماء وصعوبة النقل كل ذلك جعل الغلة اقل من الكلفة فأهملت المناجم

حتى اذا جاء عام ٩٣٣ واضطرب النظام المالي في اغلب الامم وخرجت معظمها ومعها انكلترا عن عيار الذهب فانخفضت العملات وارتفع سعر الذهب أصبح سعر الاوقية من الذهب الخالص سبعة جنيهات بعد ان كان في ارقائه العادية لا يزيد على أربعة جنيهات ونصف جنيه واذ كانت نفقات الانتاج لم تزد الاَّ قليلاً مع تحسين محسوس في وسائل النقل بما طرأ على صناعة سيارات النقل من اتقان فقد رؤي

ان الاحوال قد تغيرت تغيراً يشجع على التفكير في اعادة فتح بعض هذه المناجم واستغلالها فقامت الحكومة المصرية بالبحث بواسطة شبان من المصريين تخصصوا في هذه العلوم ورؤي ان من الخير استغلال منجم الذهب بجبل السكري على شاطىء البحر الاحمر على مسافة ١٥٠ كيلو متراً جنوبي بلدة القصير وقد أجريت مباحث في استعمال الماء المالح في عمليات الاستنباط والتنقية لاول مرة في هذا المنجم فأسفرت عن نجاح قلل الحد الكبير الاثر السيء الذي لندرة وجود الماء العذب في تلك الجهات . وقد جهز المنجم بوحدة استغلال صغيرة وبدأ الانتاج في يونيو سنة ١٩٣٧ وبلغ مجموع انتاجه في الشهور التسعة الماضية حوالي ١٧٥٠ أوقية قيمتها ١٢٠٠٠ جنيه تقريباً

وباستمرار أعمال الفحص بالتعمق في جوف الارض اتضح وجود مقادير من المعدن تسمح بتوسيع عمليات الاستغلال فأضيف جهاز استغلال آخر لمضاعفة الانتاج والمنتظر ان يتم ذلك في غضون الشهر القادم (يونيو) فتتضاعف مقادير الذهب الناتج مع اضافة قليلة للتكاليف

وقد شجعنا النجاح الذي صادفناه في السكري على توسيع نطاق البحث في مناجم أخرى فاختير لذلك منجم آخر بجبل أم الروس القريب من السكري. والامل معقود على ان تكلل هذه البحوث أيضاً بالنجاح فنبدأ فيه ايضاً عمليات الاستغلال

ولقد تحقق ما كانت تصبو اليه الحكومة من هذه البحوث فاتجهت أنظار بعض الافراد والهيئات من المصريين والاجانب الى بحث بعض مناجم الذهب الاخرى وبدأت الحياة تدب مرة أخرى في مناجم الذهب المصرية وانا لنرجو ان يصادف هذه الجهود جميعاً النجاح الذي تستحقه حتى ليقال بحق ان عصر الفاروق هو عصر ذهبي يدر الخير والبركات على أبناء هذه البلاد

***

يمين العلماء

عندما يتقدم طالب الطب الى نيل شهادته الطبية يقسم يمين أبقراط المشهورة وأساسها رعاية مرضاه خير رعاية يستطيعها والامتناع عن اعطاء عقار مميت او الاشارة به ولو طلب ذلك منه، وعن مساعدة امرأة على الاجهاض او افشاء الاسرار الخاصة بصناعته وغير ذلك من القواعد الادبية التي يحسبها الاطباء دستوراً لهم في صناعتهم الشريفة

وقد تقدم الآن عالم يدعى هوايت Whyte يمين للعلماء أذاعها في مجلة نايتشر العلمية حاثاً الجامعات والمعاهد والمجلات العلمية على نشرها والحض على اتخاذها رابطة ضد التعصب الجنسي والديني. فهي رأيه ان مبادىء العدل والتسامح وجه اليها تحد صريح في السنوات الاخيرة ، وان الاساس الذي تقوم عليه فكرة الحق Truth — وهي أساس العلم — قد ضرب بمعول الهدم .

لا ريب عندهُ في ان للحضارة الاوربية مساويها ولكنهُ يرى كذلك انهُ يجب علينا إما أن نبذل طاقتنا للاحتفاظ بمحسناتها وإما ان نسلم بالانهيار والارتداد الى التوحش والسفف والتعصب. وأعظم ما تتعرض لهُ من خطر هو الاعتقاد الذائع في ان الناس يستطيعون ان ينعموا بتراث الحضارة طويلاً من غير ان يبذلوا في سبيلهِ. واعتقاد المستر هوايت ان الذين لا يريدون ان يخونوا ذلك التراث يجب ان ينزعوا عن اكتافهم التواضع الكاذب ويصرحوا بموقفهم لان الاحتفاظ بثمار الحضارة وتقاليدها العالية متعذّر إلاّ اذا أذعنا في غير غموض وأتقنا الدليل في غير تردُّد على ولائنا لها. وهذه هي اليمين المقترحة: —

« أنا وارث تقاليد الحضارة التي ثبت انها أرسخ أساساً من الامبراطوريات. فعندما استعمل لفة العلم او منتجاته، فأنا أقدم اجلالي عن غير وعي، لمئات الرجال الذين لم يضنوا بأية تضحية مهما تعظم في النضال لترقية العقل البشري وتأييد الحق. ان التسامح والحرية هما لباب تلك التقاليد. لان الفكر المستقل ومحبة الحق ليسا بأساس العلم فحسب بل وأساس العدل والحضارة

لذلك أعلن ولائي لتلك التقاليد وايماني بحرية الفرد في انماء ملكاتهِ لتنمية ثروة الجماعة، ويقيني بأن جماعة الانسان الآن هي الجنس البشري اجمع، وان على كل شعب داخل في هذا النطاق ان يقوم بنصيبهِ الخاص بهِ. فالتوازن الطبيعي بين الحرية الفردية وبين مطالب الجماعة، وهو حياة الحضارة وصحتها، مهدّد الآن من ناحيتين. انهُ مهدّد في بعض الجماعات من ناحية انكار الحرية. وفي البلدان الدمقراطية من ناحية صدوف الافراد عن التبعات الواقعة عليهم

فني وجه هذا التهديد — اتعهد بانتهاز كل فرصة سانحة لأعلي من شأن تقاليد الحضارة وأحمي كل من يعذب في سبيلها، وان أورث ذلك الى الاجيال القادمة. ولست اعترف بولاء أعظم من ولائي للعمل على صون الحق والتسامح والعدل في العالم المقبل

***

طماطم بلا بذور

يعنى قسم البساتين بجامعة سوري الاميركية باستنبات طماطم لا بذور فيهِ. والطماطم يحتاج الى التلقيح لكي يتعقد الزهر ثمراً، ولكن التلقيح يعني تكوين بذور في الثمر. لذلك عمد الباحثون الاميركيون الى استئصال اعضاء اللقاح من الزهرة. ولما كان استئصالها يحول دون التلقيح والاثمار وجب عليهم ان يستعيضوا عن التلقيح بأساليب كيماوية او ميكانيكية او كهربائية لحمل الزهرة على الاعتقاد ثمراً على نحو ما يفعل لوب وغيره في حيوان «الرتا» (نوتياء البحر) فانهُ حملها على التناسل بهيج كيماوي حيناً وبهيج كهربائي حيناً آخر

وباحثو جامعة سوري يستعملون مادة باعثة للنمو من قبيل انوار الغدد الصم ، فانشأ ثمرة الطاطم من الزهرة وتكون بلا بذور . وهذه الثمار اكبر من ثمار الطاطم عادةً وليس فيها فجوات تحتوي على بذور كالفجوات التي في الطاطم عادةً بل كلها لحم

والمادة المستعملة لهذا الغرض هي الحامض « الاندول استيك indoleacetic » وهو حامض توجد منهُ مقادير يسيرة في البول في حالة مرض القناة الهضمية — محلولاً في اللانولين (وهو دهن من صوف الغنم) بنسبة ١ من الحامض الى ٥٠٠ من الدهن ، ثم تدهن الازهار التي استؤصلت منها اعضاء التلقاح ثلاث مرات في الاسبوع او كل عشرة ايام

اما ثمن هذه المواد فلا يكاد يذكر ولكن معظم الكلفة في طريقة العمل اي في استئصال اعضاء التلقاح من الازهار ودهنها . وقد حاول الباحثون ان يحلّوا رش الحامض محلولاً في الماء محل الدهن باليد فأسفر ذلك عن نتائج لا بأس بها ولكنها لا تجاري نتائج الدهن باليد. ويعزون ذلك الى سرعة تبخر الماء تاركاً الحامض في بلورات دقيقة يتعذر على الزهرة امتصاصها. والبحث جارٍ الآن عن مادة دهنية أخرى سهلة الامتصاص غير سريعة التبخر فيحل الحامض فيها ويرش على الازهار برشاشة ميكانيكية

وينتظر ان ينجح البحث بعد ذلك الى زيادة محصول هذا الطاطم لانهُ من المستطاع حمل الازهار على الانعقاد ثماراً في أشهر الصيف عند ما تحمل الحرارة والرطوبة حبوب التلقاح ضعيفة الفعل

***

علاج جديد للحروق

اذا حرق الجلد وانكشفت الانسجة التي تحته فخير علاج عرف حتى الآن هو استعمال « الحامض التنيك » Tannic Acid وهو مسحوق أبيض يستخرج من جوز الغص ونباتات اخرى ولهُ فعل قابض فيستعمل في وقف النزف . ولكن الطبيبين جوزوده مارش وهما من اساتذة الكلية الطبية بجامعة نورث وسترن الاميركية اعلنا انهما كشفا مركباً كيماويًّا يفوق الحامض التنيك فائدة في علاج الحروق . واسم هذا المركب باللغة العلمية « هكساميتا فوسفات الصوديوم » فيحل وتدهن به الحروق فيمنع الالتهاب ، وهو يتحد بالفعل السائل من الانسجة الجسم المكشوفة بحرق الجلد او انسلاخه فينشأ غشاء رطب متين مرن مانع لتكاثر الميكروبات

تحت هذا الغشاء ينمو الجلد الجديد ، وتحت الجلد الجديد طبقة من الانسجة تكثر فيها الاوعية الدموية الشعرية ، ويزعم الطبيبان جوزوده مارش ان فحص هذه الطبقة في حالتي استعمال الحامض التنيك والدهن بمركب الصوديوم المذكور أثبت ان الانسجة والاوعية في الحالة الثانية اسلم منها في الاولى

التصوف في الاسلام (١)

للدكتور احمد غلوش

دعا الدكتور مكلاهن عميد كلية العلوم الشرقية بالجامعة الاميركية صديقه الاستاذ احمد غلوش الى القاء محاضرة بالانكليزية على فريق من فضلاء الجاليتين الانكليزية والاميركية بالقاهرة ممن يهتمون بدراسة المسائل الشرقية فاجاب الاستاذ هذه الدعوة فوقف الدكتور مكلاهن وقال ان قاعة الدراسات الشرقية كانت حتى الآن تعقد فيها اجتماعات لدرس تاريخ اعلام الشرقيين ومناقبهم ولكننا في هذه الليلة سنسمع هنا لاول مرة رجلاً مصرياً مسلماً متفقاً ثقافة اسلامية عالية وحاصلاً على درجات علمية شرفية من الجامعات الاوربية والاميركية وهو الدكتور احمد غلوش فهو سيحاضرنا الآن في موضوع اسلامي بحت يتعلق بالطرق الصوفية في الاسلام ويشرح لنا مراميها وأغراضها ونشأتها فقد آن الاوان ليتبادل سكان هذا الوادي الرأي فيما لديهم من صنوف الثقافة الروحية والعلوم والمعارف الدينية ويقدم كل فريق منهم الى الآخر احسن ما عنده من ذلك حتى يسود التفاهم بين الجميع مع احتفاظ كل منهم بآرائه الخاصة . قال ونحن معاشر الغربيين كثيراً ما سمعنا بوجود الطرق الصوفية بكثرة في هذه البلاد وسمعنا بالمشايخ والفقراء والدراويش ولكننا في الواقع لا نعرف من حقيقة امرهم شيئاً . وقد تكفل صديقنا الدكتور احمد غلوش الذي اعتنق المبادىء الصوفية ومارس رياضاتها الروحية بان يشرح لنا ما يهمنا ان نعرفه منها . ثم دعا المحاضر الى منصة الخطابة فتقدم وبدأ كلامه بشكر الجامعة الاميركية التي اتاحت لهُ هذه الفرصة للتحدث عن موضوع الصوفية في الاسلام ذلك الموضوع الذي كثيراً ما اخطأ فهمه الغربيون والمستشرقون . واسترسل في الشرح حتى وفى الموضوع حقه

(١) ترجمة المحاضرة التي القاها بالانكليزية بقاعة الدراسات الشرقية بالجامعة الاميركية بالقاهرة الدكتور احمد غلوش رئيس جمعية منه المسكرات بالقطر المصري

من البيان. وقد استغرق القاء المحاضرة ساعة كاملة ونحن ننشرها هنا ترجمتها لفائدة القراء

***

انهُ لاجل معرفة حقيقة التصوف او اي علم آخر ينبغي عقلاً ان يلجأ في ذلك الى المتصوفين انفسهم او اصحاب ذلك العلم فهم اقدر من سواهم على تجلية الموضوع تجلية صادرة عن خبرة لا يشوبها زيغ ولا تحريف واما نقل العلوم عن غير اهلها فقلما يوصل الى ادراكها على حقيقتها

ولقد قرأت عدة مصنفات لفضلاء المستشرقين من الفربيين فألفيتها في الكثير من مواطنها بعيدة عن محجة الصواب فمن ذلك مثلاً ما يزعمونهُ من ان الصوفية والتصوف دخيلان في الاسلام غريبان عنهُ وانهما انما جاء بهما الاعاجم من الفرس قصداً منهم الى تشويه الدين ويزعمون ايضاً ان اصل التصوف يرجع الى العلوم الآرية من الفارسية والبوذية ونحوهما ويقولون غير ذلك من المزاعم التي لا اصل لها

فالتصوف وان كان لبعض الفرس المسلمين شأن كبير في تدوينه وحمل لوائه فهو لا يمت الى المبادئ والمذاهب الآرية او البوذية بأدنى سبب . وشتان ما بين التارك البوذي الذي يزعم انهُ يسلك طرق خاصة من الرياضة وتعذيب النفس ينمحي عنهُ في النهاية وصف الآدمية ويصبح بوذا بنفسه أي إلهاً قد انمحت عنهُ صفات البشرية وبين المسلم المتصوف الذي يعبد الله وحده طبقاً لاحكام الاسلام ومبادئ الدين الحنيف ثم هو يقوم فوق الفروض المقررة بأنواع من الرياضات الروحية المشروعة المسنونة أساسها الزهد والورع والتقوى وغايتها ان يصير بها أهلاً للفوز برضوان ربه والدخول في حضرته وتذوق طعم الايمان بالوجدان

وكثيراً ما خلط المستشرقون بين المتصوفين وبين المشعوذين ممن يأتون بما يشبه السحر وضروب الاعاجيب ويعرفون عندهم باسم أصحاب الاسرار الخفية Mysticism وترجع أسباب هذا الخطإ الى ان المتصوفين كانوا ولا يزالون يعرفون بأهل الباطن وأرباب الاسرار الدونية فظن أولئك المستشرقون ان أسرار الصوفي هي أمور خفية يحرص على حجبها عن أعين الناس كما هو الشأن عند اهل الشعوذة (Mystics) مع ان حقيقة معنى الاسرار عند الصوفيين انما هي الحقائق التي تنطوي عليها ظاهرات الاشياء والحكمة التي يتذوقونها من احكام والشرائع فهذه الاذواق والمواجيد لا يستطيع الصوفي ان يعبر عنها لاحد لا لانهُ يريد اخفاءها عن الناس بل لانها فوق متناول الوصف والبيان إذ هي أمور ذوقية لا تعرف الا بالذوق والوجدان . ومثلها كمثل حلاوة سكر القصب ونحوها مما لا سبيل الى إدراكه بغير التذوق

ولئن كان من السهل على الفقيه والمحدث وكل عالم ان يشرح لغيره الفقه والحديث والعلم الذي أصابه فانهُ من العسير المتعذر ان يبين لعامة الناس أسرار الانوار القدسية والفيوضات

الربانية التي تفيض على قلبه ثمرة عبوديته واقباله على ربه ورياضاته الروحية

على انهُ مما يؤسف له جد الاسف وجود طوائف من الناس في الشرق ينسبون انفسهم الى الطرق الصوفية وما هم منها في شيء وهؤلاء قد يأتون بضروب من المهمهة والتمتمة والايحاء الذاتي ويركنون الى التنجيم والطوالع والجفر وادعاء معرفة الغيب فكانوا بذلك نكبة على المتصوفة وسبباً دعا بعض المستشرقين الى الحملة على طريق التصوف كما دعا آخرين الى القول بان التصوف ليس في شيء من الدين . بيد ان من يدرك سنة الله لا بدَّ ان يعرف انهُ كثيراً ما يوجد الى جانب النباتات النافعة والاعشاب الصالحة حشائش أخرى تنمو حولها ولا غنى عن استئصالها حتى لا تعتدي على النبات الطيب فتفسد عليه أمره

ولئن كان كل متصوّف لا بدَّ ان يستمد قواعد سلوكه الروحي من مبادىء الاسلام وتعاليمه الصحيحة فهناك فرق كبير بين المسلم الصوفي والمسلم العادي ذلك بأن ايمان الاول إيمان تحقيقي ذوقي في حين ان إيمان الثاني إيمان يغلب ان يكون تقليديًّا وراثيًّا انحدر اليه من الآباء او جاءه من طريق التلقين او التعليم او أصابه بحكم الوسط والبيئة التي يعيش فيها دون ان يعرف السر في ضرورة اعتناقه لهذه او تلك من المعتقدات الدينية التي لا بدَّ منها لنجاته في الآخرة . وقد يظل انقلب غامره الشكوك والريب في كثير من هذه المعتقدات ويظل العقل يطالب صاحبه بوضع حدٍّ لها والتخلص منها . ولهذا كان لا غنى لسالك طريق التصوف عن شيخ خبير يجاوز الطريق المؤدي الى تذوق حلاوة الايمان والاطمئنان الى صحة السير على ان يكون هذا المرشد او الخبير هو الآخر قد سلك طريق التصوف على يد شيخ آخر سبق له سلوكها وأصبح قادراً على هداية غيره اليها كراكب البحر يريد الوصول الى بلد ناءٍ بعيد فلا متدوحة له من الاسترشاد برُبان ماهر يقدر على ان يقود السفينة وركبها الى ذلك البلد في أمن وسلام . ومن ثمَّ نشأت طائفة مشايخ الطرق والسالكين فيها لارشاد المريدين الى الطريق حتى لا يضلوا السبيل . وكما ان أطباء الاجسام لا بدَّ من الاستعانة بخبرتهم على شفاء العلل والاسقام فكذلك كان لا بد لمرضى القلوب من الاسترشاد بالمشايخ للتخلص من امراض القلوب

ولا بد لمريد الوصول الى الله تعالى عن طريق التصوف من مجاهدة نفسه وتصفية باطنه من ادران الشهوات الحيوانية والملاذ الجسمانية فضلاً عن البعد كل البعد عن الوقوع في الذنوب والخطايا مما نهى عنه الشارع الحكيم وذلك لا يتم له الا بارشاد شيخ عارف بأمراض القلوب وكيفية تطهيرها من بوائق الملاذ والشهوات وبذلك يتم للمريد اكتساب المعارف الربانية التي يهتدي بها قلبه ويطمئن خاطره ويسكن باله اذ يشعر شعوراً باطنيًّا انهُ قريب من حضرة مولاه

ولا يمكن البتة الحصول على شيء من الحكمة الالاهية والاسرار القدسية الا بتصفية القلب

من الحظوظ الدنيوية حتى تتجلى بهذه التصفية مرآته وتصير بحيث تنعكس عليها الانوار الروحية والفتوحات الربانية

وعند المتصوفين ان الانسان لم يخلق في هذه الدنيا عبثاً ولا صدفة وانما خلق لغاية سامية وان جسمه وان كان خسيساً ارضيًّا فان روحه شريفة علوية وان جسمه وان كان سيفنى بموته فان هذه الروح ستبقى بعد الموت خالدة الى الابد فاذا ما تطهر المرء في بوتقة الزهد والتقوى من ادران الشهوة والحظوظ العاجلة الفانية وسلك سبيل الرياضة الروحية الشرعية فانه ليبلغ بذلك اسمى مراتب الرقي الباطني ويصبح وقد تحولت صفاته الى ما يشبه صفات الملائكة فلا يرى سعادة ولا هناءة ولا غبطة الا في عبادة الله والتسبيح بحمده فاذا اعطاه شكر واذا ابتلاه صبر ويصير ولا همَّ له في الدنيا الا طاعة مولاه حتى تصبح هذه الطاعة سجية له وغريزة فيه لا ينفك عنها بأي حال من الاحوال فلا يلبث المريد ان يرى في كل ما امر الدين به حكمة خفية سامية ويرى مثل ذلك في كل ما نهى عنهُ الدين وعند ذلك يدرك السالك معنى قوله تعالى في القرآن الحكيم « واتقوا الله ويعلمكم الله »

وقد تطور التصوف في الاسلام على مدى الاجيال حتى صار علماً قائماً بذاته يسترشد به الخلق الى سبيل الحق وتتحول به صفاتهم البشرية الى صفات شريفة ملائكية ويتذوقون به طعم الايمان بالقلب والوجدان

وقد بدىء بتدوين هذا العلم وتهذبت حواشيه وانظمت مبادئه ورتبت آدابه حوالي النصف الثاني للهجرة النبوية أي نحو عام ٧٦٠ للميلاد . ومع ان ابحاثه واسعة النطاق فيمكن حصرها في ستة موضوعات او مباحث عامة وهي معرفة الانسان نفسه ومعرفة الله تعالى ومعرفة حقيقة الدنيا ومعرفة احوال الآخرة ومراقبة النفس وايثار حب الله على كل ما سواه

ولما كانت هذه الفرصة لا تتسع امامي لشرح هذه المباحث كلها او بعضها فحسبي ان اتحدث عن التصوف اقلية حديثاً مجملاً يجمع بعض ما تفرق من اطرافه الى ان تهيأ الفرصة لشرح مباحثه تفصيلاً . ولنبدأ بكلمة التصوف ومن اين جاءت فأقول : ان هذه الكلمة دخيلة على اللغة اعني انها ليست عربية الاصل ولم اقف في كتب الصوفية المعتمدة على رأي قاطع في اصل اشتقاقها. ففي المتفرقات للامام الجنيد وقوت القلوب لابي طالب المكي وعوارف المعارف للامام السهروردي والمنقذ من الضلال للامام ابي حامد الغزالي — وهذه امهات كتب الصوفية — نجد ان هؤلاء الائمة جميعاً كانوا في شك من حقيقة تلك الكلمة وقد ذهبوا في امرها مذاهب شتى دون ان يقطعوا برأي فيما ذهبوا اليه . وعندهم انها قد تكون مشتقة من الصفاء لان المتصوفين يبدأون بتصفية بواطنهم من الاهواء والشهوات . واما من التصفية لان الله تعالى تولى تصفية قلوبهم من حظوظ

الدنيا . واما من الصوف لانه كان الغالب في لباسهم كتشفهم وزهدهم في الناعم من الثياب وأما من الصفة (بضم الصاد وتشديد الفاء) وأصحاب الصفة قوم من اصحاب رسول الله زهدوا في نعيم الدنيا وآثروا الله ورسوله والدار الآخرة وفيهم نزل قرآن في مديحهم واظهار فضلهم . وليس في عدم قطع ائمة الصوفية في امر نسبة طريقتهم ما يطعن في جلال قدرهم فانهم قوم عمليون يعبأون بالاعمال دون الاقوال ويهتمون بتحقيق المسميات دون التعويل على اصل الاسماء

وقد خطر لي بعد طول التفكير ان من الراجح ان تكون كلة التصوف مشتقة من كلة تيوصوفية اليونانية التي كانت تطلق عند قدماء اليونان على مذهب روحي يعتنقهُ النساك والزهاد السالفون قبل الاسلام بعدة قرون فكانوا ينأون بجانبهم عن الدنيا ويلجأون الى انواع من الرياضات الروحية والعبادة مما اقتبسوه من انبيائهم ورسلهم حبًّا في التقرب بالروح من خالقهم وتلقي الحكمة والمعارف القدسية منه تعالى . ويؤيد هذا الرأي ما ورد في دائرة المعارف البريطانية من ان التيوصوفيين كانوا معروفين من ازمان بعيدة وكانوا يزهدون في الدنيا وينقطعون الى النسك والعبادة واستنزال الحكمة الالهية على قلوبهم وان هذه الكلمة مركبة من لفظين تركيباً مزجيًّا وهما لفظ تيو (Theo) ومعناه الله و(Sofia) صوفيا ومعناه الحكمة . اي ان اولئك القوم كانوا بزهدهم وعبادتهم يتطلعون الى اكتساب الحكمة الربانية من الله رأساً فهناك تشابه كثير بينهم وبين المتصوفة من حيث اتحاد الواسطة والغاية

ولكن ما هو التصوف ؟

ومهما يكن من خلاف في امر اشتقاق كلة التصوف فانهُ لا خلاف البتة بين ائمة الصوفية في حقيقة معنى التصوف فقد اجمعوا على انه الطريق الوحيد السلطاني الذي يؤدي الى اكتساب المعارف الالاهية والفتوحات الربانية والاذواق والمواجيد الباطنية مما يزيل كافة الشكوك والريب والغموض والابهام من دخيلة النفس فيما يتصل بالكثير من المعتقدات الدينية التي لا بد من الايمان بها . ومنها مثلاً عقيدة القضاء والقدر التي تدل على ان الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء مع اعتقاد ان المهتدين يؤجرون بدخول الجنة وان العصاة يدخلون النار فان العقل قد يظل حائراً في سبيل التوفيق بين الامرين . وهناك مسألة الايمان بالبعث والنشور بعد الموت والفناء وهناك الاعتقاد بخلق الملائكة والجان والشياطين وهذه مخلوقات لا مثال لها من المنظورات والمحسوسات . ثم مسألة خلق البشر من طين وتراب وخلق الطين والتراب من لا شيء . وهناك مسألة النبوة والرسالة وان الله تعالى يكلم المصطفين الاخيار من عباده وينزل عليهم الوحي من سمائه . فما هذا الوحي وكيف يكون . وما هي تلك النبوة وكيف تكون وهناك مسألة المسائل وهي

الاعتقاد بوجود الله تعالى وجوداً ازليًّا وأبديًّا قبل ان يوجد الزمان والمكان فالعقل الراجح والمنطق الصحيح اواضح يوجبان هذا الاعتقاد على كل عاقل والايمان به في غير ما تردد ولكن الايمان بالشيء تتفاوت درجاته فقد ينقص الى حد ان يكون ظنًّا او اقل من الظن تبعاً للمعاصي التي يرتكبها الانسان قلة وكثرة وقد يتزايد الى حد ان يكون عياناً ومشاهدة وهذا تبعاً لمقدار ما يقوم به المرء من طاعة الله والاقبال على عبادته ضعفاً وقوة. وقد دلت سير المتصوفين الاولين السابقين ممن وصلوا الى الله تعالى وصول مشاهدة ومعاينة يجلان عن الوصف ويدقان عن العبارة على ان هذه الطريقة هي الكفيلة حقًّا بالقضاء على كل غموض وابهام في امور الدين وعقائد الايمان كما قال سيد المتصوفين علي ابن ابي طالب لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً وان هي الا رياضة روحية مباركة ورحلة في طريق السعودية موفقة حتى يشلج امام قلب السائر فيها نور اليقين فعين اليقين حق اليقين حيث تنهزم من امام بصيرته ظلمات الحيرة والقلق ويمتلىء الباطن عرفاناً وايماناً بكل ما نطق به الرسل الكرام وجاءوا به من عند الله

وعند الصوفية ان دين الله تعالى واحد في جميع العصور والاجيال ولم يكن في اي زمن سبق سوى الاسلام واعني به التسليم المطلق والخضوع التام لاوامر الله تعالى وما جاء به المرسلون من الشرائع والاحكام وان اختلاف الاديان لم يتناول العقائد قط وانما يتناول اعمال العبادات وكيفياتها وطقوسها تبعاً لحاجة العصر وتعاقب الازمان فالاديان جميعها من حيث اصولها لا تباين بينها ولا خلاف. واساس ذلك الاعتقاد بوجود الله تعالى ووحدانيته واتصافه بكل ما يتصور من صفات الكمال وتنزهه عن كل نقص يخطر على البال والاعتقاد بملائكته وبكتبه المنزلة وبرسله المرسلة وباليوم الآخر وهو يوم الحساب وبالقضاء خيره وشره من الله. وليست العبادات في جميع الاديان مطلوبة لذاتها من صلاة وزكاة وصوم وحج وقربة وانما هي وسائل لا بدَّ منها للتدين كما يصل بها الى تطهير النفس من أدران الشهوات تطهيراً ترقى به الروح الى القرب من الله ودخول الجنة فهي تشبه العلاج الذي يتداوى به الجسم من الامراض. وكما ان تعاطي المريض لما يصفهُ له طبيب الاجسام من علاج يسمهُ وحده دون الطبيب الذي يعالجهُ اذ المريض هو الذي سيتناول هو الشفاء دون الطبيب فان الله تعالى غني بذاته عن عبادة عباده فهم الذين سيجنون وحدهم فائدة هذه العبادة

ولما كانت النفوس البشرية بحكم تكوينها وخلقتها الحيوانية بحاجة الى تطهيرها ومداواتها من آثار العلل الشهوانية حتى تصفو وترتقي وتصير أهلاً للعودة الى ربها وخالقها راضية مرضية فان المتصوفين هم اشد عباد الله تمسكاً باحكامه واوامره المقررة في الشريعة كما اتى بها الرسول من عند الله فمن قال ان الصوفيين اهل تفريط في التمسك باهداب الشرائع الالهية فقد ظلمهم

وافترى عليهم فما جاء في كتب المستشرقين من الاوربيين عن تهاون ارباب الطرق الصوفية برسوم الشريعة مخالف للواقع بعيد عن الصواب

والحق ان المتصوف لا يكتفي مثل سائر المسلمين بالقيام بظاهر العبادات المسنونة في الدين بل ينظر بنور البصيرة الى ما تنطوي عليه الرسوم والاحكام من حكمة واسرار فيغوص لالتقاطها واستخراج هذه الاسرار من بواطنها ومكامنها كما يغوص السباح الماهر لالتقاط الاصداف من قبعان البحار لا رغبة في الاصداف ذاتها بل ليستخرج منها الجواهر واللؤلؤ الثالي فالصلاة مثلاً عبادة مطلوبة لانها تنهي عن الفحشاء والمنكر وفيها ذكر الله وذكر الله أجل شأناً وأكبر وهي لا تحقق هذا الغرض اذا كان المصلي لا يؤديها وهو حاضر القلب لا يفكر في اثنائها الا في اداثها على الوجه الاكمل. فالمتصوف يحرص كل الحرص على الفوز باسرار الصلاة على هذا الوجه فلا يصلي وهو شارد الفكر ينصرف بقلبه في خلالها نحو السوق ومصالح الدنيا من مال أو ولد. وكذلك الشأن في سائر العبادات المفروضة فان الصوفي يعرف ما تنطوي عليها من حكمة واسرار فيحرص على بلوغها ويحذر من كل ملابسة تؤدي الى ضياعها. ولم يشفق المتصوفون على عوام المسلمين حين يصلون وهم عن صلاتهم ساهون فلا يفيدهم قيامهم بها على هذا الوجه أجراً فضلاً عن تطهيرهم من الفحشاء والمنكر وهذا الذهول من المسلمين عن اسرار العبادات وعدم الحرص عليها وقلة الحذر من تفويت حكمتها عليهم كان السبب الاكبر في نظر المتصوفين لما أصاب المستوى الروحي في العهود المتأخرة للاسلام من الضعف والانحطاط

التصوف من الناحية التاريخية

وقد يتساءل الكثيرون عن السبب في عدم انتشار الدعوة الى التصوف في صدر الاسلام وعدم ظهور هذه الدعوة الا بعد عهد الصحابة والتابعين. والجواب عن هذا انه لم تكن من حاجة اليها في العصر الاول لان اهل ذلك العصر كانوا اهل ورع وتقوى وأرباب مجاهدة واقبال على العبادة بطبيعتهم وبحكم قرب اتصالهم برسول الله فكانوا يتسابقون ويتبارون في الاقتداء به في ذلك كله فلم يكن ثمة ما يدعو الى تلقينهم علماً يرشدهم الى امرهم قائمون به فعلاً وانما مثلهم في ذلك كمثل العربي الفح يعرف اللغة العربية بالتوارث كابراً عن كابر حتى إنه ليقرض الشعر البليغ بالسليقة والفطرة دون ان يعرف شيئاً من قواعد اللغة والاعراب والنظم والعروض فمثل هذا لا يلزمه ان يتعلم النحو ودروس البلاغة ولكن علم النحو وقواعد اللغة والشعر تصبح لازمة وضرورية عند تبلبل الالسن او لمن يريد من الاجانب ان يتفهمها لينتفع بها او عندما يصبح هذا العلم ضرورة من ضرورات الاجتماع كبقية العلوم التي نشأت وتألفت على توالي

العصور في أوقاتها المناسبة. فالصحابة والتابعون وان لم يتسموا باسم المتصوفين فانهم كانوا صوفيين عملاً وإن لم يكونوا كذلك اسماً. وماذا يراد بالتصوف اكثر من ان يعيش المرء لربه لا لنفسه والتحلي بالزهد وملازمة اسباب العبودية والاقبال على الله بالروح والقلب في جميع الاوقات مما وصل به الصحابة والتابعون من حيث الرقي الروحي الى أسمى الدرجات فهم لم يكتفوا بالاقرار بعقائد الايمان والقيام بفروض الاسلام بل قرنوا الاقرار بالتذوق والوجدان وزادوا على الفروض الاتيان بكل ما استحبهُ الرسول من نوافل العبادات وابتعدوا عن المكروهات فضلاً عن المحرَّمات حتى استنارت بصائرهم وتفجرت ينابيع الحكمة في قلوبهم وفاضت الاسرار الربانية من جوانحهم. وكذلك كان شأن التابعين وتابعي التابعين وهذه العصور الثلاثة كانت أزهى عصور الاسلام وخيرها على الاطلاق. وقد جاء عن رسول الله وخاتم الانبياء قوله خير القرون قرني هذا فالذي يليه والذي يليه

فلما تقادم العهد ودخل في حظيرة الاسلام أمم شتى واجناس عديدة واتسعت دائرة الارشاد والتبيين في مختلف ميادين المعرفة والعلوم فمن ثمَّ وجب تقسيم العمل وتوزيعه بين ارباب الاختصاص فقام كل فريق بتدوين الفن والعلم الذي يجيده أكثر من غيره فنشأ بعد تدوين النحو في الصدر الاول علم الفقه وعلم التوحيد وعلوم الحديث وأصول الدين والتفسير والمنطق ومصطلح الحديث وعلم الاصول والفرائض (الميراث) وغيرها وغيرها . وحدث بعد هذه الفترة ان أخذ التأثير الروحي يتضاءل شيئاً فشيئاً وأخذ الناس يتناسون ضرورة الاقبال على الله بالعبودية بالقلب والهمة مما دعا أرباب الرياضة والزهد الى ان يعملوا هم من ناحيتهم أيضاً على تدوين علم التصوف واثبات شرفه وجلالته وفضله على سائر العلوم. ولم يكن ذلك منهم احتجاجاً على انصراف الطوائف الاخرى الى تدوين علومهم كما يظن ذلك خطأ بعض المستشرقين بل كان كما يجب ان يكون سدّاً للنقص واستكمالاً لحاجات الدين في جميع نواحي النشاط مما لا بد منهُ لحصول التعاون على تمهيد اسباب البر والتقوى

وقد بنى أئمة الصوفية الاولون اصول طريقتهم على ما ثبت في تاريخ الاسلام نقلاً عن الثقات الاعلام انهُ حدث في العام الاول للهجرة ان اجتمع بضعة عشر رجلاً من المهاجرين ومثل ذلك من الانصار من اهل المدينة وتعاهدوا بينهم ان يزهدوا في الدنيا وليسها الزائل ويقبلوا على الله والدار الآخرة ويشغلوا جميع اوقاتهم ولا سيما في اوقات السحر والفسق بصنوف العبادات حبًّا بالله واقتداء برسوله فكان هذا التعاهد بمنزلة عهد قطعوه على انفسهم لله لا مناص لهم من الوفاء بهِ والاَّ كانوا آثمين وذلك ما يسمى بالعهد بين اهل الطريق الى الآن . وكان أساس زهدهم في الدنيا قول النبي صلى الله عليهِ وسلم « الفقر فخري » ومن هنا جاءت التسمية

التي أطلقوها على أنفسهم ومن دخل في طريقهم وسلك سبيلهم وهي (الفقراء) فالواحد منهم كان ولا يزال يسمى بالفقير ومعنى الفقير عندهم ليس من هو بحاجة الى معونة الغير بل معناها الفقير الى رحمة الله المستغني به عن الخلق جميعاً

كذلك ثبت عندهم ان النبي لقن أصحابه ذكر لا اله الا الله جماعة وفرادى فأما تلقينه لاصحابه جماعة فقد رواه شداد بن أوس في حديث صحيح قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام هل فيكم غريب ؟ يعني من أهل الكتاب قلنا لا يا رسول الله فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بغلق الباب وقال ارفعوا أيديكم وقولوا لا اله الا الله فرفعنا أيدينا ساعة وقلنا لا اله الا الله ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أبشروا فان الله قد غفر لكم . وأما تلقينه صلى الله عليه وسلم لاصحابه فرادى فقد قال علي بن ابي طالب كرم الله وجهه سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله دلني على أقرب الطرق الى الله عز وجل وأسهلها على عباده وأفضلها عند الله فقال يا علي عليك بمداومة ذكر الله عز وجل سراً وجهراً فقال علي كل الناس ذاكرون يا رسول الله وانما اريد ان يخصني بشيء فقال رسول الله مه يا علي ان افضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا اله الا الله الى آخر الحديث الشريف . فهذا اصل سند القوم في تلقين الذكر الى اليوم وهم يرون من فوائده ارتباط القلوب بعضها ببعض الى رسول الله وان اقل ما يحصل للمريد الصادق اذا دخل في سلسلتهم بهذا التلقين ان يكون اذا حرك به حلقة لسانه جاوبته أرواح الاولياء من شيخه الى رسول الله فمن لم يدخل في طريقهم بالتلقين فهو غير ممدود منهم وقلما يفتح عليه بما فتح به عليهم

ويروى ان أبا بكر الصديق أول الخلفاء الراشدين كان يتولى قيادة فريق من أولئك الفقراء كما ان عليا بن أبي طالب بن عم النبي ورابع الخلفاء كان يقود فريقاً آخر . وبعد وفاة أبي بكر أخلفه في طريقته سلمان الفارسي أحد كبار الصحابة من أهل فارس وبعد وفاة علي تولى خلافة طريقته الحسن البصري وكان كل منهما يسمى بالخليفة ولهذا صار يطلق اسم الخليفة الى يومنا هذا على كل شيخ من مشايخ الطرق الصوفية

***

ويتمسك المتصوفون في اقيالهم على الله بالهمة وصدق النبوءة ، بما جاء في القرآن وهو قوله تعالى :

« قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين »

ولهذا اوجب الفقراء اي المتصوفون على انفسهم ان يكونوا في جميع الحالات على قدم الاستعداد للتضحية بهذه المصالح الدنيوية كلها في سبيل قيامهم بحق العبودية لله وحده فلا تلهيهم تجارة ولا بيع ولا اي متاع آخر عن ذكر الله وعبادته راضين نصب اعينهم الغرض الاسمى من خلقهم ووجودهم في هذه الحياة الدنيا وهو ما جاء في قول الله تعالى في القرآن وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون

وقد دلّ تاريخ هؤلاء القوم على ان عمدتهم في التقرب الى الله فوق قيامهم بالفروض عليهم في الاسلام التزامهم اذكاراً واوراداً كل صباح ومساء وأهم هذه الاذكار ذكر لا اله الا الله ثم الصلاة على النبي ومعناها استنزال البركات الدينوية الربانية على روحه صلى الله عليه وسلم

وعندهم كما ثبت بالتجارب والممارسة ان لذكر الله باللسان مع حضور القلب وبالكيفية المخصوصة المتفق عليها لدى شيوخهم وطوائفهم اثراً كبيراً بحجز القلب عن وصفه في تصفية الباطن وتنوير القلب بالانوار والفتوحات الربانية كما ثبت مثل ذلك للصلاة على النبي. والمسلمون مأمورون في القرآن بهذه الصلاة وهي فرض عين على كل مسلم صوفيًّا كان او غير صوفي وانما المتصوفون يكثرون منها جهد الطاقة لما لها من الاثر العظيم في جلاء مرآة القلب وصفاء الروح صفاء عجيباً مظهره الاكبر تملك حب الله ورسوله من صميم نفوسهم

وأما تسميتهم بالمتصوفين فلم تحدث او بالاحرى لم يرد لها ذكر في كتب التصوف المعتمدة الا بعد عصر الخليفة المأمون سابع الخلفاء العباسيين (١٩٨ هجرية او ٨١٣ — ٨٣٣ ميلادية) وقد كان ذلك العصر ازهر عصور الادب العربي وفيه توفر العرب على نقل العلوم والفلسفة الاجنبية . والظاهر انهم التقوا فيها بكلمة تيوصوفية اليونانية فعربوها وتحنوا منها اسماً معرّباً اطلقوه على جماعة الفقراء فكان هذا الاسم هو التصوف لان كلمة الفقراء لم تكن وافية في ذاتها في الابانة عن المعنى الذي يتميز به المتصوفون عن غيرهم من المسلمين وقد المعنا الى بيان ذلك من قبل

وأما كلمة الصوفية وكلمة الصوفي فهما كذلك منحوتتان من نفس كلمة تيوصوفية المتقدم ذكرها وقد اطلقت الاولى اي الصوفية على العلم نفسه والصوفي على من تحقق بهذا العلم وتلبس به. واما كلمة المتصوف والتصوف فقد استعملت الاولى منهما للدلالة على السالك في هذا الطريق الآخذ في اسباب التحقق به واستعملت الثانية (التصوف) على سلوك الطريق

وقد كان تأسيس اول طريقة نظامية من الطرق الصوفية الطريقة السهروردية مؤسسها الشيخ علوان في سنة ١٤٩ هجرية (٧٦٦ ميلادية) وبعد ذلك توالى انشاء الطرق الاخرى بتوالي القرون وكانت كل واحدة منها تسمى باسم شيخها ومؤسسها . وقد يتعذر اليوم تعداد الطرق الموجودة الآن كلها لكثرتها. فنجتزىء الآن بذكر اشهرها وهي : —

	اسم الطريقة	مؤسسها	تاريخ تأسيسها
١	العلوانية	الشيخ علوان المدفون بمجده	١٤٩ هـ — ٧٦٦ م
٢	الادهمية	الزاهد ابرهيم بن ادهم « بدمشق	١٦١ « — ٧٧٧ م
٣	البسطامية	الامام ابو يزيد البسطامي « جبل بسطام	٢١١ « — ٨٧٤ م
٤	السقاطية	الامام سري الدين السقطي المدفون ببغداد	٢٩٥ « — ٩٠٧ م
٥	الجيلانية	سيدي عبد القادر الجيلاني «	٥٦١ « — ١١٦٥ م
٦	الرفاعية	سيدي السيد احمد الرفاعي «	٥٧٦ « — ١١٨٢ م
٧	السهروردية	الامام شهاب الدين السهروردي «	٦٠٢ « — ١٢٠٥ م
٨	الشاذلية	سيدي ابو الحسن الشاذلي الصغير بالبحر الاحمر	٦٥٦ « — ١٢٥٨ م
٩	المولوية	سيدي جلال الدين الرومي قونيه	٦٧٢ « — ١٢٧٣ م
١٠	الاحمدية	سيدي احمد البدوي طنطا	٦٧٥ « — ١٢٧٦ م
١١	النقشبندية	سيدي بير محمد نقشبند قصر عرفان	٧١٩ « — ١٣١٩ م
١٢	السعدية	الامام سعد الدين دمشق	٧٣٦ « — ١٣٣٥ م
١٣	البخاشية	سيدي الحاج بخاش كيرشر بالبانيا	٧٥٦ « — ١٣٥٧ م
١٤	الحلوتية	سيدي عمر الحلوتي قيصرية	٨٠٠ « — ١٣٩٥ م
١٥	البرهامية	سيدي الحاج برهام انقره	٨٧٦ « — ١٤٧١ م
١٦	البكرية	سيدي ابو بكر الوفائي حلب	٩٠٢ « — ١٤٩٦ م
١٧	الجلشانية	سيدي ابرهيم الجلشاني القاهرة	٩٤٠ « — ١٥٣٣ م
١٨	الجالية	سيدي جمال الدين اسطامبول	١١٦٤ « — ١٥٧٠ م

فهذه الطرق الصوفية المشهورة وكثير غيرها مما لم نذكره ليس من خلاف بينها من حيث الاسس والمبادىء الاصلية وانما الفرق في نوع الاذكار والاوراد التي يواظب عليها المريدون من اتباع كل طريقة منها فقد يفتح الله تعالى على واحد منهم بطريق الالهام ويؤتى حظاً كبيراً من الانوار القدسية فيكاشف بفائدة ذكر اسم معين من اسماء الله الحسنى فيكون ذلك سبباً او اساساً لانشاء طريقة جديدة مشتقة في الواقع من طريقته الاصلية ومن ثم كان تعدد الطرق الصوفية على تقادم العصور والازمان

وليس في الامكان ان نأتي على تبيان مختلف الاذكار والاوراد وصنوف الرياضات ومدارك السلوك لدى ارباب الطرق المتنوعة وحسبي ان اصف لحضراتكم بالايجاز المراحل التي يتطها اتباع الطريقة الحلوتية وقد قطعتها بنفسي بتوفيق الله وبارشاد شيخي العارف بالله سيدي عبد الله بن محمد

البناء المدفون في الاسكندرية قدس الله سره وهذا الوصف ينطبق في مجموعه على حال الطرق الاخرى — فأقول:

طريق التصوف في سلوك الى الله

يبدأ سلوك هذا الطريق باستشعار رغبة ملحة تستولي على القلب فتبعث بها في باطن المرء داعية قوية نحو تذوق الايمان بالوجدان وعدم الوقوف عند حد التصديق او اليقين الذي حصل عليه بالتوارث او بالاستدلالات النظرية والعقلية فما أبعد الفرق بين من يعتقد بين اهل مصر بوجود لندن في انكلترا وهو لم يشاهدها في حياته وانما آمن بها لتوفر الادلة العقلية على وجودها وبين من رآها رأي العين وعاش فيها زمناً . وتأخذ هذه الرغبة تزداد في القلب تمكناً بمقدار صفاء الروح واستعداد النفس الى الرقي الروحي فيسلكها الحنين والشوق الى معرفة خالقها معرفة ذوقية لا عقلية ولا عقلية ويغلب ان تساور الانسان في هذه الحالة شكوك وظنون وأوهام خفية فيما يتعلق بالمعتقدات الدينية دون ان يجد من عقله مرشداً كافياً لحل معضلاتها والخروج من ظلمات الحيرة المترتبة على تلك الظنون والشكوك فيلجأ عند ذلك الى احد المرشدين الى طريق الحق من مشايخ الصوفية بشرط ان يكون هذا الشيخ من المحققين العارفين بالله ممن سبق لهم سلوك هذا الطريق بنفسه وهو مأذون من شيخه بالتسليك فيه ويطلب اليه أن يدخله في عداد اتباعه الآخذين في السلوك الى الله على يديه . ففي هذه الحالة يسمى الطالب (مريداً) أي يريد السير في الطريق وهذه اولى المنازل وتسمى منزلة الارادة فيتلقاه الشيخ بالفرح والسرور ويأخذ عليه العهد بالتوبة من ذنوبه والتبري من حوله وقوته واخلاص النية في مقصده وغايته القيام بما يفرضه الطريق على السائر فيه من الاذكار والاوراد المشروعة فضلاً عن القيام بما يستوجبه الدين من اتباع أوامره واجتناب نواهيه ويوصيه بملازمة التقوى في السر والعلانية ومراقبة الله في كل حال ثم يلقنه الذكر ويعطيه الاوراد ومن ثم يبدأ سلوك المريد ويسمى عند ذلك (سالكاً) جاعلاً اكبر همه في الدنيا الاشتغال بالعبادة والزهد والرياضة بحسب ما يرسمه له الشيخ فيقبل على الله بصدق النية وتصفية القلب عما سوى الله حتى يتخلى بذلك الى مقام يسمى بمقام العبودية ويظل السالك يجاهد في الطريق نفسه وهواه حتى يتغلب عليهما بالاكثار من الضراعة والتذلل والتزلف الى بارئه حتى اذا ما اقبلت عليه العناية الالهية وتقبلت مناجاته وضراعته ارتقت الرغبة في قلبه فصارت عشقاً لله وحباً لذاته العلية وحتى يصل السالك الى مقام في الطريق يسمى (مقام العشق)

ولا يزال هذا العشق يتملك قلب السالك حتى يطرد من باطنه كافة الاماني والحظوظ

والرغبات الدنيوية فيقوده هذا الحال الى مقام ارقى يعرف بمقام (الزهد) حيث تتم فيه تصفية القلب وجلاء مرآته جلاء يجعله بحيث يصير مستعدًّا لاستقبال ما تنعكس عليها من المعارف القدسية والانوار الالهية بدون واسطة العقل او المخ او اي عمل من اعمال الجسم الفسيولوجية

وهنا يواصل السالك سيره الى الله وهو دائم التفكير في معبوده الاوحد لا يهنأ له عيش ولا يطيب له وقت الاَّ اذا اقترن بذكر الله والتسبيح بحمده وعند ذلك تنبثق في قلب السالك انوار تلك المعارف اللدنية اي التي تهبط على القلب بطريق الالهام الباطني بكيفية تجل عن الوصف وبها تحصل لديه اذواق وجدانية يتفهم بها ما لم يكن يفهمه بعقله من معاني النبوة ويعرف هذا المقام عند المتصوفة بمقام (المعرفة)

ويظل السالك بعد ذلك مواظباً على اذكاره وأوراده التي يتلقاها من شيخه آناً بعد آن بحسب ما يبدو للشيخ من استحقاق المريد لزيادة الترقي الروحي فيشغل بها اوقاته مقرناً ذلك بالعزلة والخلوة والاقلال ما امكن من الطعام والشراب والكلام والنوم الاَّ ما تستوجبه الضرورة والطبيعة مع ملازمة التهجد وقيام الليل والناس نيام فعند ذلك تتملكه حالة شريفة علوية روحية ينتقل بها الى المقام الذي يسمى مقام (الوجد والهيام) وهو اسمى من مقام العشق اذ يستولي على النفس آثاره من جميع نواحيها

فاذا بلغ الفقير هذا المقام السنيَّ تواردت على قلبه النفحات الربانية والبركات الالهية تواردا تزداد به معرفته الباطنية بصفات الذات العليَّة ما يصل به الى الحقيقة المجردة التي كان ينشدها عندما جاء الى الشيخ وهو اذ ذاك مريد يطلب الوصول اليها . وتسمى هذه المنزلة عند أرباب الطريق بمقام (الحقيقة)

على ان وصول السالك الى هذا المقام لا ينتهي عنده سلوك الطريق بل انهُ يظل بعده يرتقي بالروح الى منازل ثلاث أخرى تعرف بمنزلة (الفناء فالفناء فالبقاء) . أما الفناء فهناك فناء العبد عن حظوظه وعن نفسه في الله بل عن اختياره أيضاً ويكون كما قال سيدي ابو الحسن الشاذلي لبعض مريديه « اذا شئت أن تختار فاختر ان لا تختار وفرَّ من ذلك المختار ومن فرارك هذا ومن كل شيء الى الله تعالى »

ففي هذا المقام تتجلى عظمة الخالق على قلب السالك فلا يرى الاَّ الله حتى نفسه لا يرى لها أثراً ولا يجد في الوجود من الكائنات الا واجب الوجود وحده وتمحي آثار جميع الموجودات في وجوده تعالى وتتجلى في فؤاد الفقير معنى قوله عزَّ وجل في القرآن مخاطباً عباده المتقين فأنيبوا الى ربكم وأسلموا لهُ . ويتضح لهُ بعد الافاقة من سكر الوصول الى هذه الحال الرهيبة معنى قول الحلاج ما في الجبة الاَّ الله اي ان نفسه تلاشت فلم يعد لوجوده عنده من أثر

وقد وصف الامام جلال الدين الرومي شيخ الطريقة المولوية في أبيات لهُ بالفارسية حالة الفناء هذه أبدع وصف ويروح لي ان هذه الابيات لم تترجم الى العربية حتى الآن وهذا مضمون ما قالهُ في ذلك :

«حينما يستولي روح من الجن على لب الانسيّ من الناس تضعف صفات الانس فيه الى حد التلاشي ويصبح كل ما يصدر منهُ من قول آتياً بن وحي ذلك الروح الجني وسلطانه لا من عقل هذا الانسي وتفكيره اذ تتلاشى ذاتيته وقتاً ما يعود في خلاله كأنهُ الجنية ذاتها

« وفي تلك الحالة العجيبة تصبح العربية عند التركي لغته ان كانت العربية لغة ذلك الجني المستولي عليه ينطق بها دون ان يعرف منها شيئاً وهذا يحدث منهُ في غير إلمام بحب او وحي يتلقاه ومتى عاد الانسيّ الى نفسه وأفاق ، لم يذكر لفظاً واحداً مما قالهُ وهو تحت ذلك السلطان فاذا صحّ هذا عن الجنية وسلطان استيلائها على لب انسان ، أيكون خالق الانسان والجان أقل شأناً وأضعف سلطاناً من الانس والجان ؟ حاشا ان يكون ذلك شأن الاله الواحد القهار »

وفي أبيات لهُ أخرى يقول سيدي جلال الدين بالفارسية ما ترجمتهُ بالعربية :

« لو تكلم امامكم رجل سكران من اثر ما شربه من روح الخمر بكلام غريب تلمّ انها الخمر التي تكلم افيكون لروح الخمر هذا الاثر ولا يكون لروح الله مثله اذا استولى على قلب انسان فيجعله ينطق بكلام ليس بكلامه وعبارات ليست هي عباراته

الاّ ان القرآن وان جاءنا من بين شفتي النبي محمد فقد كفر من قال انهُ ليس كلام الله

الفناء عند الصوفي

ومقارنته بالفناء لدى البوذيين

ومما ينبغي التنبيه عليه هنا ان من المستشرقين من الغربيين من ذهب الى حد تشبيه حالة الفناء عند المتصوفين المسلمين بحالة تسمى نيرفانا Nirvana عند البوذيين الوثنيين وهي الحالة التي يتوهم هؤلاء انها نتيجة تعذيبهم انفسهم حتى تتلاشى وتمحق عنهم فلا تعود النفس الى صاحبها بدأ اذ يزعمون انهُ ينقلب فيصير بوذا بذاته اي إلهاً آخر تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً . ولست بصدد اظهار ما في هذه المزاعم الوثنية الوهمية من الضلال والمخالفة للتعاليم الدينية الحقة . وانما اقول ان فناء السالك المتصوف غير هذا اذ معناه فناؤه عن نفسه وصفاته الحيوانية الارضية حبًّا في ذات الله بالتزام التهذيب لا التعذيب ومتى تمّ له هذا الفناء اشرف به على طور لا يشهد معهُ في الوجود الاّ الله حتى ولا نفسه التي بين جنبيه فلا يرى وجوداً إلاّ لواجب الوجود وحده وأما وجود سواهُ أيًّا ما كان فهو وجود مجازي غير ذاتي لقبوله العدم والفناء . اما الوجود الحقيقي الذاتي فهو للذات الالهية الابدية الدائمة البقاء وحدها

وتلك المشاهدة لا تحصل بحاسة البصر بل تحصل بعين البصيرة اي بنور ينبعث في القلب انبعاثاً إلهيًّا اذ تكون الحواس الظاهرة كلها في غيب عن نفسها كما يحدث لمن يدخل على ملك ذي شوكة وسلطان فتملكه الهيبة والجلال الى حد انهُ لا يرى شيئاً قط مما في بيت الملك من رياش وغير رياش ولا يرى أحداً ممن يكون جليساً للملك حين دخوله عليهِ حتى ولا يعلم من أمر نفسه شيئاً حين دخوله على حضرة الملك وذلك لاستيلاء الذهول كله عليه

فهذا الامر مشاهد في امور الخلق فكيف بنا وحديثنا يدور حول الفناء في الخالق . ثم ان السالك بوصوله الى مقام الفناء الذي وصفنا طرفاً منهُ يتحقق له قول النبي عليه السلام لاصحابه موتوا قبل ان تموتوا اي موتوا عن رؤية وجودكم واختياركم واعتمادكم على حولكم وقوتكم لتعلموا ان الوجود والاختيار هما في الحقيقة وقف على الله الواحد المختار وانكم وان زرعتم الزرع بأيديكم فان الزارع هو الله ولكنكم أسباب وقد يخلق الله بسبب ويخلق ايضاً بلا سبب فهو مسبب الاسباب ورب الارباب وهذا ما ترونهُ كشفاً وعياناً بعد انقضاء أجلكم في الدنيا ويكون الحال كما وصفهُ الله في القرآن بقوله تعالى (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد)

وبعد ان يفيق الطالب من سكر الفناء ينتقل نوًّا الى مقام يسمى مقام البقاء ويعرف عند الصوفية أيضاً بمقام (الوصول) او المشاهدة والمكاشفة ومن ذلك قولهم في مواضع كثيرة من كتبهم فلان الواصل الى الله وهذا المقام حالة وراء العقل المجرَّد يعجز القلم عن وصفها وتدق الافهام عن تصور كنهها اذ هي بمعزل عن نطاق المدارك العقلية لانها حالة ذوقية روحية لا تعلق للعقول بها الاَّ بأن تقر بجواز حصولها وعدم استحالتها ومثلها بالنسبة الى المدركات العقلية كمثل ما يؤكل وما يشرب بالنسبة الى حاسة البصر فكما ان هذه الحاسة لا تتعلق الاَّ بالمرئيات دون الاذواق اذ ليس ادراك الاذواق من شأنها ولا من واجباتها بل هو مقصور على حاسة الذوق وحدها فكذلك المواجيد الروحية والاذواق الباطنية القلبية لا تدرك بالعقول والافهام . وانما تدرك بنور البصيرة وطهارة والالباب

وقد تلبث حالة الفناء التي أسلفنا ذكرها مقدار لحظة واحدة او قد تطول اكثر من لحظة وكذلك حالة البقاء او المكاشفة قد تدوم ساعة او اكثر من ساعة حيث يعود السالك بعدها برضوان الله وفضله الى نفسه ولكن ليس الى نفسه الاولى الامارة بالسوء التي كان يجاهد في تهذيبها وصقلها بمهذبات الشرع ويحاول قهرها وتحاول قهره ويسعى في ضبطها ضمن حدود الشريعة وهي تأبى الاَّ الغلبة عليهِ والخلاص من قهره . بل يعود الى النفس الراضية المرضية المهذبة الكاملة المطمئنة بالايمان الراسخة لاحكام الشرع والدين . يعود الآن الى مقام البقاء بالله اي مقام العزة الانسانية المشروحة الصدر المستنيرة بانوار التقوى والصلاح بعيداً عن

الشوائب الشهوانية والحظوظ النفسية والصفات الدنيئة وأخصها العجب والزهو والكبر والرياء والنفاق والحسد والتطلع الى ما في ايدي الناس وقلة الرضى بما قسمهُ الله من الرزق

يعود ليشهد فيهِ الخلق مثالاً حيًّا على صدق روح الاسلام وتكفله بان يبلغ النفس البشرية اقصى ما تتوق اليهِ من الكمالات والرقي الروحي اذ يصير قلبه مليئاً بالصدق والمروءة والنخوة والطهارة والصفاء والعطف والرأفة والحنوّ على عباد الله بل على الخلائق جميعاً حتى الطير والحيوان الاعجم يعطف عليهِ ويرأف بهِ حتى لقد قال في وصف هذه الحال مولانا العارف بالله سيدي محي الدين العربي ابياتاً منها قوله قدس الله سره : —

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي اذا لم يكن ديني الى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لنيران وكعبة قاصد وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبهُ فالحب ديني وايماني

وقد أراد سيدي جلال الدين الرومي تصوير حالة الوصول الى الله بعد بلوغ مرتبة الفناء فكتب في كتابه المسنوي شعراً بالفارسية هذا معناه : —

« توهم المحب انه قد فني في محبوبه فلما اهتدى الى بيته بعد طول السير والجهاد وقف بالباب فدقّ عليه يطلب الاذن في الدخول فسمع من الداخل صوتاً ينادي : من بالباب ؟ فقال المحب انا بالباب فقال الصوت داخل البيت : كلاّ كلاّ . ان هذا البيت لا يسعني وبعد احداً سواي . وظل الباب مغلقاً كما كان فأطرق المحب مليًّا فأدرك ان ما حجبهُ دون الاذن له بالدخول الاّ شعوره بوجود نفسه معه فعاد ادراجه وعاود جهاده ثم رجع بعد عام يقرع الباب فعاد الصوت يسأل من بالباب ؟ فقال انت انت الذي هنا وأنت انت الذي هناك وأنت وحدك ملء الوجود ولا موجود سواك وهنا فتح الباب على مصراعيه فدلف منهُ المحب ليحظى بوصال الحبيب »

وبهذه الصورة الشعرية الطريفة أمكن للعارف جلال الدين ان يصوّر لنا كيف ان سلوك سبيل التصوف الحق ينيل النفس المتعطشة اقصى ما تصبو اليهِ من الرقي الروحي

***

هذا ايها السادة ما وسع المقام ذكره من الالمام ببعض اطراف التصوف في الاسلام اجمالاً وعسى ان تتاح لي فرصة اخرى لازيد الموضوع جلاء وتفصيلاً . واني شاكر لكم حسن استماعكم لي زمناً طويلاً

قبلة الروح !!

هات أدني من فمي شفتَيْ ذا البُرْعُمِ
يا لثغر عَضَدَي (١)
أيُّ سحر قطفهُ ذوب شهد رشفهُ
وشهيٌّ وكُنْهُهُ
أتُراه قد شفاني ؟ أم تراه قد سقاني
وحباني بالامانِي ؟
لا . . . فما بلّ الظّما أو شفى جُرْحاً مَسَى
كان ثغراً ظالما ! !
هات روحاً مُلهمي سلسليه في دمي
نخبويه أعظُمي
ها . . . سرَيا في حشا هي لثغرٌ أبْهما
أتراني حالما ؟ !
ها أرانا هائمَيْنْ في انتشاء ذاهلَيْنْ
قد غدَونا طائرَيْنْ كيف طِرنا ؟ بل وأينْ ؟ !
لا وربي ما درينا ! !

***

آه من قُبلة صبٍّ يحفي روح الحب
خَلَقتْ أكوان حُبٍّ إنها قبلة . . ربّ ! !
إنها يا أختَ روحي قبلة الروح لروحي
عدهدت مني جروحي لا تضنّي بل أبيحي
امنحيها للجريح ! !...

محمد فهمي

(١) العندم نبات احمر اللون

حضارة الميتانيين

بقلم قيصر صادر
عضو جمعية العاديات السورية

— ٢ —

﴿ اللغة ﴾ عندما نهضت الآثار الميتانية من جوف الثرى ومسحت عن جفونها غبار الايام حاول علماء الآثار ان يستجلوا معاني تلك السطور العالقة على بعضها فلم يوفقوا في محاولتهم ولبثت كتابات الميتانيين غامضة صامتة لا تبين بنت شفة عما تتضمنهُ من الاسرار ربما يقسى العثور على لوحات ميتانية مثل لوحات بوغاز كوي ورأس الشمراء التي تدوّن فيها النصوص الواحدة مترجمة الى عدة لغات تساعد على تفسير بعضها بعضاً . غير انهُ يلوح من اسماء بعض الملوك الواردة باللغات المصرية والحثية ان لغة الميتانيين كانت مزيجاً من ألفاظ اسيوية وآرية وهي تشبه بذلك لغة القوقاس الحشنة وقد اشارت ألواح بوغاز كوي الحثية الى وجود قصص وقصائد موضوعة باللغة الميتانية اشيد فيها باعمال البطل جيلجماش العجيبة كما ان الكتابات الميتانية التي عثر عليها في حفريات تل العمارنة تدل على ارتقاء الفكر وسعة انتشار ادب المراسلة عند الميتانيين كرسالة الملك توزارطا الموجهة الى امنوفيس الثالث التي تنطوي على ٤٩٤ سطراً وهي مخطوطة بالقلم المسماري وتعد هذه الرسالة المطولة من اهم ما عثر عليه حتى يومنا من الاسانيد التي تمهد لدرس اللغة الميتانية بفضل مقدمتها حيث تيسّر حل مدلول بعض الفاظها التي يخاطب عادةً بمثلها قراءة مصر على انهُ ينتظر عند اتساع حلقة الحفريات في اراضي الميتانيين ان تتوالى البينات التي تساعد على حل رموز هذه اللغة الموبصة حلاً نهائياً

﴿ الانظمة والقوانين ﴾ ما برحت لغة الميتانيين مستعصية الحل على علماء الآثار فليست معلوماتنا عن انظمتهم وقوانينهم غير معلومات مقتضبة اخذناها عن كتابات جيرانهم الذين ألمعوا الى هذه الانظمة والقوانين في سياق البحث عن انظمتهم وقوانينهم الخاصة او عن عقود ميتانية محررة بلغة اجنبية

فقد كان الجيش وراثياً تحرسهُ كوكبة من الجيش يطلق عليها اسم الحرس المارياني . اما طراز الحكم فكان اقطاعياً ينحصر توليه في طبقة من الاعيان تتحدّر من عنصر آري مثل العائلة المالكة نفسها وتكاد تكون قوانين الدولة مستعارة برمتها من قانون حمورابي الذي كان له اعمق تأثير في كل الدول التي قامت فيما بين النهرين . بيد انهُ كان يستثنى من ذلك تشريع التعامل

التجاري عند الميتانيين الذي عرف بميزة خاصة تنطبق على حاجة جماعة معظمهم من الزراع . وقد اشار الاستاذ كوك الى الخاصّات التي تميز العقود الميتانية عن سواها وأهمها وجوب بيان المحل الذي تم فيه العقد ويدوّن العقد مع ذكر أسماء الشهود الحاضرين مما كان يفعل في معظم العقود الحثية . زد على ذلك ان المكاييل والاقيسة الوارد ذكرها في العقود الميتانية كانت أقرب الى ما هي عليه في أشور مما هي عليه في بابل . فقد كان الكيل المدعو إمر الشائع عندهم يستوعب من الحبوب مبذر مساحة معينة من الارض ويوازي أربعين لتراً من مكاييلنا

﴿شرائع الزواج﴾ كان الخطيب عند الميتانيين يفقد والد الفتاة مبلغاً من المال يرمز فيه الى عادة مشترى المرأة تلك العادة التي كانت متفشية في بابل . بيد انهُ كان يترتب أدباً على الوالد الميتاني ان يسرع باعادة المبلغ المذكور الى الخطيب بعد قبوله شكلاً ويمهر ابنته بما تتساعد عادة على تقديم هدية ثمينة الى بعلها ليلة الزفاف مما لا نرى لهُ مثيلاً في تقاليد الجوار . وقد كان مباحاً للزوج ان يطلق امرأته اذا كانت عاقراً أما اذا كانت ولوداً فلا يحق لهُ ذلك دون ان يعوضها بالمال ويخسر في حال طلاقها حقوق الابوة على أولاده مع بقاء حق الارث محصوراً بعده في أولئك الاولاد دون غيرهم

﴿شرائع التبني﴾ ومما كان شائعاً في البلاد الميتانية شريعة التبني وقد عرفت منها ثلاثة أشكال : ففي الشكل الاول المدعو (أنا شمتي) كان يختار المرء قريباً لهُ يتبناه بطريقة غير قابلة النكول فيرعاه بحمايته ويغدق عليه خيراته . أما في الشكل الثاني المعروف باسم (انامعروتي) فيصح تبني شخص غريب عن العائلة ويحق للمتبنّى ان يرث حصة معينة من مال المتبني

ولما كانت أراضي الخراج المقطعة للموظفين او الجنود لقاء خدماتهم غير قابلة الانتقال الى الغير الاّ بطريقة الارث الشرعي فقد أوجد لها المشترع الميتاني حيلةً تساعد صاحبها العاجز عن العمل على الانتفاع بها او استغلالها بواسطة الغير وذلك بأن يتبنى مالكها شخصاً يهبها لهُ لقاء هدية من الفضة او الحبوب تعادل ثمنها وهذا هو الشكل الثالث وقد أطلق عليه الاستاذ سيزر الذي اكتشف لوحات كركوك اسم البيع بالتبني

﴿شرائع التعامل التجاري﴾ تكاد طريقة الاستقراض التي كان يجري عليها الميتانيون تشابه طريقة التعامل المعروفة في أيامنا في كثير من الوجوه ولا سيما فيما يتعلق بتعيين موعد الدفع في عقود الاستقراض التي كانت تدوّن على لوحات من الآجر يختم في ذيلها المدين وتلي توقيعه توقيعات شهود الحال . بيد ان معدل الفائدة كان يتفاوت بحسب نوع البضاعة المشتراة . فاذا كانت هذه البضاعة من مواد البناء كاللبن مثلاً تبلغ الفائدة نحو ٥٠ بالماية في حين ان شريعة حمورابي لا تجيز تقاضي الفائدة بمعدل يربي على ٢٠ بالماية في قرض النقود و ٣٣ ⅓ بالماية على قيمة الحبوب . واذا تعدد المدينون كان القانون الميتاني يسوّغ للدائن استيفاء تمام دينه عند الاستحقاق من المدين الاقرب اليه باعتبار المدينين متكافلين متضامنين في وفاء ما عليهم . وقد عثر على عقد

غريب ينص على أن السرية المدينة اذا وضعت خلال مدة الدين يتحتم عليها ان تتخلى عن مولودها الى الدائن أما اذا توفيت اثناء الوضع فلا يكون الدائن ملزماً بدفع ثمنها كما كان مسموحاً للدائن ان ينتفع بما هو مرهون لديه تأميناً على دينه سواء أنفضّ كان ام تحفةً حتى ولو كانت الرهينة انساناً وكان مفروضاً في بعض العقود كفالة شخص ثالث وهذا مأخوذ عن القانون البابلي . وكان التأجير معروفاً عند البابليين وكثير الرواج فيما يتعلق بعامل صنع اللبن والآلات الزراعية. أما العقوبات الواجب إنزالها بمن يتخلف عن الدفع فقد كان منصوصاً عليها في العقود نفسها وكانت تسري على المدين من طبعها حين تقصيره في القيام بالشروط الملحوظة وهي على الغالب نقدية ولكنها شديدة في معظم الاحوال لكيما تجعل للمدين رادعاً عما قد تسوّل له نفسه من التواني والتقصير . وقد نصت بعض العقود على عقوبة مؤلمة كالكم على الفم وكسر الاسنان وما شابه ذلك من ضروب التعذيب التي كانوا يسومون المدين إياها عند أول بادرة تتم على سوء نيته

فيستفاد مما تقدم أن معظم الشرائع الميتانية كانت مستعارة من بابل كما ألمحنا اليه آنفاً انما كان يطرأ عليها بعض التعديلات حسبما كانت تقتضيه أحوال البلاد وحاجاتها ولا مرية في ان معلوماتنا هذه ستزداد مع الايام اضعافاً وتتسع حلقة بحثها عندما ندرك معاني تلك الكتابات العديدة التي اخرجها المنقبون من مكامنها الدفينة

(الديانة) عندما درسنا ديانة الحثيين على ضوء نصوص لوحات بوغازكوي تبينا أن معابدهم كانت تضم عدداً عديداً من الآلهة تجمعت لديهم بنتيجة فتوحهم لانهم كانوا يبقون على آلهة البلاد التي يستعمرونها وتقاليدها ويكرمونها خشيةً من سخطها وموالاة لعبدتها حتى ضاقت هياكلهم عن استيعابها وأحيطت عقائد دياناتهم بغموض لا مفر منهُ. وكذلك نرى الامر نفسه قد جمّع عند الميتانيين طائفة من الآلهة عندما ضموا تحت لوائهم شتى العشائر التي كانت تقطن سوريا الشمالية وما بين النهرين . وقد أتاحت لنا الظروف ان نتعرّف الى معظم هذه الآلهة التي وردت اسماؤها في ذيل المعاهدة المصرية الميتانية التي وضعت تحت رعايتها . وبدل تعداد تلك الآلهة على مختلف العناصر التي تألفت منها المملكة الميتانية اذ كانت تُعرف الشعوب قديماً من اسماء الآلهة التي تنتسب اليها . وقد وجدنا في طليعة هذه الاسماء آلهة الميتانيين الاصلية اي الاله تحشوب ورفيقته هيا . ثم تليها آلهة البلاد المجاورة والمنضمة الى المملكة الميتانية او التي كان يسطو عليها نفوذها ويتخللها اسماء بعض آلهة بلاد الهند وسومر وبابل التي استقت من عناصرها الحضارة الميتانية . وكذلك نجد اسماء آلهة جبال زاخو ونهري الدجلة والفرات والسماء والارض والريح والسحاب . ويجدر بنا ايضاً ان نلمع الى ورود ذكر اسماء آلهة عشائر حيري التي يذهب البعض الى انها آلهة اليهود نفسهم الذين كانوا على عهد ازدهار تل العمارنة جماعة من المأجورين يحاربون تحت قيادة اي ّ كان في سبيل الكسب والغزو . اما الاله تحشوب الكبير الذي كان

تمثال متعرفة البرونزي، صغير الحجم مصنوع من البرونز بطول ١٧ر٥ سنتمتر اكتشف بين انقاض مدينة قطنة القديمة المعروفة اليوم بقرية المشرفة في ضواحي حمص ونقل الى متحف « اللوفر » حيث صُنف بين الآثار الميتانية

تمثال السفيره ، تمثال حجري صغير يبلغ علوه ٤٥ سنتمتراً وهو مقطوع الرأس والرجلين يمثل شخصاً يدعى (ادوني ايا بن الميا) حفر عليه اسمه وقدمهُ هدية الى سيد الهه وهو يعت الى الآثار الميتانية وقد اكتشف في قرية السفيره التي تقع على مسافة ٢٥ كيلو متراً شرقيّ حلب

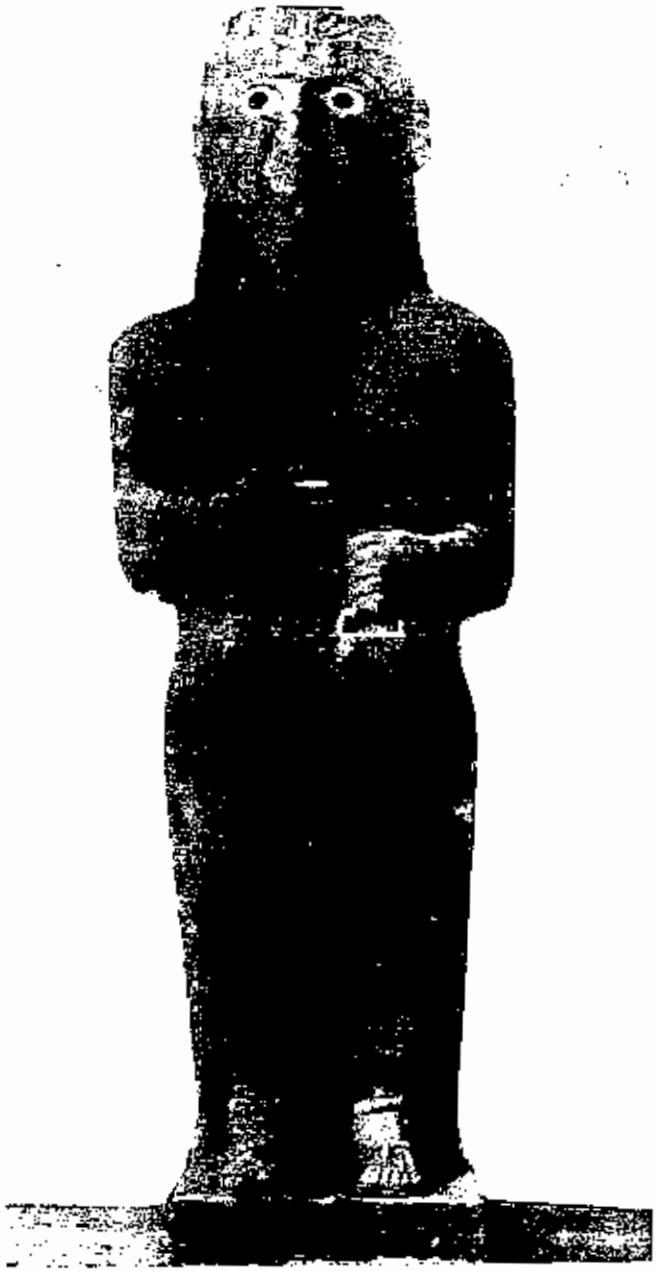

تمثال كبرى المعبودات الميتانية من الحجر البركاني الازرق بحجم (٧٤ر٢ × ٧٢ر٠ × ٥٠ر٠ متراً) اكتشف في تل حلف ونقل الى متحف حلب يمثل الهة واقفة عارية القدمين ممسكة بيدها اليسرى وعاء صغيراً كان يملأ عادة بالماء المطهر واما يدها اليمنى فمنبسطة على الصدر وفي رقبتها عقد ذو ستة صفوف وعلى معصميها وكعبيها أساور وشعرها مسترسل على الظهر

تمثال معبودة ميتانية ، من مكتشفات البارون اوبنهايم في تل حلف تمثل معبودة ميتانية تمسك في يدها اليمنى كأس التقدمة وهي تلبس رداء مزركشاً يغطي الجسم بتمامه ويكشف عن الساعدين وعن قدمين عاريتين حجمه ١ر٨٩ × ٠ر٨٦ × ٠ر٩٧ متراً من الحجر البركاني الازرق نقل الى متحف برلين بعدان مكب عليه نسخة معروضة في متحف حلب

نقش بيسان — يمثل في القسم الاعلى منهُ أسدٌ وكلبٌ منتصبان أحدهما مقابل الآخر وفي القسم الاسفل كلبٌ يعقر أسداً في ردفهِ وهو من الآثار الاشورية الميتانية. وقد اكتشف في قرية بيسان من اعمال فلسطين

يدين به الحثيون ايضاً فقد كان اله العناصر الاربعة والصواعق والانواء والامطار والخصب ويشبه الاله حداد الغربي في كثير من الصفات وتمثله النقوش الميتانية رجلاً مرتدياً لباساً قصيراً مغطى الرأس بتاج مخروطي ممسكاً بيده اليمنى فأساً وبيده اليسرى رمز الصاعقة المثلث الشعب (انظر رسمه في الصفحة (٥٢٧) من مقتطف دسمبر ١٩٣٦) ونراه في اكثر مواقفه على ظهر ثور وفي بعضها واقفاً على ذرى الجبال. وهيا رفيقة تحسوب على شاكلة الالهة عشتار كان يتمثل اليها الاكثار النسل وخصب الارض وقد مثلت في النقوش الميتانية برداء طويل وعلى رأسها تاج. وهذان الالهان هما المثل الاعلى للديانات الوثنية القديمة وعبادتهما كانت اكثر كل العبادات شيوعاً في هذه البلاد منذ اقدم العهود

﴿ الفن الميتاني ﴾ جدير بأن نطلق تسمية الفن الميتاني على الآثار المستخرجة ما بين النهرين ومن سائر الانحاء المجاورة والتي تمت الى العهد الذي طغى فيه النصر الحوري الميتاني على هذه المناطق اي العهد الذي يمتد بعرقنا منذ القرن السادس عشر حتى الرابع عشر ق . م. وتأتي في مقدمة هذه الآثار مجموعة الاسطوانات واللوحات المكتشفة في كركوك والتي تعد من اغنى مجموعات الآثار الحورية الميتانية . وتعتبر صناعاً مهماً بين مختلف الصنوف التي تمثلها اذ تمتاز صناعة حفر هذه الاسطوانات بكثرة وجوه الشبه التي تقربها من صناعة الحفر السومرية تلك الصناعة التي تعتبر النواة الاولى لكل صناعات الحفر المعروفة ليومنا هذا في اسيا الصغرى . تدلنا على ذلك التقوش المتشابهة في الصناعتين والافراط في استعمالها عند الشعبين . ويلوح ان الميتانيين كانوا احذق من سائر معاصريهم في استعارة الفن السومري واكسابه طابعاً خاصاً بهم لانهم كانوا بطبيعتهم الاسيوية اقرب من البابليين وسائر الشعوب السامية الاصل الى فهم خاصة الفن السومري وليد حضارة قريبة من الحضارات الاسيوية . ويبدو ايضاً على بعض الآثار الميتانية انها كانت متأثرة في بعض الاحوال بالطابع المصري وفي بعضها بطابع الايجه وادلتنا على تأثرها بالطابع المصري كثيرة نخص منها بالذكر استعمال قرص الشمس المجنح في بعض النقوش الميتانية . ذاك الرمز الذي يعد بلا جدال ظاهرة مصرية بحتة (راجع الصورة أمام ص ٤٥ من مقتطف يونيو الماضي) كما ان تأثرها بطابع الايجه بارز جلياً في نقش الشجرة المقدسة التي احتفرها الميتانيون على آثارهم بشكل نخلة سوسنة الاغصان كثيرة الزخرف يحرسها إلهان وفي بعض الاحيان أسدان على نحو ما هي عليه في نقوش الايجه . اما سائر الرموز فتكاد تكون كلها مشتقة من اصل سومري كالضفائر التي تغشي معظم اسطوانات كركوك ومشاهد انتصارات البطل جلجامش في مصارعة الثيران والاسود التي يبدو منها ألا يخلو منها اثر ميتاني . وقد يحسن بنا ان نلمح في هذا الصدد الى بعض الآثار الكبرى التي تنسب عادة الى الصنعة الميتانية

﴿ اله الخصب ﴾ نجد اكثر هذه النقوش بروزاً وأوثقها نسبة الى صنع الميتانيين نقشاً بارزاً اكتشف في عشتار ونقل الى متحف برلين يمثل اله الخصب منحوتاً نحتاً خشناً على الطراز القديم

بلحية طويلة وعينين مجوفتين كانت ترصعها بعض الحجارة ، يعلو رأسهُ تاج مزين برسوم حراشف السمك وكذلك القسم الاسفل من ثوبه تشبه رسوم مشابهة وترمز هذه الحراشف في فن ما بين النهرين الى الارض الجبلية فيكون اذاً هذا الاله من آلهة الجبال الاَّ ان بروزجذعي شجرة من جسمه يحملان ثمراً يشبه الصنوبر وانتصاب وعلين عند قدميه يقطان ذلك الثمر يحملنا على الاعتقاد بانهُ اله الخصب الذي جاء في الاساطير القديمة انهُ كان يفدي بنفسه الارمال التي تحرس الشجرة المقدسة كما ان وجود المثين صغيرتين بجانبه حاملتين الى صدريهما وعائين تتدفق منهما المياه مما يزيد الرمز جلاء ويثبت اشتقاقه من الفن السومري القديم

﴿ رأس الجبول ﴾ يأتي بعد ذلك الرأس الحجري المكتشف في ملاحة الجبول الواقعة على مسافة أربعين كيلو متراً شرقي حلب والمنقول الى متحف اللوفر وهو رأس يزيد عن الحجم الطبيعي قليلاً من الحجر البركاني الازرق وقد نحت نحتاً خشناً يماثل نقش آله الخصب الآنف الذكر . بيد ان هذا الرأس تكاد تنبض فيه عروق الحياة اكثر من كل أثر آخر . له جبين ضيق تكللهُ قبعة مخروطية الشكل ذات خطوط طولية متقابلة كانها قرون ترمز الى الالوهة . أما العينان فيلوح ان تجويفي حدقتيهما كانا مرصعين ببعض الحجارة ويعلوهما حاجبان كبيران في وسطهما أنف أفطس يحيط به وجه ضعيف التركيب خدَّتهُ غضون ممتدة من المنخرين الى حد الشفتين كما ان الذقن كثيرة الاخاديد . وخلاصة القول ان هذا الرأس تحفة نادرة المثال بين سائر الآثار الميتانية المعروفة ليومنا هذا (صورتهُ بمقتطف يونيو الماضي صفحة ٤٤)

﴿ تمثال مشرفة البروزي ﴾ ولعني به تمثالاً صغيراً مصنوعاً من البرونز عثر عليه في الحفريات التي أجراها الكونت دي بويسون منذ عشر سنوات في تل المشرفة بالقرب من حمص حيث اكتشف انقاض مدينة قطنة القديمة . وقد صنع هذا التمثال البروزي على نمط رأس الجبول أما سائر أعضاء جسمه فلا تتبين منها غير قبضتين مطبقتين وقدمين حافيتين لانهُ جالس على عرش ومتحقب رداء طويل موشى بالفرو على مثال أصنام سوريا العليا في ذلك العهد وكذلك اكتشف في حفريات مشرفة نفسها رأس حجري ذو لحية قصيرة بعينين مجوفتين تملوهما قبعة منحوتة نحتاً كثير التنوء وعليه مسحة من الصناعة القديمة

﴿ أسد الشيخ سعد ﴾ عثر في قرية الشيخ سعد بالقرب من دمشق على تمثال أسد ضخم الحجم من الحجر البركاني حفظ مؤقتاً في المعهد الفرنسي للفن الاسلامي في دمشق وهو يمت الى الآثار الميتانية بشبه شديد لا سيما في هذه الخاصة القوية التي تكسهُ هيأة تمثال مهما كان الحياة نابضة بين جنبيه

﴿ تمثال السفيرة ﴾ اكتشف في قرية السفيرة التي تقع على مسافة ٢٥ كيلو متراً شرقي حلب تمثال حجري صغير مقطوع الرأس والرجلين يبلغ علوه ٤٥ سنتمتراً يدخل في عداد الآثار

الميتانية يمثل شخصاً لابساً رداء لاصقاً بجسمه يشده الى وسطه نطاق عريض وضع في طياته غمد خنجر مزخرف وقد أمسك بكلتا يديه كأساً مقربة من صدره وتعلمنا الكتابة الاشورية القديمة المنقوشة عليه ان صاحب هذا التمثال يدعى أدوني أبيا بن اميا وقد قدم تمثاله هدية الى معبد الآلهة

تعبّر هذه المجموعة القليلة عن الميزة التي اختصت بها الآثار الميتانية ألا وهي متانة التعبير وروعة الصنع وهي تصلح لان تكون خير مقدمة لكثير من الآثار التي ينتظر ان تسفر عنها الحفريات المقبلة في العاصمة واشوكاني وفي سائر نواحيها كما انها تعد حلقة وثيقة الاتصال بين الآثار السومرية التي استمدت منها أصولها وبين سائر الآثار التي نحتت على مثالها او باتت تحت تأثيرها مثل بعض الآثار الحثية التي يغلب عليها تأثير الفن الميتاني على شاكلة الحجر البارز النقش المكتشف في تلة حلب سنة ١٩٣٠ وعليه معبودان مجنحان يرفعان على قبضتها قرص الشمس داخل هلال وقد نشر رسمه في مقتطف شهر فبراير ١٩٣٧ وبعض الآثار الاشورية الميتانية مثل نقش بيسان الذي صور في القسم الاعلى منه اسد وكلب منتصبان احدهما مقابل الآخر وفي القسم الاسفل كلب يفر اسداً في ردفه مما يجعلنا ان نلمس فيه امتزاج الفنين الاشوري والميتاني خصوصاً في نحت عضلات الاسد وحركة وثوب الكلب . ويجدر بنا قبل اختتام هذا الموضوع ان نأتي ايضاً على ذكر مجموعة الآثار التي اكتشفها البارون اوبنهايم في تل حلف على مقربة من نهر الخابور وبجانب رأس العين تلك الآثار التي حيّرت العلماء في تعيين عهدها ثم كادوا يجمعون على عقيدة الاستاذ جودس الذي يرى انها تمت الى الميتانيين بأوثق الاسباب بالرغم مما يبدو عليها من تأثير الطابع الاشوري وقد حداهم ذلك الى الاعتقاد بأن هذه الآثار صنعت في اواخر عهد الميتانيين عندما بدأ يخبو نفوذهم تحت سطوة الاشوريين وتفوقهم فجاءت تحمل على وجهها صبغة اشورية كادت تخفي وراءها اصلها الميتاني . اما الكتابة الارامية المحفورة على هذه الاصنام والتي اشكل على العلماء في بادىء الامر تفسيرها فقد اتضح انها ترجع الى عهد ملك ارامي يدعى كابارا كان اقام على هذا التل المهجور منذ نحو الف سنة وعثر بين انقاضه القديمة على كمية كبيرة من الآثار المذكورة فأعاد استعمالها واحتفر عليها الكتابات المذكورة باسمه

نقف اليوم عند هذا الحد من دراسة الحضارة الميتانية على أمل ان نعود اليها بعد حين عندما تواصلنا الاكتشافات الجديدة بمعلومات اوفر من شأنها ان تساعدنا على الوقوف على كثير من الامور التي ما برحت متوارية عنا في جوف الثرى . ولسنا لا نكون على ضلال اذا عقدنا كبير الامل على النتائج الخطيرة التي قد يؤدي اليها اجراء حفريات واسعة النطاق في واشوكاني المعروفة اليوم برأس العين تلك العاصمة الميتانية التي لم يفيض لها بعد من يفتش اطلالها الدارسة ويخرج كنوزها المدفونة فعسى ان يوفق في القريب من يكشف لنا القناع عن عظمة تلك الحضارة العريقة في القدم ويشق امامنا طريق الوصول الى كنه الحقائق

قبل ان تسكت الحياة ...

شاعر أصيب في حادث كتب الله له السلامة منها، وهو لم يزل بعد في ميعة الصبا وعنفوان الشباب. فمضى لو انها كانت الماضية على حياته، فرارا من اثقال الحياة، وأعباء الدنيا .... فكتبنا اليه هذه الابيات [عبد النبي]

عُمرٌ مـــدَّه لك الله مدّ ... كيف لم تلق بالسلامة حدا ؟
كيف تلقى السلامة اليوم نحـــا ... وراها الورى نعيماً وسعدا ؟
كيف تقضي وما تهدمتَ ركنا ... كيف تهوى وما تلمت حدّا ؟ ؟
كيف تمضي ودين مصر علينـــا ... لم يـــدَّد وحقها لم يؤدّى ؟ ؟

* * *

عجباً شاعر تنسّى على الأيـــك ويرجو عن ذلك الايك بعدا
عجباً شاعر تأبّى على القيـــد ويرجو في وحشة القبر قيدا ؟
لم يكد يستريح للعهد حتى ... رام في التربة السحيقة لحدا ؟

* * *

غنّ يا صاحبي على الروض واطرب ... قبل أن تصبح الخمائل جُرْدا...
غنّ يا صاحبي على النهر واشرب ... قبل أن تبخر المياه فتصدى
غنّ يا صاحبي كما شئت والصب ... قبل أن تُملأ المقابر لحداً !!
غنّ يا صاحبي على العود واضحك ... قبل ان تسكت الحياة وتهدأ ....
غنّ في هذه الحرارة يوماً ... قبل ان تملأ الحديقة برداً !!
غنّ والورد في الخميلة غضّ ... قبل أن يُذبل الشتاء الورودا ....

* * *

كنتُ يا صاحبي كما أنت ... أبكي ... فرأيت الحفاظ بالدمع أجدى ...
كنتُ لا استسيغ عيشي ... ولكن ... لم أجد يا أخي من العيش بدا ... !!

* * *

كيف تقضي وما تحطيتَ عسرا ... كيف تمضي وما بلغتَ الاشُدّا ؟
واذا عنتَ في الحيـــاة مقاماً ... فلمن ذلك المقام أعدّا ؟ ؟ ؟

المنصورة

محمد عبد النبي حسن
مفتش بمحكمة سابق

الاسلام

والرفق بالحيوان

للشيخ احمد مصطفى المراغي
استاذ الشريعة الاسلامية بدار العلوم

يرى الناس صنوفاً من اعمال البر والاحسان مسماة بأسماء غير ما عهدوها ولها نظم دون ما ألفوها فيخيل اليهم ان هذه من مبتكرات العصر الحديث عصر المدنية والنور وان مؤسسيها قوم أشربت قلوبهم بروح الفضيلة وتسامت نفوسهم عن ارتكاب الرذيلة لما لأعمالهم من جليل الخطر وعظيم الاثر مما يشاهد عياناً فهي تقيم كل يوم للناس برهاناً وتظهر لهم حسناً واحساناً في تخفيف ويلات الناس من مختلف الشعوب والطوائف مما لا يخص قبيلاً دون قبيل ولا فئة دون فئة اخرى بل ترى آثارها تمتد الانسان الى الحيوان يطلب الرفق به والشفقة عليه ووقايته من العلل والادواء وتخفيف آلامه ولاجل هذا أسست (جمعيات الرفق بالحيوان) في انحاء المعمورة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً وهي تسير في اعمالها قدماً وتتلقى معونة من بني الانسان في كل بقاع العالم . وكأن القائلين بمثل هذا القول يؤمنون بان الشرائع السماوية قصرت في طلب الرفق بالحيوان ولم تطلبها من الآحاد او الجماعات او كأن العقول البشرية كشفت انواعاً من اعمال البر والاحسان لم تنبه اليها الشرائع السماوية ، كبرت كلمة تخرج من افواههم — فكنوز الشريعة الاسلامية ملأى بالحض على الشفقة بالحيوان ومواساته بكل ما يكفل له حياة هنيئة ويجلب له خيراً ونفعاً ويخفف عنه ألماً ويدفع عنه ضيراً والوعيد بالويل والثبور لمن لا يمد يد المساعدة لمن لهم الحيوان الاعجم . وسيأتي لك بعد من الادلة والبرهانات ما تطمئن اليه نفسك وتعلم ان الشريعة لم تفرط في شيء وان كل ما يخطر ببالك من المعاني السامية والاخلاق الفاضلة التي ترفع النفوس الى مستوى العزة والجلال وتسمو بها الى مراتب الكمال وبها يتاح العطف والمحبة للناس جميعاً وينطبق عليها قولة علي لابنه الحسن « يا بني أحب لغيرك ما تحب لنفسك واكره له ما تكره لها » فهو مسطور في أسفار الشريعة بأجلى بيان بل أعطت دستوراً للشفقة بالحيوان لا

لهُ من شعور واحساس بالآلام والويلات فأوجبت الحدب عليهِ والشفقة به . وها نحن أولاء نفتح لك أبواب تلك الكنوز لترى جواهرها ولآلئها المكنونة وتعلم انها أتت بما ليس وراءه زيادة لمستزيد وان كل الصيد في جوف الفرا [١] وان المسلمين هم المقصرون في عرض تلك الجواهر على النظارة [٢] وانهم ان فعلوا ذلك بهرهم سناها وراقهم زبرجها [٣] وزخرفها وعلموا ان تلك التحف الثمينة لم يحسن أهلها استعمالها فتراكمت عليها الاصداء فحجبت جمالها عن أعين الناظرين حتى أصبحت في حاجة الى من يعيد اليها رواءها [٤] ويعيدها سيرتها الاولى . ويبرز محاسنها ويعرضها على الجماهير وهي تلبس أثوابها القشب [٥] وتختال في معارضها [٦] من أرباب المذاهب والنحل المختلفة في الشرق والغرب وعندئذٍ تظهر تلك البجاجة [٧] في التشريع ويعلم الناس مقدار ما لا حظتهُ الشريعة الاسلامية من الشفقة والرحمة بالحيوان بله [٨] الانسان

روى البخاري عن أبي هريرة ان رسول الله (صلعم) قال بينا رجل يمشي فاشتد عليهِ العطش فنزل بئراً فشرب منها ثم خرج فاذا هو بكلب يلهث ويأكل الثرى من العطش فقال لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي فملأ خفه ثم أمسكه بفيهِ ثم رقي فسقى الكلب فشكر الله لهُ فغفر له. قالوا يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجراً قال في كل كبد رطبة أجر [٩] وجاء هذا المعنى في رواية أخرى لمحمد بن اسحاق عن الزهري بسنده المتصل الى سراقة بن مالك قال — سألت عن الضالة من الابل تغشى حياضي قد اظمأها الابل فهل لي من أجر ان سقيتها فقال نعم في كل ذات كبد حرى أجر [١٠] كما جاء الحديث الاول بأسلوب آخر عن ابي هريرة ان النبي صلعم قال ان رجلاً رأى كلباً يأكل الثرى من العطش فأخذ الرجل خفه فجعل يغرف له بهِ حتى أرواه فشكر الله لهُ حتى أدخله الجنة . وهأنت ذا ترى أن هذا الحديث يكاد يسيل شفقة بالحيوان انساناً كان او غيره لما فيهِ من الجزاء العظيم على من أحسن اليهِ فانهُ (صلعم) اخبر بشكران الله تعالى لفاعلي الاحسان اليهِ وثنائه على من أسدى اليهِ خيراً ووعده بالجنة كذلك شفقتهِ ورحمته . وبالضد من هذا ورد الوعيد الشديد لمن قسا قلبه وغلظ كبده ولم يشفق بالحيوان. فقد روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما ان رسول الله (صلعم) قال — عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت جوعاً فدخلت فيها النار قال . فقال (والله أعلم) لا هي اطعمتها ولا سقيتها حين حبستها ولا هي ارسلتها

(١) مثل يضرب لمن يفضل على اقرانه والفرا الحمار الوحشي وجمعه افراء (٢) المتفرجين (٣) الزينة (٤) بهجتها (٥) الجديدة (٦) جمع معرض كمنبر ثوب تلبسه العروس ليلة الزفاف (٧) السهولة في التشريع (٨) دع واترك (٩) الثرى التراب الندي ولهث الكلب أخرج لسانه من العطش والجر واللهاث العطش ورق كصلد وشكر الله له اي قبل عمله . وقول وان لنا في البهائم أجراً اي في سقيها او الاحسان اليها . ورطبة اي برطوبة الحياة (١٠) الضالة هي التي تترك عطنها وتذهب الى جهة أخرى . ولاط الحوض بناه بالطين الحجارة حتى لا يجف ماؤه

فأكلت من حشائش الارض [١١] . اخبر عليه السلام بوحي من ربه بحلول العقوبة بامرأة عذبت قطتها فحبستها الى ان ماتت جوعاً وعطشاً ولم تطعمها من فضلات طعامها او تتركها حتى تطعم من فضل ربها فدخلت بسبب ذلك النار وما اشدها عظة وابلغها نكالاً لمن لا يرعوي ويزدجر من الدهماء [١٢]

والسوقة الذين يحملون الحيوان مالا يطيق او يهالون عليه ضرباً وكدماً [١٣] ولكناً لغير سبب يفهمهُ الحيوان حتى يتقي امثاله فما هي الا الغلظة والفظاظة التي لا تجد لها ما يبررها لدى العقلاء ومثل هذا ما تراه من تركهم الحيوان يسيل من جرحه الدم او يتقيح [١٤] وهو يألم مما به ثم هو لا يجد له رحيماً منهم بل هم يسومونهُ سوء العذاب فيحملونهُ ثقيل الاحمال فوق جرحه الناغر او يجلونهُ يدور بالساقية او الطاحونة او نحوهما من الاعمال الشاقة التي تصعب على السليم فضلاً عن المريض وقد حكى الغزالي في كتابه (احياء العلوم) ان النبي (صلعم) كان له ديك فرض فكان يقوم بتمريضه بيده الشريفة ويعني بشأنه. وحكي ايضاً انهُ (صلعم) اكل يوماً الرطب في يمينه وكان يحفظ النوى في يساره فمرَّت به شاة فأشار لها بالنوى فجعلت تأكل من كفته اليسرى وهو يأكل بيمينه حتى فرغ وانصرفت الشاة. وروى الدارقطني والحاكم وأبو نعيم من حديث عائشة ان النبي (صلعم) كان يصغي [١٥] الى الهرة الاناء حتى تشرب ثم يتوضأ بفضلها [١٦] . وقالت عائشة رضي الله عنها ما ضرب رسول الله (صلعم) شيئاً قط آدمياً او غيره ضرباً مؤذياً الا ان يجاهد في سبيل الله فيضرب . فقد قتل في وقعة أحد ابي بن خلف وما قتل بيده أحداً سواه وما ضرب خادماً ولا امرأة وما أحل تلك الاسوة لاتباعه المؤمنين الذين يهتدون بهديه ويقتدون به في عمل . وان تعجب فعجب ان ترى الشريعة طلبت الينا الرأفة بالحيوان عند ذبحه كما طلبتها لهُ حال حياته فأمرت بذبحه بحدد غير مثلوم ليكون الذبح سريعاً والشعور بالألم في مدى قصير فقال عليه السلام : اذا قتلتم فأحسنوا القتلة . وبينت السنة طريق الذبح الشرعية حتى تقوم بأدائها على أكمل وجه فقال عليه السلام : ما أنهر [١٧] الدم وذكر اسم الله فكل ليس السن والظفر وسأخبركم عنه . اما السن فعظم وأما الظفر فمدى الحبشة . فأبان (صلعم) ان كل آلة تسيل الدم يصح بها الذبح قصباً [١٨] كانت او مردة [١٩] او حديداً ما خلا السن والظفر. والحكمة في ذلك واضحة فان السن مجرح ولا تقطع فتزهق الروح ببطء من غير ان تستيقن من الزكاة الشرعية التي لا تكون الا بقطع الحلقوم [٢٠]

---

(١١) في هرة بسبب هرة وحشائش الارض حشراتها (١٢) الدهماء (١٣) الضرب على الوجه مع بسط الكف ومع قبضها لكم (١٤) تقيح الجرح صارت فيه مدة او سال فيه (١٥) يميل (١٦) بما بقي بعد شربها (١٧) أسال (١٨) كل نبات أعوج الساق (١٩) حجر أبيض كالكلس (٢٠) مجرى النفس

والمرىء [٢١] والودجين [٢٢] كذلك الظفر يدمي فتزهق الروح خنقاً وتعذيباً : وندب احداد الشفرة قبل اجتماع الذبيح كما كره تعذيب الحيوان بلا داع اليه لقطع الرأس والسلخ قبل ان يسكن اضطرابه . ومن اجل هذا حرم اكل الاصناف الآتية لما فيها من الضرر بآكلها والغلظة والقسوة بالحيوان او اشراك المسلم غير ربه في افعاله وتعظيم سواه في اعماله وقد ارشدت الى ذلك الآية الكريمة «حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل [٢٣] لغير الله به والمنخنقة [٢٤] والموقوذة [٢٥] والمتردية [٢٦] والنطيحة [٢٧] وما أكل السبع [٢٨] الا ما ذكيتم [٢٩] وما ذبح على النصب [٣٠] وان تستقسموا بالازلام [٣١] ذلكم فسق [٣٢]» . وقد راعى الشارع الحكيم في تحريم ما ذكر المصالح والحكم التي تترتب على تركها والاضرار التي تتولد من فعلها وان السر في كل منها لجلي واضح . اما الميتة فالضرر في اكلها يؤيده الطب وترشد اليه التجربة فان الحيوان المريض اذا مات يكون مليئاً بالجراثيم والادواء التي كانت السبب في هلاكه فاذا اكل منه الانسان أصيب بأمراض قتالة . وكثيراً ما رأينا وسمعنا عن حوادث في الريف والقرى ذبح فيها ناس حيواناً مريضاً واكلوه فمرضوا وماتوا من ادوائهم او اسعفوا بالعلاج حتى شفوا بعد امد طويل . ولهذا السبب عينه حرم الدم المسفوح شرباً واكلاً من قبل . ان كثيراً من الحيوان حتى الصحيح منه قد يكون في دمه بعض جراثيم قتالة ولا سيما طلب الينا الطب الا نشرب اللبن الا بعد غليه خوفاً من وجود جراثيم ضارة في الحيوان الذي حلب لبنه . وانا لنجزىء بهذا وندع القول لحضرات الاطباء ليقولوا كلمتهم ويدلوا برأيهم الشافي في تلك المسألة الطبية . كذلك يقول الطب ان في الخنازير ديداناً وجراثيم لا تموت بالغلي المعتاد بل تبقى حية بعد ذلك . ومن المعروف ان العرب وغيرهم من سكان البلاد الحارة يأكلون اللحم شيًّا على النار أو على الرضف [٣٣] تحت اشعة الشمس وبهذه الوسيلة الطبية في الانضاج لا تقتل الجراثيم وكذلك المنخنقة تبقى دماؤها فيها متجمدة في عروقها وكثيراً ما تكون ملأى بالجراثيم والامراض ومثلها الموقوذة فان دماءها تبقى مكتنزة في عروقها وربما كانت حاملة بشتى الجراثيم وأصناف الادواء وكذلك المتردية والنطيحة فكل اولئك تبقى دماؤها فيها ولا تخرج من اجسادها وقد عرفت ما في ذلك من أخطار وكذلك ما أكل منه السبع والمراد به الحيوان الضاري كالذئب والضبع والثعلب ونحوها اذ ربما تكون مصابة ببعض الامراض فالاكل من فضلاتها يؤذي ويولد في الجسم امراضاً من

---

(٢١) مجرى الطعام (٢٢) مجرى الدم (٢٣) رفع الصوت لغير الله (٢٤) التي تموت بالخنق (٢٥) ما ضربت بعصا او بحجر (٢٦) التي تردت من علو (٢٧) التي نطحتها أخرى فماتت (٢٨) الحيوان الضاري (٢٩) ذكيتم (٣٠) حجارة عند الكعبة معدة للذبح عليها والتشريح (٣١) جمع زلم وهو القدح والاستقسام بها طلب معرفة ما قسم لرياضتها (٣٢) خروج عن حدود الدين وفرائضه (٣٣) الحجارة المحماة

جنس ما في ذلك السبع الآكل الا اذا ادركنا الحيوان المأكول وفيه بقية من الحياة بها يضطرب ضد الذبح ويخرج منه بعض الدم وعندئذ تخف اضراره بقدر المستطاع . اما اذ ذبح على النصب فني ذبحه على تلك الشاكلة اشراك من المسلم لغير ربه في اعماله وفيه كفران بنعمة الله وتعظيم للأصنام والاوثان ورجوع الى الجاهلية وكذلك ما استقسم بالأزلام فقد كان من عادتهم انهم اذا قصدوا عملاً كغزو او سفر او تجارة او أمر من عظائم الامور ضربوا بثلاثة أقداح مكتوب على احداها امرني ربي . ومكتوب على الثاني نهاني ربي . والثالث غفل [٣٤] فان خرج الآمر مضوا في أعمالهم وان خرج الناهي اجتنبوا العمل وان خرج الغفل أجالوها [٣٥] مرة أخرى . وفي هذا فسق وخروج على الدين ودخول في معرفة علم الغيب وافتراء على الله بقولهم أمرني ونهاني او اشراك بالله ان أريد بالآمر الصنم

فقد اتضح لك مما سلف ان بعضاً من تلك المحرمات انما حرم خوف الشرر وبعضاً حرم لما فيه من الشرك بالله والرجوع الى نزعات الجاهلية والوثنية . وقصارى القول ان محمد بن عبد الله وضع منذ نيف وثلاثة عشر قرناً قوانين للرفق بالحيوان وألف موادها كاحدث القوانين لتلك الجماعات واذا نحن استخلصنا ذلك من بطون الشريعة ونصوصها يمكن ان نضعها كما يلي : —

١ — تؤسس الشريعة الاسلامية قانوناً للرفق بالحيوان للمسلمين كافة أسودهم وأحمرهم على اختلاف اقليمهم وبلدانهم

٢ — على كل مسلم ان يرفق بالحيوان ويساعده في مطعمه ومشربه في صحته ومرضه فلا يحمله فوق طاقته ولا يضربه ضرباً مبرحاً ويداويه اذا مرض بجميع وسائل العلاج حتى يبرأ

٣ — على كل مسلم ان يرفق بالحيوان عند ذبحه فيذبحه بسلاح ماض بتار حتى تزهق روحه بسرعة ولا يطول تعذيبه

٤ — من رفق بالحيوان حيثما كان او مبتاً كان له الاجر الجزيل على عمله والثواب العظيم عند ربه فيدخله فردوس جنانه

٥ — من آذى حيواناً بضربه ضرباً مبرحاً او حمله ما لا يطيق او حبس عنه الطعام كان عقابه عند ربه ناراً سعيراً وعذاباً أليماً

٦ — على كل مسلم حراسة هذا القانون وتنفيذه في خاصة نفسه ونصيحة غيره من المسلمين بتنفيذه وله عند ربه كفاء ذلك أجر المسلم العامل وهو رضوان ربه ورضوان من الله أكبر وذلك هو الفوز العظيم

---

(٣٤) لا كتابة عليه (٣٥) حركوها

كتابان من مصر

يرجع تاريخهما الى القرون الوسطى

مخطوطتان ثمينتان

احداهما في استنبول والاخرى في رومة

من ذا الذي كان يخطر بباله أن الامام الغزالي حجة الاسلام والفيلسوف الشهير الذي توفي سنة ١١١١ ميلادية (٥٠٥ هجرية) ، سيلقي نوراً أمام علماء النصرانية في القرن العشرين على تاريخ الترجمة العربية للكتاب المقدس ؟

على ان هذا هو الذي وقع فعلاً . ففي المكتبة التركية تحت قبة أيا صوفيا في استنبول ، يرى الناظر مقالتين مخطوطتين احتوتا بعض آثار الامام العلامة الغزالي التي لم تنشر بعد : احداهما بعنوان « الرد الجميل لالهيات عيسى بصريح الانجيل » . ومن الغريب حقًّا أن يبقى هذا الاثر لعالم من اجل العلماء ، ثماني مائة سنة دون ان ينشر على الملأ ! على أننا قد علمنا مع السرور أن طبعة منهُ قد أعدت الآن للنشر في باريس في سلسلة نفيسة للدراسات العليا بجامعة السوربون . ومع شكرنا لجامعة السوربون هذه الخدمة الجليلة للادب العربي ، كنا نود ان يصدر هذا الكتاب عن القاهرة ، حيث كتبت هذه المخطوطة — المحفوظة الآن في استنبول — في سنة ١٢٧٣ ميلادية (٦٦٧ هجرية) . وذلك لان هذه المخطوطة لم تكتب في القاهرة فقط ، بل هي تتصل اتصالاً وثيقاً بزيارة الامام لمدينة الاسكندرية ، كما سترى ، ومن هنا شأنها الخاص لدى العلماء المصريين ، من نصارى ومسلمين . ولقد رأى العلماء والباحثون ، في تاريخ الكتاب المقدس باللغة العربية ، انفسهم امام لغز يستوقف النباهة حقًّا . فان الامام الغزالي رضي الله عنهُ اقتبس في كتابه « احياء علوم الدين » اقوالاً كثيرة منسوبة الى عيسى بن مريم وهذه قد جمعها ونشرها المستشرق الاندلسي العظيم « أسين بلثيوس Asin Palacios » ، وقد ثبت أنها جميعاً ، ما عدا قولين منها ، ليست من الانجيل ، وهي شديدة النزعة الصوفية ، ولعلها مستقاة من بعض النساك في بلدان الشرق الادنى . ولم يعثر العلماء حتى اليوم على الكتاب أو الكتب التي نقل عنها الامام هذه الاقوال ، ولكنهُ يبدو في جلاء ان الكتاب الذي نقل عنهُ لم يكن العهد الجديد

والآن نحييء الى منار الدهشة . فان السيد ماسينيون ، الاستاذ بكلية فرانسا « كوليج دو فرانس » كان اول من وجّه الانظار الى ان مقالة الغزالي الخطية المخطوطة في استنبول حافلة

مقتبسات مأخوذة عن الترجمة العربية للانجيل ، ولن يمكن ان يقتبسها الكاتب الا اذا كانت أمامه نسخة من هذه الترجمة . فما مصدر هذه المعرفة الجديدة لاقوال السيد المسيح ؟ وكيف ومتى اطلع إمامنا العلامة على الانجيل الكريم ؟ يذهب الاستاذ «ماسينيون» الى ان هذه المعرفة الجديدة قد تهيأت للامام العلامة في غضون زيارته للاسكندرية بعد اعتزاله في بيت المقدس حوالي سنة ١١٠١ م (٤٩٥ هجرية) ومما يؤيد هذا الرأي ان الغزالي اقتبس عبارة من الانجيل القبطي في اللهجة « البحيرية » ومن المستبعد جدًّا ان يتيسر له هذا في غير مصر

ورغبة في استقصاء هذا البحث الشائق كان من المتعين ان أتابع البحث والدرس في مقتبسات الغزالي المنقولة عن الانجيل لعلي أتبين الترجمة التي أخذت عنها . ذلك لان ترجمات الانجيل الى اللغة العربية جرت في بلدان شتى نقلاً عن النسخ اليونانية والسريانية والقبطية . وفي الخصيصة بالالفاظ كاللغة العربية ، كان طبيعيًّا ان تتفاوت هذه الترجمات في اللفظ ، وان اتفقت كلها في المعنى

وقد أتيحت الفرصة لكتابة هذه السطور لدرس مخطوطة الغزالي المحفوظة في مكتبة استانبول ، رغبة في العثور على حل لهذا اللغز والوقوف على مصدر مقتبسات الانجيل فيها

توفي الامام الغزالي سنة ١١١١م فلا بد ان يكون قد اقتبس عن ترجمة قبل هذا التاريخ . والمعلوم لدينا ان ترجمات الانجيل الاولى الى العربية قد نقلت عن اليونانية او السريانية ، فراجعت الكاتبة تقابل مقتبسات الغزالي بنماذج من الترجمات الاولى المدخرة مخطوطاتها في مكاتب رومية وغيرها من الجامعات الاوربية المختلفة او في دير جبل سيناء . ولكن واحدة منها لم تتفق مع الفاظ الغزالي لا في الترجمات المنقولة عن اليونانية ولا في الترجمات المأخوذة عن السريانية

أفلا يكون الامام قد اقتبس عن ترجمة عربية منقولة عن اللغة القبطية ؟ ان في اثبات هذا الرأي لذة وفائدة ، وذلك لانه يهيء لنا الدليل على ان الامام الغزالي صنف كتابه في مصر ، ثم يلقي نوراً على تاريخ ترجمة الكتاب المقدس في هذه البلاد . وان استطعنا العثور على الترجمة العربية المنقولة عن القبطية ، التي تتفق في الفاظها مع مقتبسات الغزالي (وهو اقتبس خمساً وستين آية من الانجيل وحده) ، فيجب ان تكون هذه الترجمة قد تمت قبل سنة ١١١١م وهي السنة التي توفي فيها الامام . نقول ان استطعنا هذا ، كان لنا بمنزلة فتح جديد في التاريخ . فان اقدم المخطوطات العربية المنقولة عن القبطية ، المعروفة لنا ، يرجع تاريخها الى القرن الثالث عشر . ويكون فيلسوفنا المسلم قد أضاف الى تاريخ ترجمة الكتاب المقدس حقيقة تاريخية هامة . ومن محاسن الصدف ان أدت بنا خاتمة البحث والاستقصاء الى العثور على هذه المخطوطة القديمة واثبات هذا الرأي الذي نذهب اليه ، فقد عثرنا في مكتبة الفاتيكان على مخطوطة من الانجيل الكريم يعاودين احدها باللغة القبطية والآخر باللغة العربية وهذه المخطوطة هي الترجمة عينها التي اقتبس عنها الامام الغزالي اقواله

اذن يكون الامام الغزالي قد استقى معرفته بأقوال الانجيل من اقباط مصر ، والمخطوطة

التي تحتوي هذه الآيات هي النسخة القبطية العربية المحفوظة في مكتبة الفاتيكان ، التي كتبت حوالي سنة ١٢٠٤ أو ١٢٠٥ ميلادية ، اي بعد انقضاء قرن من الزمن على التاريخ الذي اقتبس فيه الغزالي من هذه النسخة عينها . أتكون هناك نسخة خطية اخرى مماثلة لها كتبت قبل هذا التاريخ ونقلت هذه عنها ؟ ان تاريخ المخطوطة الفاتيكانية التي نحن بصددها يهيء لنا الجواب على ذلك لانها تسمح الى الخطر الذي كان يهدّد نسخ الانجيل في تلك الايام الخالية

وانك لترى في هذه المخطوطة حاشيتين كتبتا في تاريخ متأخر بعد كتابة نصوصها . الاولى كتبت في كنيسة أبي سيفين التي ما زالت قائمة بمصر القديمة وفيها يسجل غبطة البطريرك القبطي غريغوريال ان المخطوطة مهداة لتكون وقفاً على دير القديس انطونيوس ، في صحراء العرب . ويأمر غبطة البطريرك الآباء والاخوة النازلين في الدير ان يذكروا الواهب في صلواتهم (وقد كان طبيباً ، هو الشيخ والشماس ميخائيل) . ثم ينهي البطريرك بتاتاً اخذ الكتاب من كنيسة الدير . فيقول « إنهُ ليس كسائر الكتب » التي يجوز حملها الى البرج او إخفاؤها (ولعله يقصد بهذا الاغلاق عليها في « خزانة ») بل يجب ان يكون دائماً في الكنيسة مع الكتب الاخرى المعدة للعبادة في أيام الآحاد والاعياد ، يقرأونهُ صباحاً ومساء » . فان أراد أحد الرهبان ان يأخذهُ بصفة مؤقتة الى خلوته للدرس او البحث ، فله ان يفعل ذلك على أن يعيده الى الكنيسة

ويخيل الينا ان تلك المخطوطة كانت قد ثمينة جداً ، وان الرهبان قد حرصوا عليها كل الحرص في كهفهم وراء اسوار موطنهم الصحراوي ، الذي كان اشبه بقلعة ضد غارات اعراب البادية

ولكن الحاشية الثانية تبين انه حتى في تلك القلعة لم يكن الكتاب الثمين بمأمن . فان هذه الحاشية قد اضيفت على الكتاب الاصلي بعد قرنين ونصف من تاريخ الحاشية الاولى (في سنة ١٥٠٦م) بيد البطريرك القبطي في ذلك الزمن — واسمه الانبا يوحنا — ويسجل فيها حل قيرة الوقف التي خصّت الكتاب بكنيسة القديس انطونيوس ، وذلك لان الدير « كان قد خلا من ساكنيه » وكان أهل البادية قد نهبوه وحملوا بين اسلابهم مخطوطة الانجيل . ولكن اعيدت المخطوطة فيما بعد ، ولم يقل البطريرك في مذكرته ان كانت المخطوطة قد اعيدت في غارة مضادة قام بها بعض الرهبان على العرب ، ام ان الناهبين اعادوها من تلقاء انفسهم لعدم حاجتهم اليها

كان هذا حظ المخطوطات القديمة في تعرضها للنهب والسلب . وانا لنشكر الله أن أتى لنا على مخطوطتين من مصر ، يرجع تاريخهما إلى القرن الثالث عشر ، إحداهما محفوظة في استنبول مع مقالة للامام الغزالي والاخرى محفوظة في رومية مع المخطوطة السابقة لها وانا لواجدون في تينك المخطوطتين الثمينتين شعاعاً من النور يسطع على البحث القديم الذي يجد علماء النصرانية والاسلام لإزاحة الحجب عنهُ ، لما فيه من لذة وفائدة تاريخية « بنت الحارث »

مدام كوري

Mme Curie. A Biography, by Eve Curie

مختصر الكتاب الذي ألفته

ايف كوري

كريمة صاحبة الترجمة

نقلته عن مجلة « ريدرز ديجست » : الآنسة ميرفا عيد

« لو أضفت أقل زخرفة الى قصة والدتي هذه ، التي تشبه الاساطير أتم الشبه ، لكان ذلك اجراماً مني » . هذا ما كتبته ايف كوري في مقدمة كتابها . ثم استطردت قائلة : « اني لم أذكر أي حادث لم أكن مستوثقة منهُ ، بل لم أخترع من عندي ولا لون فستان. فقد ذكرت الوقائع على حقيقتها وأعدت العبارات المقتبسة كما قيلت »

« وانني لارجو ان يشعر القارىء بما كانت تكنّهُ ماري ، وهو يشاهد عملها ، ألا وهو بناء خلقها المتين ، تلك الصفة النفسية التي لم يتمكن من تغيير طهارتها الفذة ، لا الصيت الذائع ولا المعارضة اللاذعة . تلك الصفة التي حملت اينشتين على القول : « ان ماري كوري هي الشخص الوحيد ، بين جميع المشهورين ، الذي لم تفسده شهرته »

مدام كوري

بقلم ايف كوري

قصة حياة فذة

في خريف سنة ١٨٩١ انتظمت فتاة من المهاجرين البولنديين تدعى ماري سكلودفسكا في قسم دراسات العلوم بجامعة السوربون بباريس . وكثيراً ما قابل الشبان هذه الفتاة الحية السود المرتدية ملابس تدل على الفقر والخشونة وتساءلوا فيما بينهم « من هي» . الا ان الجواب كان غامضاً : « هي أجنبية يصعب نطق اسمها ،تجلس دائماً في الصف الامامي في فصول علم الطبيعة». وكانوا يتبعون قوامها الرشيق بنظراتهم ، ويتهامسون « ما أجمل شعرها ! » . وقد ظلّ شعرها الاشقر ورأسها الصغير السلافي مدة طويلة كل ما يعرف به طلبة السوربون ، زميلتهم الخجول

اما هي فكان اقل ما يسترعي التفاتها هؤلاء الشبان لان دراساتها الشاقة استحوذت عليها فكانت تنكبّ على العمل بحرارة كحرارة الخموم ، حاسبة كل دقيقة لا تنفقها على التحصيل وقتاً ضائعاً

ولما لم يسمح لها حياؤها المتناهي بصداقة الفرنسيين لجأت الى الحي الذي سكنهُ مواطنوها وقد كان بذاته جزيرة بولندية مستقلة في وسط الحي اللاتيني بباريس وهناك عاشت عيشة بسيطة منعزلة جعلتها وقفاً على العمل . اما دخلها فكان عبارة عن اربعين «روبلاً » شهرياً وكان يشمل ما اقتصدتهُ من عملها كمربية في بولندا وكذلك المبالغ اليسيرة التي ارسلها اليها والدها ، وكان معلم رياضة وطبيعة في بولندة . فمن هذا الراتب ، وهو ثلاثة فرنكات يومياً ،كانت توفي أجرة غرفتها وثمن أكلها ولبسها ونفقاتها بالجامعة

لم تشترك ماري عمداً في اي مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية خارج برنامجها الدراسي حتى امتنعت عن مقابلة الاصدقاء . فعاشت عيشة تقشف سبارطية غريبة عن ميول البشر ، وصلت بها الى عدم الاعتراف بتأثرها بالبرد او الجوع . فكانت تهمل اشعال موقدها حتى لا تضطر الى شراء فحم كما كانت تكتب الارقام والمعادلات دون ان تلاحظ ان اصابعها متجمدة او ان كتفيها ترتعشان . بل لقد كانت الاسابيع تنقضي دون ان تأكل شيئاً غير الخبز والزبدة والشاي ،فاذا ما ارادت ان تنعم بوليمة اشترت بيضتين او قطعة من الشوكولاته او قليلاً من الفاكهة

ولكن سرعان ما اصيبت تلك الفتاة القوية التي تركت وارسو قبل اشهر قليلة بالانيميا ، فكثيراً ما كانت تشعر بالدوار حال قيامها من جانب طاولتها ثم لا تلبث أن تفقد وعيها قبل وصولها الى فراشها . فاذا ما استعادت رشدها وساءلت نفسها عما اصابها ظنّت انها مريضة فاحتقرت مرضها شأن كل شيء يعترض عملها . الاّ انه لم يخطر ببالها حينئذٍ ان مرضها الوحيد هو افتقارها الى التغذية

بيير كوري

كانت ماري قد حذفت الحب والزواج من برنامج حياتها فاذ استولى عليها حبها للعلم بقيت متمسكة تمسكاً شديداً باستقلالها حتى بلغت السادسة والعشرين

ثم ظهر في الميدان بيير كوري ، وهو عالم فرنسي نابغة وقف روحه وحياته على البحوث العلمية وبقي غير متزوج الى سن الخامسة والثلاثين . كان طويل القامة ، ذا يدين طويلتين عصبيتي الاصابع ، وعينين كمنة ، ووجه يعبر عن الذكاء النادر الممتاز

تقابلا اولاً عام ١٨٩٤ في المعمل وسرعان ما قرّب بينهما تبادل الشعور وتشابه الميول . فلقد وجد بيير كوري في الآنسة سكلودفسكا الصموت شخصية تبعث على الدهشة . ما اغرب الحديث الى فتاة ساحرة بلغة الاصطلاحات العلمية والتراكيب المعقدة ... بل وما احلاه !

تأمل بيير في شعر ماري الاشقر وجبينها العريض المفوس ويديها المتأثرتين بأحماض المعمل فحيره ظرفها الخالي من اي ادعاء . فحاول بلطف وحزم ان يفوز بصداقة تلك الفتاة . وطلب اليها السماح له بزيارتها . فاستقبلته في غرفتها بود ولكن بكل تحفظ . فانقبض قلب بيير مما رآه حوله من دلائل الفقر المدقع ولكنه قدر في الوقت نفسه الانسجام التام بين خلقها وسكنها . ففي غرفتها الخالية من الاثاث تقريباً وفي ملابسها المتناهية في البساطة وملامحها الغيورة العنيدة ، ظهرت ماري اجمل منها في اي وقت آخر . فلم يخلبهُ فقط اخلاصها المتناهي لعملها بل وايضاً شجاعتها ونبلها . فهذه الفتاة الرقيقة تحلت بأخلاق الرجل العظيم ومواهبه . وبعد اشهر قليلة طلب بيير كوري يد ماري ، فلم تقبل هذه الفتاة العنيدة فكرة الزواج الاّ بعد مضي عشرة اشهر لانها رأت ان الزواج من فرنسي وترك بلادها المحبوبة المظلومة خيانة شائنة

***

قضى بيير وماري الايام الاولى من حياتهما معاً في التجوال في منطقة «ايل دي فرانس» على عجلتين اشتراهما بنقود قدمت اليهما هدية عند زواجهما . فتغذيا بالخبز والجبن والفاكهة واستراحا في فنادق لا يعرفانها ، صادفتهما في الطريق . وهكذا نعما بالوحدة لياليَ ولياليَ طويلة لم ينفقا اثناءها الاّ الطاقة التي تقتضيها العجلتان وقليلاً من الفرنكات بالفنادق القروية . اما

الشقة الصغيرة التي استوطناها اخيراً بشارع جلاسير رقم ٢٤ فكانت مفتقرة الى جميع وسائل الراحة ، كما انهما رفضا قبول الاثاث الذي قدمه اليهما والد بيير لانهُ لم يكن لماري متسع من الوقت لتنظيفه . فلم تضم تلك الجدران العارية الاَّ بعض الكتب ومقعدين وطاولة من الخشب الابيض عليها رسائل في علم الطبيعة ومصباح يضاء بالغاز وباقة من الازهار . فلم يكن هناك بد لاجير زائر من ان ينسحب عند ما يرى نفسه امام مقعدين لم يعدّ احدهما له

الاَّ ان ماري تقدمت تدريجيًّا في علم تدبير المنزل فاستنبطت بعض المأكولات التي لا تحتاج الى إعداد يذكر او التي يمكن تركها على النار مدة دون مراقبة حتى تنضج . فقبل خروجها الى عملها كانت تضبط حرارة الموقد ضبطاً علميًّا وتترك الطعام عليه لينضج ثم تعود الى الدور الاسفل لمشاركة زوجها في العمل وهناك بعد ربع ساعة تضبط حرارة النار المشتعلة وعليها مواد تختلف كل الاختلاف عن المواد التي تركتها في مطبخها

لم تختلف السنة الثانية من زواجهما عن السنة الاولى الاَّ بالنظر الى حالة ماري الصحية التي تأثرت بحملها . ومع ان مدام كوري كانت ترغب كثيراً في ان ترزق بطفل الاَّ انها تضجرت من مرضها وعجزها عن الوقوف في المعمل لمراقبة مغنطيسية الصلب

قد يظن البعض ان حالة ماري الصحية ألانت من حماسة بيير وحملتهُ على قضاء صيف هادىء معها . الاَّ ان الاثنين ، وكأنهما مجنونان في عدم تبصرهما ، قاما برحلة الى بريست على عجلتهما في أثناء الشهر الثامن من شهور حملها ، فقطعا في رحلتها مسافات بعيدة كالمعتاد . ولقد صرحت ماري بعد ذلك انها لم تشعر بتعب ما كما تملَّك من بيير شعور غامض بأن زوجه خارقة للطبيعة فلا تخضع للقوانين البشرية . الاَّ انهُ سرعان ما اضطرت الزوجة ان تقطع رحلتها ، على الرغم عن شعورها بان في ذلك اذلالاً لها ، وعادت الى باريس حيث وضعت ابنتها الاولى ايرين ، تلك الطفلة الجميلة التي فازت بجائزة نوبل سنة ١٩٣٤ مع زوجها الاستاذ جوليو

لم يختار بال ماري موضوع الاختيار بين حياة البيت ومواصلة حياتها العلمية . فمع انها عنيت بأمور المنزل ، وشؤون كريمتها ، وإعداد الطعام ، الاَّ انها في الوقت نفسه واصلت عملها في معملها الحقير ، ذلك المعمل الذي توصلت فيه الى أعظم اكتشاف في اقسم الحديث

اكتشاف الراديوم

في نهاية عام ١٨٩٧ اظهرت ميزانية اعمال ماري درجتين جامعيتين وزمالة ورسالة في مغنطيسية الفولاذ الصلب . وكان مرماها التالي هو نيل درجة الدكتوراه . وبينما كانت تفكر في موضوع تختص في بحثه استرعت نظرها نشرة حديثة للعالم الفرنسي هنري بيكرل . اما بيكرل فكان

قد اكتشف ان املاح الاورانيوم اطلقت اطلاقاً ذاتيًّا اشعة لم تعرف ماهيتها . فركّب الاورانيوم على وضع على لوحة للتصوير الضوئي يحيط بها ورق اسود يترك أثراً على اللوحة بعد اختراق ذلك الورق . فكانت هذه المشاهدة الاولى لتلك الظاهرة التي اسمتها ماري بعد ذلك بالنشاط الاشعاعي Radio-activité . الاّ ان طبيعة الاشعاع وأصله بقيا سرًّا غامضاً

اخذ آل كوري باكتشاف يكرل وتساءلا عن مصدر الطاقة المنبثة من مركبات الاورانيوم في هيئة اشعاع فتح لها هذا السؤال باباً واسعاً للبحث هل قفز بهما قفزة نحو مملكة مجهولة . الاّ انهما واجها في الوقت نفسه صعوبة الفوز بمكان موافق للمضي في ابحاثهما فيه . وأخيراً اعانى لماري الحق بفضل مدير مدرسة الطبيعة التي كان بيير مدرّساً فيها بـ في استعمال غرفة ارضية رطبة كانت تخزن فيها المواد المنبوذة

لم يكن المضي في البحث العلمي في هذا الجحر بالامر الهين . فالحالة الجوية فيه اضرّت بالآلات الحساسة الدقيقة كما اضرّت بصحة ماري . غير انها لم تعر هذا الامر اهتماماً ما فكلما شعرت ببرودة الجو انتقمت لنفسها منها بتدوين درجة البرد في جدولها !

وكلما زادت ماري تعمقاً في دراسة كنه اشعة الاورانيوم زادت اعتقاداً انها الاولى من نوعها . وبعد ان قامت بتلك المهمة الشاقة ، مهمة امتحان جميع الاجسام الكيمياوية وجدت ان مركباً من عنصر آخر هو عنصر الثوريوم اطلق اطلاقاً ذاتيًّا ايضاً اشعة تشبه الاشعة التي يطلقها الاورانيوم . هذا فضلاً عن ان النشاط الاشعاعي في كلتا الحالتين كان اقوى مما كان ينتظر حتى روعي مقدار الاورانيوم او الثوريوم الذي في الجسم الذي اطلق ذلك الاشعاع

فما مصدر ذلك الاشعاع غير العادي ؟ لم يكن هناك الاّ جواب واحد . لا بدّ أن تحوي تلك المواد مقادير صغيرة من عنصر أقوى في نشاطه الاشعاعي من الاورانيوم والثوريوم . ولكن ما هو ذلك العنصر ؟ كانت ماري في اختباراتها قد امتحنت جميع العناصر المعروفة ولم تجد بينها رداً على سؤالها . فلا بدّ لها إذاً أن تجيب بتلك الجملة الفذة : « إن تلك المواد تحوي عنصراً غير معروف للآن ، وهو يمتاز بهذا النشاط الاشعاعي العجيب »

عنصر جديد ! نظرية خلابة ! ولكن لا بدّ من كشف القناع عن تلك المادة المجهولة حتى تتمكن ان تعلن وهي واثقة : « ها هي ذي »

وبعد أن تتبع بيير كوري باهتمام كبير تقدم زوجه السريع في تجاربها انضمّ اليها لمساعدتها صادفاً عن بحوثه الخاصة . فتعاون الآن عقلان واربع أيدٍ في الكشف عن ذلك العنصر المجهول في تلك القرفة الصغيرة الرطبة ، ثم دام هذا التعاون ثمانية أعوام كاملة ولم ينهه إلاّ حادث أليم

بدأ بيير وماري بحثهما بقياس النشاط الاشعاعي لكل عنصر من العناصر الداخلة في مادة البتشبلند ،

وهو ركاز الاورانيوم فتوصلا الى أن هناك عنصرين لا عنصر واحد يتصف بالنشاط الاشعاعي، وفي شهر يوليو من عام ١٨٩٨ أعلنا اكتشاف أحد هذين العنصرين. وقد سمتهُ ماري « بولونيوم » تيمناً باسم بلادها المحبوبة بولندة

وفي ديسمبر من عام ١٨٩٨ أعلن آل كوري اكتشاف العنصر الآخر الذي سماهُ « الراديوم » وهو يتميز بأن نشاطه الاشعاعي عظيم للغاية

العبقرية في سقيفة

لم تتفق الصفات الخاصة بالراديوم مع كثير من النظريات العلمية التي قبلها العلماء مدى سنات السنين . فلذلك كان موقف علماء الطبيعة نحو الاكتشاف الجديد موصوفاً بالتحفظ الشديد علاوة على أن علماء الكيمياء كانوا أكثر تحفظاً منهم لان الكيمياوي بطبيعته لا يسلّم بوجود عنصر جديد إلاّ بعد أن يراه ويختبره ويتمحن تأثير الحوامض فيهِ ويقرر وزنه الذري

أما الراديوم فلم يره احد ولم يقرر وزنه الذري بعد . فلكي يبرهن آل كوري على وجود هذين العنصرين ، البولونيوم والراديوم ، تمين عليهما العمل المتواصل مدة اربع سنوات . ومع انهما كانا قد توصلا الى طريقة فصل المعادن بعضها عن بعض الاّ ان مهمتهما الجديدة اقتضت الاشتغال بمقادير وافرة من المواد الخام

كان ركاز الاورانيوم الذي يحوي عنصري البولونيوم والراديوم يعالج في مناجم سنت جواشمستال ببوهيميا لتستخرج منه املاح الاورانيوم المستعملة في عمل الزجاج. وقد كان هذا الركاز غالي الثمن ، الاّ ان آل كوري توصلا بحثهما الى ان استخراج الاورانيوم منهُ يترك عنصري البولونيوم والراديوم كفضلات لا قيمة لها دون ان تتأثر البتة بهذه العملية . فلم لا يستخدمان هذه الفضلات التي لا قيمة لها ؟

تحصلا من الحكومة النمساوية على طن من فضلات ركاز الاورانيوم وبدآ عملهما في سقيفة مهجورة بجوار الغرفة التي اجرت فيها ماري تجاربها الاولى . اما هذه السقيفة الجديدة فكانت تستخدمها كلية الطب قديماً حجرة للتشريح الاّ انها عادت لا تصلح حتى لحفظ الجثث . اذ كانت عارية من البلاط وخالية من الاثاث لولا بضع طاولات مطبخ قديمة وسبورة وموقد غاز قديم من الحديد الصب

كانت هذه السقيفة خانقة في الصيف مثل المستنقعات الحافظة للحرارة ، كما انها كانت في الشتاء مثل المنطقة الثلجية في بردها رغماً عن اشعال الموقد بها . الاّ انها لم يشغلاها كثيراً بل

أجرها أغلب تجاربهما في الحلاء لافتقارها الى المداخن الصارفة لغازات الخانقة

وقد كتبت مدام كوري بعد ذلك قائلة : « ان اسعد سني حياتنا وأفضلها هي تلك التي قضيناها في هذه السقيفة التعسة حيث وقفنا كل وقتنا على العمل . فكثيراً ما قضيت اياماً كاملة وأنا احرك بعض المواد ، وهي تغلي ، بهراوة من الحديد يقرب وزنها من وزني . فاذا ما أتى المساء شعرت اني منهوكة القوى تماماً »

وعلى هذا المنوال استمرّ الاستاذ كوري وقرينته في عملهما من عام ١٨٩٨ الى عام ١٩٠٢ وقد كانت ماري وهي تعمل في صحن تلك الدار ، بملابسها الرثّة الملوثة بالاحماض ، وشعرها المنثور تداعبهُ الريح ، يحوطها الدخان الكثيف الخانق ، كانت ماري وحدها عبارة عن معمل كامل

وقد كتبت مرة تقول : « وصل بي الامر ان اشتغلت بمقدار من المواد يبلغ وزنه عشرين كيلو جراماً مما اضطرني الى ملء الحجرة بأوعية السوائل والرواسب . ولقد كان حمل تلك الاوعية وصب السوائل منها وتحريك المواد المغلاة ساعات طويلة ، عملاً مضنياً حقًّا »

وامتدت ايام العمل اشهراً وانعقدت الاشهر سنوات ، غير ان ذلك لم يثبط من همة بيير وماري وكانا أحياناً يتركان اجهزتهما مدى لحظات قليلة فيتنفلان في حديثهما عن الراديوم المحبوب من البحث في ناحيته الفائقة الى التحدث في الامور الصبيانية المتعلقة به

ففي احد الايام سألت ماري بحماسة وتشوق تقربان من حماسة الطفل الموعود بلعبة جديدة : « يا ترى ما هو شكله ! وبأي هيئة تتصوره يا بيير؟ »

فأجاب العالم بلطف : « لا أدري ولكني اتمنى ان يكون لونه جميلاً » . واذ استمرت ماري في معالجة الطن من ركاز الاورانيوم الذي ارسل اليها من سنت جواشمستال استلأت الطاولات القديمة في حجرتها بالمواد الحاوية لمقدار من الراديوم اوفر مما حصلت عليه قبلاً . وقد قاربت الدور النهائي ، دور تنقية السوائل ذات النشاط الاشعاعي القوي ، حين عاقها عن العمل افتقارها الى الاجهزة اللازمة والاستعداد الكافي . ففي هذه السقيفة المعرضة للرياح اختلطت ذرات الحديد والفحم الطائرة بالمواد المنقاة وهي المواد التي اقتضت تنقيتها عناء كبيراً فانقبض قلب ماري من تلك الحوادث اليومية التافهة التي استنفدت كثيراً من وقتها وجهودها

وهنت عزيمة بيير امام هذه العقبات المستمرة وفكر في اعتزال العمل لوقت ما لعلّ الايام تهيئ لها أحوالاً اكثر موافقة لبحث العلمي

الاّ انهُ في تفكيره هذا لم يحسب لاخلاق ماري حساباً . فلقد ارادت ماري فصل الراديوم عن المواد الاخرى وانها لفاعلة ذلك ، مستخفة بالمتاعب والمشاق غير آبهة لما يعوزها من المعارف لاتمام عملها ، تلك الصعوبة التي زادت مهمتها تعقيداً . فما لا يخفى انها كانت طالبة حديثة

المعهد بالاساليب العلمية ولذا كثيراً ما صادفتها ظواهر طبيعية وعمليات حسابية لم تعرف عنها الاَّ القليل فاضطرت الى دراستها دراسة عاجلة حتى تتمكن من مجابهتها

وفي عام ١٩٠٢ بعد انقضاء خمسة واربعين شهراً على اليوم الذي اعلن فيه آل كوري فرض وجود عنصر الراديوم تمكنت ماري من احراز النصر بعزيمة واصرار يفوقان صفات البشر . ثم فلقد توصلت الى اعداد ديسيجرام من الراديوم النقي كما تمكنت من تقرير وزنه الذري فاكان للكيماويين مفر من ان يطأطئوا الرأس امام الواقع ويعترفوا بوجود الراديوم

حياة شاقة

ومما يؤسف لهُ انهُ كان امام آل كوري نضال غير اضافي مع الطبيعة في معملها . فلقد كان مرتب بيير بمدرسة علم الطبيعة خمسمائة فرنك شهريًّا فقط ولذلك اضطربت الميزانية البيتية حين اضطرا الى استخدام مربية بعد مولد أرين فكان لا بد من البحث عن موارد اخرى

وفي سنة ١٨٩٨ خلا كرسي أستاذ الكيمياء الطبيعية بجامعة السوربون فقرر بيير ان يطلبهُ . فعلاوة على ان مرتبه كان عشرة آلاف فرنك كانت ساعات التدريس المخصصة لهُ أقل من ساعات التدريس بالمدرسة . إلاَّ أن طلبهُ رفض ، ولم يتمكن من الوصول الى مرتبة أستاذ إلاَّ في سنة ١٩٠٤ بعد ان اعترف العالم كله بمكانته العلمية العالية. أما حينئذٍ فقد اضطر الى قبول منصب أقل درجة من المنصب الشاغر بالسوربون ، حيث كانت الادارة راضية كل الرضى ان تعهد اليهِ بتعليم بعض العلوم ذات المقام الثانوي مما يستغرق كلَّ يومهِ . وفي الوقت نفسهِ حصلت ماري على منصب مدرسة في مدرسة للبنات بالقرب من فرساي

توصل الآن آل كوري الى موازنة ميزانيتهما إلاَّ أنهما أنفقا كاهلهما بالعمل المضني في الوقت الذي احتاج فيهِ الى كل قواهما لمواصلة تجاربهما في النشاط الاشعاعي . فحاول اصدقاء بيير جهدهم ان يقربوه من ذلك المقام الذي يصعب الوصول اليهِ ألا وهو منصب أستاذ . فخطر لهم ان عضويته في أكاديمية العلوم لا بدَّ ان ترفع من شأنهِ ولذلك اقترحوا عليهِ أن يرشح نفسه لها في سنة ١٩٠٢ . تردد أولاً ثم سلَّم غير راضٍ ، لانهُ كان يثقل على طبعهِ القيام بالزيارات المعتادة لاعضاء الاكاديمية ، والكلام عما أحرزه من شرف ، وما قام بهِ من جلائل الاعمال ، بل أنهُ وجد انهُ يتعذر عليهِ بتاتاً القيام بهذه المهمة . فنتج عن ذلك انهُ قام بالزيارات ولكنهُ امتدح مناقبه للسيو أماجا . . . فاختار أعضاء الاكاديمية السيو أماجا

بعد مدة قصيرة رفض بيير قبول وسام اللجيون دونور لانهُ ظهر لهُ أنهُ من بواعث السخرية أن يقدم الى عالم ، اوصدت أمامه أبواب المعمل ، صليب معشى بالبنفسج ومربوط بشريط أحمر من الحرير وذلك على سبيل التشجيع !

ومضى آل كوري في التعليم بروح طيبة وبدون تذمر باذلين جهدهما في تأدية واجبهما . ولانهما كهما الشديد في عملهما بين تعليم واجراء تجارب علمية نسيا حاجتهما الى الطعام والنوم، بل تماديا في حماقتهما هذه حتى اساءا الى نفسهما والى صحتهما . فكثيراً ما كان يضطر بيير الى الاسراع الى فراشه من جراء ألم شديد في رجليه. اما ماري فتمكنت بصلابة اعصابها من المقاومة، ومع ذلك فقد افزع اصدقاءها شحوب وجهها وهزاله

وكذلك تقدم النشاط الاشعاعي وعما ، بينما كان يفضي تدريجيًّا العالمين اللذين وهباه الحياة

فرار « الراديوم ! »

هذا الراديوم العجيب ! عند ما حضّر كوريد أظهر مسحوقاً أبيض هادئًا يشبه ملح الطعام تمام الشبه . الا أن خواصه مدهشة حقًّا . فاشعاعه فاق في شدته غاية ما يمكن توقعه ، حتى كان اقوى من اشعاع الاورانيوم مليوني مرة فاخترقت أشعته أقسى المواد غير الشفافة ولم تحجبها الا ستارة كثيفة من الرصاص

أما أحدث أعاجيبه وأعمقها أثراً فهي التمكن من الاستعانة بالراديوم في محاربة السرطان . وهكذا ثبت ان الراديوم نافع اي ان اكتشافه لم يقتصر في خطورته على الناحية التجريبية فقط بل تعداها الى انشاء صناعة جديدة

عندما عرفت قيمة الراديوم الطبية نشطت حركة في مختلف البلدان ، ولاسيما في بلجيكا واميركا، لاستغلال الركاز الغني بالنشاط الاشعاعي ، ولكن العلماء لم يتمكنوا من استخراج هذا «المعدن العجيب » منهُ لجهلهم سرّ العمليات الدقيقة اللازمة لذلك

شرح بيير هذه المسألة لزوجه في صباح احد ايام الآحاد عقب قراءته رسالة وصلتهُ من بعض ارباب الصناعات بالولايات المتحدة الاميركية الذين يريدون استخراج الراديوم ويطلبون منهُ تزويدهم بالمعلومات اللازمة

فقال لها بيير : « أمامنا طريقان يمكننا الاختيار بينهما . فأما أن نشرح لهم نتيجة بحثنا بدون تحفظ ، بما في ذلك عملية تنقية الراديوم . . . وإما »

وهنا أشارت ماري اشارة ميكانيكية تدل على الموافقة وتممت : « نعم . طبعاً . » . ثم مضى بيير في حديثه :

« وأما ان نعتبر أنفسنا مالكي الراديوم او بعبارة أخرى « مخترعيه » ونسجل طريقة معالجة ركاز البتشبلند فنحتفظ لانفسنا بامتياز صناعة الراديوم في كل العالم »

تأملت ماري بضع ثوان ثم قالت : « هذا مستحيل لانهُ يعارض والروح العلمية »

فانفرجت أسارير وجه بيير . ولكن لكي يريح ضميره استطرد الحديث في الموضوع مكرراً

وهو يضحك ضحكاً لطيفاً مشيراً الى الامر الوحيد الذي عزّت عليه تضحيته: « ويمكننا حينئذٍ ان نمتلك معملاً كامل المعدات ». أما نظرة ماري فلم تتغير لأنها ثبتت على رأيها وهي رفض الربح المادي

« إن علماء الصيدلة يشترون دائماً بحوثهم كاملة. فاذا كان اكتشافنا لا فائدة تجارية فهذا عارض يجب ألاّ نستفيد منهُ وحيث أن الراديوم سيستخدم لمعالجة الامراض فيجب ألاّ نستغلهُ »

لم تحاول ان تقنع زوجها لانها وثقت بانهُ ذكر أمر ملكية الاكتشاف من سبيل الاحتياط فقط. فالكلمات التي فاهت بها بثقة تامة ما كانت الاّ لتعبر عن شعورهما كليهما، عن رأيهما الصادق في مكان العالم في الحياة. ثم اضاف بيير وكأنهُ يقرر أمراً لا قيمة له:

« سأكتب هذه الليلة الى الخبراء الاميركيين وأزودهم بالمعلومات التي طلبوها مني »

وبعد ربع ساعة من هذا الحديث القصير في صباح الاحد قام بيير وماري بنزهة على عجلتيهما في الغابات، بعد ان اختارا الى الابد بين الفقر والغنى. وفي المساء رجعا منهوكين وأذرعهما ملأى بأوراق الحقول وأزهارها!

٥

العرس

والآن بدأت مقدمة تلك القصة الموسيقية الرائعة التي سرعان ما بلغت أوجها. ففي يونيو من سنة ١٩٠٣ دعا المعهد الملكي بلندن بيير لكي يحاضر به في موضوع الراديوم وتبع ذلك سيل من الدعوات لحضور الحفلات والولائم لان لندن بأسرها تاقت الى مشاهدة «والدي الراديوم»

تحمل آل كوري هذه الحفاوة مدة ايام قليلة بشيء من الملل ثم رجعا الى مسكنهما الصغير. ولكن الانكليز الكريمين متصفون بالوفاء لمن يحبون به. ففي نوفمبر سنة ١٩٠٣ منحت الجمعية الملكية بلندن بيير وماري مدالية دافي وهي من أسمى أوسمتها

وكانت بلاد السويد التالية في تقدير فضلهما. ففي ١٠ دسمبر سنة ١٩٠٣ اعلنت اكاديمية العلوم بستوكهولم ان جائزة نوبل لعلم الفيزياء في تلك السنة قد قسمت مناصفة بين هنري بيكرل من ناحية ومدام كوري وزوجها من الناحية الاخرى لاكتشافهم النشاط الاشعاعي

كانت قيمة جائزة نوبل حقاً سبيل التأمين الفريد كانت ولا يزال قيمتها « يتعارض والروح العلمية » فجاءت فرصة عظيمة الآن لانقاذ بيير من ساعات التدريس الطويلة ورعاية صحته. وحالما قبضا تلك النقود أنفقا الهدايا والقروض على اخي بيير وأخت ماري، واهبات للجمعيات العلمية والعطايا لبعض الطلبة البولانديين ولاحدى صديقات ماري منذ طفولتها كما ان ماري جهزت حماماً حديثاً في بيتها الصغير وأثثت غرفة بسيطة به. ولكن لم يخطر ببالها قط أن تحتفي بتلك الفرصة بشراء قبعة جديدة. كما انها استمرت في التعليم مع انها اصرّت على ان يعتزل بيير تعليم مدرسة الطبيعة

واذ ذاع صيتهما تكدست طلباتها بأكوام الرسائل البريدية، ونشرت عنهما آلاف

المقالات بالجرائد ووصلها مئات الطلبات للحصول على امضائها او صورتها ، وكثير من الخطابات من المخترعين ، والاشعار في مدح الراديوم . حتى وصل الامر بأحد الاميركيين أن طلب السماح له بتسمية فرساً للسباق باسم ماري . ولكن سوء تفاهم مستديم فصل بين آل كوري وبين الجمهور الذي اعارها التفاته الآن . فلقد وصلا الى لحظة مؤلمة جداً في حياتهما لانهما كانا بحاجة الى التفرغ للعمل ليتما رسالتهما التي لم تنته بعد ، حين لم يحسب الصيت اي حساب لذلك . لان الصيت يطغى على العظماء بحمله الثقيل ويحاول ان يعيق تقدمهم غير عابىء بالمستقبل الذي يجاهدون نحوه

فما انانة جائزة نوبل للنشاط الاشعاعي من الصيت الذائع حمل الملايين على حساب هذا الاكتشاف الذي لم يتجاوز بعد دور الطفولة ضمن الانتصارات المحققة . بل ان الكثيرين شغلوا انفسهم بالتدخل في حياة هذين الزوجين الخاصة التي تقرب من الاساطير فسلبوها الكنز الوحيد الذي اعتزا بالاحتفاظ به ، ألا وهو التأمل والهدوء

ولقد علقت ماري على ذلك ، بما كتبته في ربيع سنة ١٩٠٤ :

« . . . ضوضاء مستمرة . فالقوم يلهوننا عن عملنا ولذا أعزمت على التسلح بالشجاعة ورفض مقابلة الزائرين ولكنهم يصرون على ازعاجنا . لقد أفسد علينا الصيت حياة العمل الهادئة التي كنا نحياها » . ولقد تألمت ماري بنوع خاص من الدور الذي انتظرها العالم أن تمثله لان طبيعتها لم تتفق وتلك المظاهر التي تقتضيها الشهرة من الاندماج في الحياة الاجتماعية ، والصداقة المتكلفة ، والقسوة في المعاملة أحياناً وادعاء التواضع أحياناً أخرى

فالحادثة التالية ، من آلاف الحوادث مثيلاتها ، تبين جلياً موقف آل كوري تجاه حماسة الجمهور نحوهما . فبينما كانا يتناولان الطعام مرة بقصر الاليزيه مع الرئيس لوبيه وقرينته سألت مدام لوبيه ماري قائلة : « هل ترغبين في ان أقدمك الى ملك البرتغال ؟ »

فأجابت ماري بكل بساطة وأدب واخلاص : « لا أرى جدوى من ذلك »

ولكنها لاحظت حينئذٍ دهشة السيدة التي تكلمها فاستفهم وجهها وقالت مستدركة كلامها : « ولكن . . . ولكن . . . بالطبع أعمل ما يسرك . اي شيء يسرك »

وقد كان يجب على الصيت الذائع الذي أحل بآل كوري كثيراً من النكبات أن يأتيهما بشيء من البركات مثل مقام الاستاذية ، ومعمل لائق ، وفريق من العلماء للتعاون معهما . ولكن متى تحل هذه النعم يا ترى ؟

الانتصار معاً

لما حلت نهاية حمل ماري الثاني في سنة ١٩٠٤ كانت منهوكة القوى لطول المدة التي لازمت

فيها فراشها وهي في حالة تعب شديد وأخيراً في ٦ ديسمبر سنة ١٩٠٤ ولدت طفلة سمينة يملو رأسها شعر كثٌ أسود وهي إيف [1] . ولكن سرطان ما عادت ماري الى عملها بالمدرسة والمعمل . حاول آل كوري كالمعتاد عدم الظهور كثيراً في المجتمعات ولكنهما لم يجدا بدّاً من حضور الحفلات الرسمية لتكريم العلماء الاجانب. ففي هذه الحفلات فقط كان بيير يلبس سترته الطويلة الرثّة وماري فستان السهرة الوحيد الذي امتلكتهُ

فهذا الفستان الذي احتفظت به ماري سنين طويلة ، مستعينة باحدى الخياطات من وقت لآخر على تغييره بعض الشيء ليوافق الزي المتبع ، كان من الحرير « الجرينادين » الاسود . ولا غرابة اذا كان موضع احتقار أية سيدة عادية ، أما ماري فقد أوجدت لنفسها ما اتصفت به من الاتزان والتحفظ ، ضرباً خاصّاً ملائماً للابسها . بل لقد ظهرت بمظهر فاخر حقّاً حين صفّفت شعرها الاشقر وعقصته فوق رأسها ونحت بعقد لطيف من الذهب صياغتهُ في غاية الرقة كما كشف جيدها النحيف ووجهها البهيج عما بها من سحر وجمال

وفي احدى هذه الحفلات تمتم بيير قائلاً : « انهُ من المؤسف حقّاً عدم حضورنا الحفلات فلابس السهرة تناسبك جدّاً ولكن يعوزنا الوقت »

وتوصل بيير أخيراً في ٣ يوليو سنة ١٩٠٥ الى الانضمام الى الاكاديمية ولكن مع ذلك نال منافسه اثنين وعشرين صوتاً . وفي السنة نفسها أيضاً عينهُ السوربون في منصب أستاذ للطبيعة . فتحققت جميع آماله ما عدا الحصول على معمل وافر الاستعداد لبحوثه وبحوث زوجه

بقيت أمام ماري ثماني سنوات كاملة قبل تمكنها من وضع أجهزة النشاط الاشعاعي في معمل لائق بها ، ذلك المعمل الذي لم يسعد الحظ بيير برؤيته . فبقيت طول عمرها منغصة العيش متألمة ، لان زوجها حرم من تحقيق الامنية المفضلة على جميع أمانيه

في ١٤ ابريل من سنة ١٩٠٦ كتب بيير يقول : « اننا نعمل معاً أنا ومدام كوري لتثبيت بالضبط مقدار الاشعاع الذي يطلقهُ . قد يبدو هذا أمراً هيناً ولكننا قضينا الشهور في بحوثنا والآن فقط بدأنا نصل الى نتائج حاسمة »

« انه نعمل معاً انا ومدام كوري . . .

تلك الكلمات التي خطها بيير قبل موته بخمسة ايام فقط تعبر احسن تعبير عن ماهية اتحاد جميل قوي ، ما كانت لتنال منهُ الحوادث اي منال . فكل تقدم في العمل ، سواء أفوزاً كان ام اخفاقاً ، كان مدعاة لتعزيز تلك الرابطة القوية بين الزوجين وزيادتها متانة وقوة ، فبين هذين اللذين أحب أحدهما بالآخر اعجاباً كبيراً نشأت زمالة قوية كانت اسمى تعبير عن حبهما العميق

(١) مؤلفة هذه السيرة

رمبرة

حوالي منتصف الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الخميس ١٩ ابريل سنة ١٩٠٦، في يوم قاتم ممطر، ودع بيير زملاءه اساتذة كلية العلوم بعد ان تغدّى معهم وخرج الى شارع دوفن وحاول عبوره دون ان يلتفت الى عربة نقل قادمة. فلما رآها وقف مذهولاً وحاول الامساك بصدر الجواد الذي يقودها، فتراجع الجواد الى الوراء. الاّ ان بيير تُرحلق على الارض المبتلة ومرت عليه تلك العربة الضخمة المحملة بستة اطنان من البضاعة فسحقت جمجمتهُ، رغم محاولة السائق ان يوقفها. فرقم رجال البوليس ذلك الجسم الدافئ الذي فارقتهُ الحياة في اسرع من لمح البرق

الآن الساعة السادسة مساء، وماري، ملأى بالبهجة والحياة، واقفة بباب المنزل تستقبل بعض ضيوف واقدين ولكنها لاحظت في نظرتهم وسلوكهم عطفاً خاصًّا. فوقفت ماري جامدة، عديمة الحركة، بعد ان رووا عليها وقائع الحادث وبعد صمت طويل فاهت بهذه الكلمات:

« أحقًّا ان بيير قد مات؟ مات؟ مات حقًّا!! ». ومنذ اللحظة التي سجل فيها عقلها تلك الكلمات الثلاث « بيير قد مات » غدت ماري امرأة حزينة، وحيدة، لا تعزى

وبكلمات قليلة طلبت نقل جثة بيير الى المنزل. ثم طلبت الى احدى صديقاتها ان تأخذ ايرين وايف الى بيتها، وبعثت رسالة برقية الى والدها بوارسو. وبعد ذلك خرجت الى الحديقة وجلست صامتة، ساكنة، محدقة في غير وعي، ممسكة برأسها بين يديها تنتظر وصول زميلها

أدخلت النقالة ببطء من الباب الضيق الى غرفة بالدور الارضي بالمنزل، فبقيت ماري بعض الوقت وحدها مع زوجها وهي تقبله، وما زال جسمه ساخناً، بقيت هكذا الى ان اخرجت بالقوة من الغرفة حتى لا تشاهد الجثة عند وضعها في الاكفان. اطاعت دون التفات ولكن سرعان ما تنبهت انها بخروجها من الغرفة قد حرمت من تلك الدقائق القليلة الباقية فهرولت الى الداخل الى جانب جثة زوجها. وبعد موت بيير عرضت الحكومة رسميًّا على زوجه ان تمنحها هي وطفلتيها معاشاً فأبت ماري بحيية بشجاعتها المعتادة: « لست بحاجة الى معاش. فاني صغيرة السن ويمكنني العمل لكسب عيشي انا وطفلتي »

وفي ١٣ مايو سنة ١٩٠٦ قرر مجلس كلية العلوم بالسوربون باجماع الاصوات اسناد منصب في التعليم العالي بفرنسا الى امرأة. وبعد ان اصغت ماري بدون اهتمام الى كلام حميها في ان الواجب عليها يقضي بقبول هذا المنصب لتم رسالتها اجابت بهذه العبارة القصيرة: « سأحاول ذلك »

حل ميعاد محاضرتها الاولى بالسوربون فملأت الجماهير بهو المحاضرات وازدحمت بالدهليز واشتدت الاعناق في انتظار مدام كوري وبدأ القوم يتساءلون: ما تكون اولى كلماتها يا ترى؟ هل تبدأ بشكر وزير المعارف او الجامعة، او تذكر شيئاً عن بيير كوري؟ لا بد ان تذكر شيئاً

عنه فقد جرت العادة ان يبدأ الاستاذ الجديد محاضرته الاولى باطناب سلفه . . . وفي منتصف الساعة الثانية فتح الباب الخلفي وتقدمت ماري كوري الى المنصة في عاصفة من التصفيق . أحنت رأسها لتحيي الجمهور، ولكن حركتها كانت جامدة بعض الشيء. ثم بقيت واقفة حتى هدأت العاصفة

وهنا تطلعت ماري الى الامام وقالت : « منذ فكر المرء في التقدم الذي توصل اليه علم الطبيعة في العشر السنوات الاخيرة ، أخذتهُ الدهشة في مبلغ ما طرأ على أفكارنا من التغيير بشأن الكهربائية والمادة.... ». وهكذا واصلت مدام كوري، بهذه العبارة ، الكلام في نفس الموضوع الذي عالجهُ بيير كوري قبل مصرعه ، فاغرورقت عيون الحاضرين وسالت الدموع على وجوههم. وبعد ان انهت من محاضرتها خرجت بدون توقف بنفس السرعة التي دخلت بها والجمهور يهتف لها

انتصارات وتجارب

ذاع صيت مدام كوري ومنحت كثيراً من الدبلومات ودرجات الشرف من الاكاديميات الاجنبية . ومع ان أكاديمية العلوم أبت ان تشرفها بعضويتها — اذ أخفقت بالانتخاب بصوت واحد — الا ان السويد كافأتها بجائزة نوبل لعلم الكيمياء في سنة ١٩١١ ، وهذه هي المرة الوحيدة التي منحت جائزة نوبل مرتين لاي رجل او امرأة في العالم

بعد ذلك اشترك السوربون ومعهد باستير في انشاء معهد للراديوم ، يضم قسمين أحدهما معمل لابحاث النشاط الاشعاعي تحت ادارة مدام كوري ، والآخر معمل للابحاث البيولوجية ودراسة معالجة السرطان تحت ادارة طبيب مشهور . ورغماً عن معارضة آل ماري ، تبرعت الاخيرة للمعمل بجرام الراديوم الذي جهزتهُ هي وبيير بيديهما وكان يساوي أكثر من مليون فرنك ذهب . وقد بقي هذا المعمل محور حياتها الى النهاية

وفي أثناء الحرب خدمت ماري وطنها الثاني بكل تضحية واخلاص فاذ وجدت ان المستشفيات تعوزها الاشعة السينية التي يمكن بواسطتها معرفة موضع الرصاص بالمصابين ، قررت في الحال مهمتها ألا وهي اعداد مراكز خاصة بالتكشف بالاشعة السينية فجمعت أجهزة الاشعة التي تمكنت من الحصول عليها في المصانع ومعامل الجامعات ووزعتها على المستشفيات القريبة من باريس . كما جندت عدداً كبيراً من المتطوعين من الاساتذة والمهندسين والاطباء لكي يديروا تلك الآلات

والى جانب ذلك أعدت ماري سيارة خاصة بتفتيش المصابين من الخطوط الامامية في الحرب الى المستشفيات وكانت تلك السيارة معدة بجهاز الرنتجن وبديناموه الوحيدة المستعملة اثناء واقعة الفرن

جاهدت ماري طويلاً حتى تمكنت من الحصول على عشرين سيارة لهذا الغرض جهزتها كما بينا، فدعيت تلك السيارات « بالكوريات الصغيرة » . ولم تتأخر عن قيادة احداها بنفسها رغماً عما عانتهُ في سبيل ذلك من التعب

أضافت مفخرة اخرى الى تاريخ جهادها وذلك بان تمكنت من اعداد ماتي عرفة بأجهزة الراديوم، حتى بلغ عدد المصابين الذين عولجوا فيها ما يزيد عن المليون . امام كل ذلك لا تفتأ ماري من المتاعب والصعاب لم تظهر ادنى تململ أو كلل بل لم تعن بتأثير الاشعة السينية فيها او بتعرضها لخطر النيران حولها . ومما هو جدير بالذكر انها لم تتل ازاء جميع خدماتها لفرنسا في اثناء الحرب اي تقدير رسمي ، ولكنها شعرت في الوقت نفسه انها قامت بالواجب على اكمل وجه

أميركا

في سنة ١٩٢٠ اكتتبت نساء اميركا بمبلغ مائة الف دولار لشراء جرام من الراديوم لاهدائه الى ماري كوري وطلبن منها مقابل ذلك زيارتهن فترددت ماري اولاً في اجابة طلبهن ولكنها ازاء كرمهن لم تجد بدًّا من التغلب على حيائها وانزوائها والتعرض لاول مرة في حياتها ، وذلك في سن الرابعة والخمسين ، لما تفرضهُ عليها رحلة رسمية عظيمة كتلك الرحلة

وهناك على ميناء نيويورك انتظرتها الجماهير الغفيرة مدة خمس ساعات كاملة فصبرت لها بذلك عن مبلغ اجلالها لها بل كان اخلاصها لها أقرب ما يكون الى شعور ديني عميق منهُ الى أي شيء آخر . والآن وقد وجدت ماري في وسط تلك الجماهير زاد الاميركيون تهانيا وتقديراً

لن أحاول في هذا المقام ان أعرّف روح أمة ، ولكني أقرر ان الحماسة المتناهية التي قابل بها الاميركيون ماري كوري لها مغزاها العميق . فان الشعوب اللاتينية مع اعترافها بعبقرية الاميركيين ونبوغهم تدّعي لنفسها الانفراد بتبجيل المثل العليا ولكنهُ ثبت الآن ان الاميركيين ما ساروا في احتفائهم بماري هذا الاحتفاء العظيم الاّ وراء تلك المثل العليا التي يجلونها . فمن المعقول ان تثير سيدة كهذه بشخصيتها وبكشفاتها شيئاً من حب الاستطلاع والتعجب ولكن ليس هذا كافياً لوصف ما أظهره الاميركيون من العطف والحب . فانهم ما كانوا حينئذٍ إلاّ مختفين بالنبل في الحياة ، النبل المتمثل في احتقار الارباح المادية ، والتفاني في حب الحياة الفكرية الخالصة ، والرغبة للتحية في خدمة البشر . كانت الجامعات الاميركية جميعها قد دعت مدام كوري لزيارتها وأعدت لها الميداليات والدرجات العلمية ولكن مدام كوري وقفت مذهولة حيثما أحاطها القوم بالاعجاب والتبجيل وشعرت بالخجل والحياء كلما تطلعت اليها الجماهير المتشوقة لرؤيتها ، بل ان خوفاً غريباً استولى عليها ألا وهو الخوف من ان تقع تحت أرجل الجماهير . وأخيراً ضعفت صحة ماري فلم تتمكن من اتمام رحلتها واضطرت الى الرجوع الى فرنسا نزولاً على ارادة أطبائها ، رجعت ماري منهوكة ولكنها مسرورة راضية لان جهادها وتواضعها ما كانا ليحجبا عنها الحقيقة وهي أنها قد أدخلت السرور على قلوب ملايين من الاميركيين

وإني اعتقد ان رحلة والدتي الى أميركا قد علمتها ان حياة العزلة التي تحياها تتناقض ومقامها

العالي . فمع ان مدام كوري الباحثة قد تمكنت قبلاً من العزلة عن العالم الاَّ ان مدام كوري في سن الخمسين لم تكن باحثة وعالمة فحسب بل ان مقامها الاجتماعي هيأ لها النجاح في رسالتها الى العالم فكان لا بدَّ لها ان تحمل تلك الرسالة

كانت الرحلات التي قامت بها ماري مشابهة لسابقتها اذ شملت حضور المؤتمرات العلمية والمحاضرات والاحتفالات الجامعية وزيارة المعامل فكانت حيثما حلت موضع التكريم والتبجيل

وفي ذلك الوقت جمعت وارسو مبلغاً من المال عن طريق الاكتتاب العام وأنشأت به معهداً للراديوم أسمتهُ « معهد ماري سكلودفسكا كوري » كما قامت النساء الاميركيات بالاعجوبة الثانية وهي تبرعهن بجرام آخر من الراديوم لمدام كوري . فأعاد التاريخ نفسه مرة اخرى اذ زارت ماري نيويورك في ١٩٢٩ ، كما زارتها في سنة ١٩٢١ ، لتكرر النساء الاميركيات ولكن زيارتها كانت باسم بولندا هذه المرة . فحلت ضيفة على الرئيس هوفر في البيت الابيض

ومما يسترعي الانتباه ان مدام كوري لم تتغير عما قبلاً فلم تتغلب على خوفها من الجماهير المحتشدة كما ان الشهرة لم تؤثر في اخلاقها . ويخيل إليَّ انها لم تتمكن من الوصول الى اي « اتفاق ودي » مع الصيت بل كان حليفها الاول والاخير هو المعمل حتى كتبت مرة تقول « اني أشك في لو كنت أتمكن من الحياة بدون المعمل » ولفهم هذه العبارة يتعين علينا فهم مدام كوري وتعرف نفسيتها فلقد كان يغمرها السرور والغبطة متى نجحت في اية تجربة تقوم بها حين كانت تنقض عليها صواعق الهم اذا ما أخفقت فيها

غائمة الرسالة

استمرت ماري في عملها الى النهاية بنشاط قلَّ وُجدانهُ فريد أيضاً لراحتها وصحتها . فلم تحترس البتة من خطر الراديوم فتناولتهُ واشتغلت به دون ان تتبع الاحتياطات التي بهت طريقها اليها وبعد جهد جهيد أذعنت لان تتحن دمها في معهد الراديوم . فأظهر الكشف مادة غريبة به . وما هي ؟ ... لقد قضت مدام كوري خمساً وثلاثين سنة وهي تعمل بالراديوم وتتنفس هواءه المشبع به كما تعرضت اثناء سني الحرب الاربع لاشعاع اخطر من الاول وهو اشعاع جهاز رنتجن ولكنها لم تحسب ما اصابها من ألم او حروق الاَّ شيئاً يسيراً في مقابل الاخطار التي تعرضت لها

لم تمر ماري اصابتها بالحمى أخيراً التفاتاً كبيراً ولكن في مايو سنة ١٩٣٤ لازمت الفراش لاصابتها بنزلة صدرية حادة . ولما توقف قلبها القوي أخيراً عن النبض أصدر العلم حكمه وهو ان ما أظهره دمها من العوارض الغريبة يرجع الى الراديوم، المجرم الحقيقي . وفي يوم الجمعة في السادس من شهر يوليو سنة ١٩٣٤ أودعت ماري مقرها الاخير بدون أي احتفال رسمي — تلبية لوصيتها — فدفنت بجانب زوجها پير في مدفن « سو » بحضور أقاربها واصدقائها وزملائها

ايران

مفاخر فنونها

للدكتور زكي محمد حسن

أمين دار الآثار العربية والمدرس بمعهد الآثار الاسلامية

نهضتها الحديثة

في الفن الايراني

الدكتور زكي حسن
أمين دار الآثار العربية والمدرس بمعهد الآثار الاسلامية

توطئة

لسنا نقصد ان نعرض في هذه السطور للفن الايراني بالدرس او الشرح المفصل ، ولكننا في هذه المناسبة السعيدة — التي تجمع بين الامتين اللتين كانت لهما الزعامة في ميدان الفنون الاسلامية — لا يسعنا الا ان نذكر تراث الايرانيين في هذه الفنون ، وان نبين ما كان لطبيعتهم ولاستعدادهم الفطري من اثر في تكييف الفنون الاسلامية ، والسير بها الى العظمة التي بلغتها بين القرنين الثاني عشر والسابع عشر بعد الميلاد

ولا غرو فقد كان لايران منذ العصور القديمة فن ازدهر في عصر الكيانيين ثم الساسانيين من بعدهم . كما ان الاسكندر المقدوني حين اراد ان ينشيء حاضرة تجمع بين الشرق والغرب اتجه بنظره الى ايران ليجعلها مركز هذه الحاضرة ، ولكن المنية عاجلته ، فلم يفز بتحقيق مطامعه . على انه نجح الى حد كبير في نشر الثقافة الاغريقية في الشرق الادنى . وكانت ايران وافغانستان ، فترة من الزمن ، ميداناً التقت فيه الاساليب الفنية الايرانية القديمة بالاساليب الفنية الاغريقية . وكان لهذه الفترة أثر ملموس في العلاقة بين الاساليب الفنية الايرانية والبيزنطية بعد ذلك ، بل ان أثرها كان ملموساً في مصر نفسها ، حين كانت تتبع رومة وبيزنطة في العصر الاغريقي الروماني ثم في العصر القبطي ، فكانت بيزنطة تنقل عن ايران الموضوعات الزخرفية ثم تهضمها وتستخدمها في منتجاتها الفنية التي تبعث بها الى الاقاليم التابعة لها على شواطىء البحر الابيض ، فتنقل هذه الاقاليم تلك الموضوعات الزخرفية ، كما يتجلى ذلك في زخارف كثير من قطع المنسوجات التي اكتشفت في صعيد مصر ، وكما يبدو في الرسوم المحفورة على بعض احجار العصر القبطي

ومما يستوقف النظر في تاريخ ايران ان سكانها كان لهم في جميع العصور ولعٌ شديد باتقان منتجاتهم الصناعية، وذوق لطيف في اعداد مساكنهم وحدائقهم وحاجياتهم، ومهارة فائقة في الفنون الجميلة . ولم تكن تمنعهم حروبهم الطويلة مع الروم في العصر الساساني من العناية بالفنون الجميلة فكانوا يشيدون العائر وينتجون التحف الخزفية والمعدنية التي تشهد لهم بعلوّ الكعب كما كانوا يخلدون انتصاراتهم على الروم بنقوش محفورة في الصخور كنقش رستم وطاق بستان وغيرهما . وقد كانت هذه النقوش آية في قوّة التعبير عن انتصار الايرانيين وانكسار الروم وذلهم .

ولما امتدّ الاسلام الى ايران لم يلبث هذا القطر العظيم ان نزع العالم الاسلامي في العلم والفنون كما نزعته مصر في الاحداث السياسية . ويمكننا ان نقول في ثقة واطمئنان ان الطراز الايراني في الفنون الاسلامية ولا سيما في الفنون الفرعية منها ، هو أبدع الطرز الاسلامية على الاطلاق . فهو أكثرها تنوعاً ، وأعظمها في حسن الذوق ، ودقة الزخرفة ، وتناسق اللون وجمال النسب . حقًّا ان العائر الاسلامية التي تزدان بها القاهرة من عصور الطولونيين والفاطميين والمماليك ثم عمائر الاندلس وعمائر مراكش ولاسيما في عصر بني مرين ، كل هذه قد تفوق العائر الايرانية دقةً وجمالاً ، ولكننا لا نظن انها تمتاز عنها في الجلال والابهة . بينما منتجات الفنون الفرعية الايرانية من خزف وسجاد وصور ومنسوجات وغير ذلك هي التي لا يتسامى اليها الا النادر من منتجات الامم الاسلامية الاخرى في هذا الميدان

التصوير

فالتصوير الاسلامي مثلاً لا تكاد الزعامة تنعقد فيه لغير الايرانيين ، بل انهم أساتذة الهنود والترك في هذا الميدان . وقد قامت في مراكش حركة حديثة على رأسها المصور محمد واسم ومثلها الأعلى هو الرجوع في التصوير الى الاساليب الفارسية

وقد أثبت علماء الآثار الاسلامية في العصر الحديث ان ازدهار التصوير الاسلامي في ايران دون غيرها من الاقطار الاسلامية ، ثم انتشاره منها الى تلك الاقطار على يد فنانين ايرانيين أو على يد تلامذة لفنانين من ايران ، كل هذا راجع الى طبيعة الايرانيين أنفسهم ، والى التقاليد الفنية التي كانت لهم قبل الاسلام ، والى المهارة التي اكتسبوها في هذا الميدان فجعلتهم يتسامحون في شأن النحت والتصوير ولا يتأثر الفنانون منهم بكره هذين الفنين في الاسلام ، ذلك الكره الذي ثبت في الامم الاسلامية السامية الاصل ، والذي كان سبباً في انصراف المسلمين عن تصوير المخلوقات الحية واقبالهم على الزخارف الهندسية والنباتية

ومهما يكن من شيء فقد ارتقت صناعة التصوير في إيران وكان ميدانها في أول الامر توضيح

كتب التاريخ والقصص ودواوين الشعر بالصور الصغيرة ذات الالوان الزاهية الجميلة ، شرحاً لمحتوياتها ، او زينة لها . وقد امتازت الصور التلاثة الكبرى في تاريخ ايران بثلاث مدارس كبرى في التصوير فاشتهر الطراز او المدرسة المغولية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، واشتهرت المدرسة التيمورية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، واشتهرت المدرسة الصفوية في القرنين السادس عشر والسابع عشر . واما بعد منتصف القرن السادس عشر فقد تأثر المصورون الايرانيون ببعض الاساليب الشتى الغربية في التصوير ولا سيما بعد ان أرسل الشاه عباس الثاني (١٦٤٢— ١٦٦٦) بعض البعثات العلمية لتلقي العلم والفن في ايطاليا وبعض البلدان الاوربية الاخرى

وتمتاز الصور الايرانية الاسلامية بألوانها الجميلة الذي يتغلب فيها الازرق والذهبي والاخضر والبنفسجي والاحمر ، كما تتميز ببعض اساليب اصطلاحية اتبعها المصورون كاهمال الظل وكرسم الاشخاص في أوضاع معينة بغير الاهتمام بقوانين المنظور او بصدق تقليد الطبيعة . وليس في ذلك ما يؤخذ على الصور الفارسية ، لانهُ جزء من طبيعتها ، ولانها حين تقلد الصور الغربية تفقد ذاتيتها ويزول عنها جمالها وسحرها . فضلاً عن ان الفنانين المصريين القدماء والبكدانيين والاشوريين والفنود كانت لهم في ميادين الفن المختلفة أساليب اصطلاحية تميز فنونهم الوطنية . ويعرف المتصلون بالحركات الفنية في العصور الحديثة ان كثيرين من رجال الفن يعملون على التحرر من تقاليد الفن الاغريقي في صدق تمثيل الطبيعة ، ويريدون ان ينسجوا على منوال غيره من الفنون في عدم التقيد بالطبيعة . ولا ريب في ان كثيرين من المصورين الغربيين في العصر الحديث يرجعون الى الشرق ولا سيما ايران — فيستلهمونهُ كثيراً من الموضوعات الزخرفية ويستمدون منهُ بعض الاساليب الفنية

وعلى كل حال فان أعاظم المصورين في الاسلام كانوا من الايرانيين او من المتأثرين في الهند وتركيا — وحسبنا ان نشير هنا الى بهزاد وسلطان محمد وقاسم علي وميرك ومحمدي ومعين مصور وجمال قاش اصفهاني ورضا عباسي وغيرهم ممن تحدثنا عنهم في كتابنا عن التصوير في الاسلام عند الفرس او ممن نرجو ان نعرض لهم في بحث قريب . وكانت منتجات هؤلاء الفنانين مختلفة النواحي ، ففي بعضها مناظر صيد او قتال عجيبة باسلوبها الفني وبما فيها من روح وحركة ، على ان بعضها صور افراد مشهورين تظهر فيها دقة لم يكن يستطيع الوصول اليها في ذلك الوقت الا مهرة المصورين في الشرق الاقصى . وفي كثير من الصور الايرانية دعابة وجون وطرب غير ما نراه في تصوير حوادث الشاهنامة من قتال ومناظر شجاعة واقدام

وقد قام التصوير الاسلامي في الهند وفي تركيا على اكتاف الايرانيين في بادىء الامر ولكنهُ اتخذ في الهند طريقاً آخر متأثراً بالاساليب الفنية الوطنية في الهند نفسها ، حتى اصبح

البون شاسعاً يفطن اليه كل من له المام بسيط بالفنون الاسلامية . وقد ذاع صيت المصورين الايرانيين حتى كان السلاطين من العثمانيين ومن الهنود المغول يستدعونهم للعمل في بلاطهم وكان صغار المصورين في ايران والهند يكتبون على منتجاتهم اسماء مشهوري المصورين ، وذلك طمعاً في بيعها بأغلى الاثمان ، حتى ان بعض مصوري الهند نسبوا منتجاتهم الى بهزاد كبير مصوري الفرس على الاطلاق اوالى مانى زعيم المانوية ، وقد عاش في القرن الثالث الميلادي واشتهر واتباعه بالمهارة في التصوير وباستخدام الصور في شرح عقائدهم الدينية وقد تسمى باسمه مصور صغير في بلاط الشاه عباس . وفي دار الكتب المصرية وفي المكتبة الاهلية بباريس مجموعتان من الصور الهندية في اولاهما صور منسوبة الى بهزاد وماني وفي الثانية صور منسوبة الى بهزاد ولكن امثال هذه النسبة المفرضة سهل كشفه لمن لهم قسط بسيط من الدراية بتاريخ الفنون

السجاد

على ان اكثر منتجات الفن الايراني انتشاراً في العالم انما هو السجاد . والظاهر ان شهرة ايران في هذا الميدان ترجع الى العصور القديمة فقد كانت تصدر السجاد الى الاغريق ثم الى البيزنطيين والعربيين في العصور الوسطى . ولعل السبب في ازدهار هذه الصناعة في ايران هو تشجيع الملوك والامراء ورجالات الدولة واتفاقهم الاموال الطائلة في انتاج احسن الفرش والابسطة وأفخرها مادة وحسن صناعة على يد كثيرين من العمال ، يشتغلون الشهور الطويلة في صنع سجاجيد تخرج آية في الفن ، لا يدري المرء بأي شيء يعجب فيها أبعظمة الالوان والسجاها ، ام بجمال الزخارف ودقتها ام بمتانة الصناعة واتقانها . بل ان الملوك والامراء كثيراً ما كانوا يطلبون الى مشهوري المصورين والرسامين ان يقوموا باعداد الرسوم التي تزين بها السجاجيد الفاخرة . وفي الحق ان المصورين كان لهم في البلاط وفي الحياة الاجتماعية الايرانية نفوذ كبير بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر، فلم يكونوا يقومون بتصوير المخطوطات فحسب بل كانوا يشرفون على شتى انواع الزخرفة : في العمائر ، وعلى المنتجات الخزفية ، والمنسوجات والسجاد واكبر الظن ان أهم من اشتغل من المصورين بعمل زخارف السجاد هم بهزاد وسلطان محمد وسيد علي . وقد وصل الينا أسماء بعض من قاموا على نسج السجاجيد المشهورة ومن أهمهم غياث الدين جامي ومقصود النقاش في النصف الاول من القرن الخامس عشر ومحمد أمين الكرماني ولمعت الله حيوشفاني . واسماؤهم موجودة على سجاجيد محفوظة الآن في متحف ميلان ومتحف فكتوريا والبرت بلندن وفي ضريح الشاه عباس الثاني بمدينة قم

أما اهم المدن التي اشتهرت بصناعة السجاد في إيران فهي اصفهان وكرمان وقاشان وقم وتبريز وكرباغ وهمدان وشستر وهراة (في افغانستان) وطوس ويزد

صورة: ضرب بعض "لقطة" من رسم المصور الإيراني محمد قاسم في بداية القرن السابع عشر

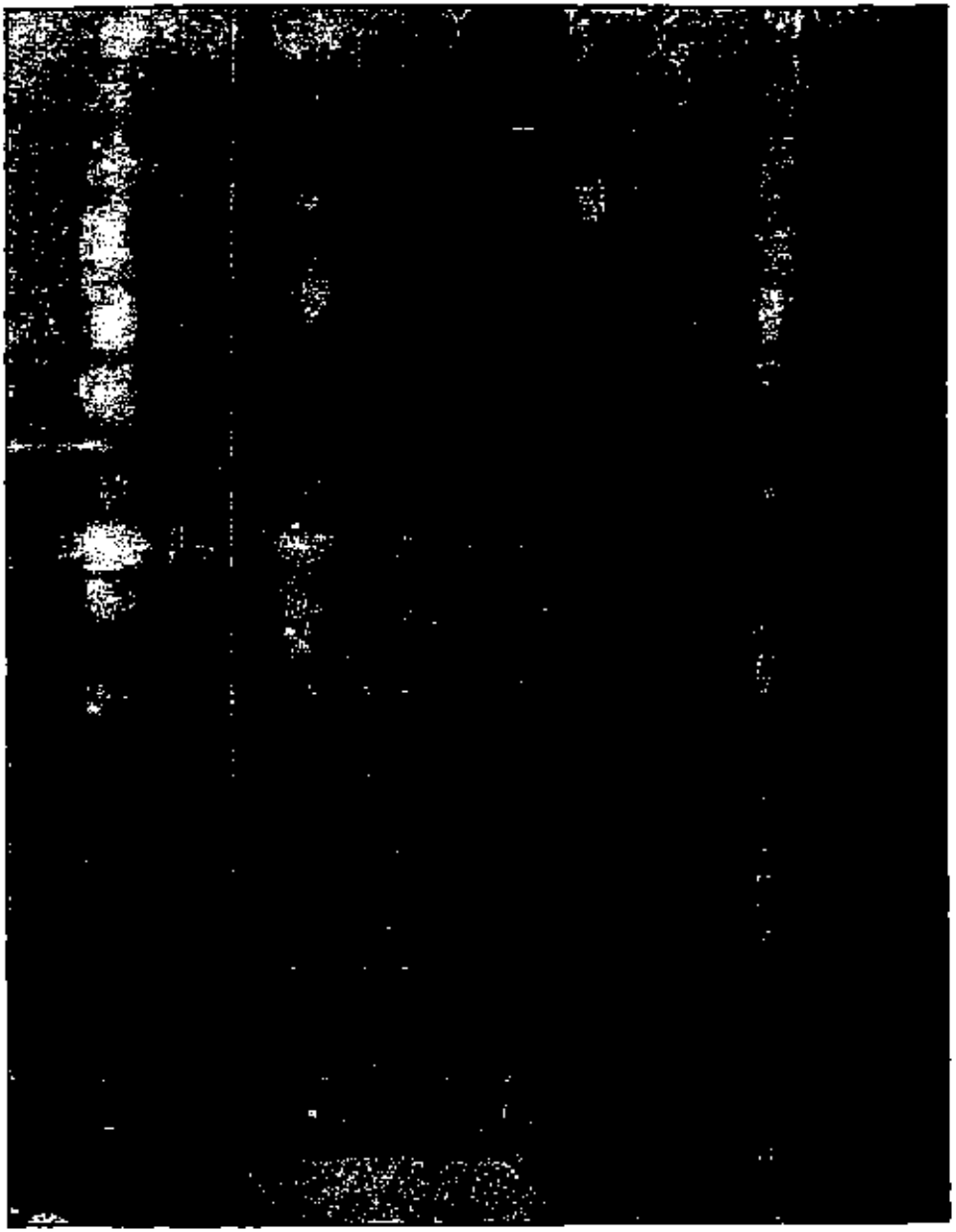

نموذج من الخط الفارسي والصحائف المذهبة في المخطوطات الإيرانية

ويرجع جمال السجاد الايراني وشهرته الى ابداع ألوانه وتناسقها وحسن توزيعها ، والى مقدرة الصناعة والعناية بالصوف (حتى لقد كانت الغنم تربى خصيصاً ويعنى بنظافة صوفها لينسج منهُ السجاد) ، كما ان الحرير وخيوط الذهب والفضة كانت تدخل في صناعة السجاجيد المشهورة . ولا ننسى ان حجم السجادة كان يظهر ابداع الزخارف فيها ويساعد المصور او الرسام على اظهار مهارته

والسجاد الايراني على أنواع مختلفة ، ولكن أكثره يمثل غرام الايرانيين بالحدائق ، حتى نرى ان أهم انواعه يشبه الحديقة بما فيه من أزهار ونباتات . وقد كانت هناك أبسطة وسجاجيد تمثل زخارفها مناظر الصيد ، او القتال بين الحيوانات المختلفة ، غير ان ذلك كلهُ كان على أرضية مملوءة بالازهار والنباتات ، ولكنها ازهار ونباتات لم تكن دائماً تقليداً صادقاً للطبيعة ، بل كانت كاغلب عناصر الزخرفة النباتية في الفنون الاسلامية — مهذبة بعض الشيء . فالمعروف ان المسلمين لم يصوروا النبات او الانسان او الحيوان تصويراً صادقاً ، بل كانوا يتخذونها موضوعات زخرفية ، يكيفونها كيف شاءوا مراعين فيها التناظر والبساطة والانسجام ومن ثم فقد كان ينقصها في بعض الاحيان شيء من الجمود . ولعل الايرانيين هم اقل الامم الاسلامية اندفاعاً في هذا التيار ، فامتاز الطراز الايراني في الفنون الاسلامية بالزخارف النباتية ولاسيما الازهار وبالاسراف في رسوم الانسان والحيوان والطيور على المنتجات الفنية المختلفة ، وعني الايرانيون اكثر من سائر الامم الاسلامية بصدق تمثيل الطبيعة حتى الآن فيما كانت لهم فيه اصطلاحات واساليب موضوعة . وقد كان اتصالهم بفنون الشرق الاقصى منذ العصر المغولي دافعاً لهم على الدقة في رسم النباتات والازهار

ولا يجب ان ننسى ان صناعة السجاد في ايران لم تكن زاهرة بايران في العصر الصفوي فحسب ، بل اننا نجده في كتب التاريخ من وصف بساط كسرى الذي غنمهُ العرب في المدائن لا كاسيما غير براعة الايرانيين في هذه الصناعة الجميلة منذ العصور القديمة . ومن المحتمل ان يكون اهل الحيرة قد نقلوا عنهم اسرار هذه الصناعة ، فالمعروف انه سجاجيد ذات زخارف حيوانية كانت تصنع في الحيرة قبيل الاسلام

وقد اختلف رجال الفنون في تقسيم السجاجيد الايرانية فبعضهم يقسمها باعتبار زخارفها الى سجاجيد ذات زخارف شجرية ، واخرى ذات زخارف تمثل مناظر الصيد والحرائق ، وثالثة ذات زخارف من آنية ومشكاوات وازهار بينما يجتهد باحثون آخرون في تقسيمها تبعاً للبلاد الايرانية المصنوعة فيها ، ولكن الوصول الى هذا التقسيم الاخير ليس سهلاً ميسوراً ، لان المعلومات الصحيحة بهذا الشأن نادرة جداً ، فضلاً عن ان المصانع في البلاد الايرانية المختلفة كانت تقلد أي طراز ينال رواجاً كبيراً ولو كان موطنه في بلد آخر

وقصارى القول انه من الممكن تقسيم السجاجيد الايرانية الى انواع مختلفة بحسب زخارفها كما يمكن نسبة بعض هذه الانواع الى مصانع بعض المدن الايرانية المعروفة ، ولكن بعض المدن الاخرى لا يمكن ان تنسب اليها انواع بالذات ، كما ان بعض الانواع لا نستطيع نسبتها الى اي مدينة بالذات

المنسوجات

اما المنسوجات الايرانية فقد ذاعت شهرتها منذ عصر هيرودوتوس . وكان اهل روما يدفعون فيها الاثمان الباهظة ، ثم أقبل اهل بزنطة على تقليدها . وبلغت صناعة النسج أوج عزها في العصر الساساني . وقد وصلت الينا بعض قطع من المنسوجات الحريرية الساسانية . والزخارف مكونة في اكثر هذه القطع من مجموعات دوائر او اشكال هندسية اخرى ، فيها رسوم حيوانات او طيور او فرسان في الصيد ، متقابلة او متدابرة ، في ترتيب هندسي جميل ، كما ان بين الحيوانات المتقابلة رسماً تخطيطيًّا مهذباً يمثل شجرة . والمعروف ان الصينيين كانوا يعجبون بهذه المنسوجات الحريرية الساسانية ، وان حكام الاقاليم الصينية الواقعة بين الصين وايران كانوا يقدمون من هذه المنسوجات جزية الى ملوك الصين . والحق ان الايرانيين في ذلك العصر البعيد وفقوا في الوان منسوجاتهم جد التوفيق فكان انسجام هذه الالوان وهدوءها يبرزان عظمة الزخارف ويكسبان القطعة سحراً وجمالاً

ولما انتشر الاسلام في ايران ، وانقضى دور الزهد والتقشف الذي ساد العالم الاسلامي في اثنائه ، واختلط العرب بغيرهم من الامم العريقة في المدنية تقدمت الصناعات والفنون . ولقيت صناعة النسج تشجيعاً خاصًّا في الاقاليم الاسلامية المختلفة ، لما سنهُ الخلفاء والامراء في مكافأة رجالات الدولة بالخلع الثمينة من نفيس المنسوجات الحريرية . على ان القطع الايرانية التي وصلت الينا من صدر الاسلام نادرة جدًّا ، ولعل السر في ذلك هو غزو الفرس الذي قضى على الحرث والنسل . ومهما يكن من شيء فقد ظل الايرانيون نحو ثلاثة قرون في صدر الاسلام يتبعون الاساليب الساسانية في زخارف منسوجاتهم ثم كان القرن العاشر فطغت عليها الاساليب الاسلامية في زخرفة المنسوجات بأشرطة من رسوم الحيوانات او بزخارف خطية ونباتية . وكان الايرانيون فضلاً عن ذلك يستوردون من الشرق الاقصى الاقمشة الحريرية المزينة بالزهور والنباتات الدقيقة ، فكانت مدينة مرو تصدرها الى سائر الاقاليم الايرانية فيعمل الصناع على تقليدها في كثير من الاحيان . ومن أهم المدن الايرانية التي اشتهرت بصناعة النسج في العصر الاسلامي نيشابور وتبريز وسلطانية وهراة ويزد وشيراز وكرمان . ومن أبدع ما كانت تخرجهُ مصانع الايرانية الرايات والاعلام تزينها العبارات بالخط الكوفي الجميل . ثم كان عصر

السلاجقة في القرن الثاني عشر الميلادي عصر نهضة شاملة ورقي عام في صناعة النسج ، فتقدمت أساليب الصناعة ، وعمد النساجون الى الزخارف الساسانية القديمة يستمدون منها موضوعاتهم الزخرفية بعد ان يدخلوا فيها ما يناسب العصر وما يتفق وتأثرهم بدقة الصينيين في رسم النباتات والطيور والحيوانات . وقد عثر المنقبون في قبور مدينة الري على قطع من منسوجات هذا العصر تشهد ببراعة النساجين الايرانيين

وزاد تأثر المصانع الايرانية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر بالاساليب الصينية في زخرفة المنسوجات بسبب ازدياد الوارد من الاقمشة الصينية واتساع تجارة ايران مع الشرق الاقصى وغزوات المغول في ايران

***

أما في نهاية القرن الخامس عشر وفي القرن السادس عشر فقد كانت زخارف المنسوجات متأثرة كل التأثر بصور المخطوطات في ذلك العصر فكثيراً ما نرى عليها صور مجنون ليلى وصور بعض حوادث الشاهنامة او بعض الاساطير المشهورة في التاريخ الايراني وفي مؤلفات الشعراء والادباء الايرانيين . وكان لمدينتي هراة وتبريز قصب السبق في انتاج الديباج الذي زينهُ هذه الزخارف . وهناك بضع قطع من هذا الديباج عليها امضاء صانعها « غياث » وهي محفوظة في ليون وباريس ولندن وفلورنسة

على ان أبدع ما أنتجهُ النساجون الايرانيون هي القطيفة (المخمل) التي امتازت بهدوء ألوانها وبرقتها المتناهية . وأهم المدن التي ذاع صيتها في نسج القطيفة هي قاشان

وزادت ثروة ايران في عصر الشاه عباس وزاد الاقبال على المنسوجات الفاخرة ، فزادت المنتجات زيادة أثرت قليلاً على جودة النوع وجمال الزخرفة ، اللهمَّ الاَّ فيما كان يصنع للبلاط ورجالات الدولة . وكان أهم أنواع الزخارف في ذلك العصر رسوم أشخاص ذوي قدود هيفاء وأوضاع فيها كثير من التكلف وفتيات او فتيان يكاد المرء يحسبهم نساء . ونحو ذلك من طراز المصور رضا عباسي . والواقع ان تأثير هذا المصور وذيوع صور فتياته وفتياته لم يكن في المخطوطات المصورة والمنسوجات فحسب ، بل كان في صور الجدران وفي زخرف القاشاني

ثم عاد الايرانيون الى انواع رسوم الازهار والنباتات فتخذوها لزخرفة عدد كبير من منسوجات القرنين السابع عشر والثامن عشر ووفقوا فيها توفيقاً كبيراً وساعدهم على ذلك تجار البضائع العتيقة الذين كانوا يزورون مدينة أردبيل والحرفيون الصينيون الذين كانوا يزاولون شتى الفنون الايرانية

ولا يتسع المقام هنا لتفصيل بعض الانواع الجديدة من المنسوجات الايرانية في القرنين السابع عشر والثامن عشر فحسبنا ان نشير الى منتجات أصفهان وكرمان وقزوين وشيراز ورشت

الخزف

وثمة ميدان آخر من ميادين الفنون الاسلامية كان للايرانيين فيه قدم السبق ، ذلك هو الخزف . ولا غرو فقد توافرت في ارض ايران عجينة تصلح لصنع الاواني الخزفية ويسهل تشكيلها وتمتاز برقتها وقلة وزنها . وان صح لدى بعض الخبراء ان بلاد الاغريق من ناحية وبلاد الشرق الاقصى من ناحية اخرى قد بلغت في صناعة الخزف درجة من التقدم تفوقت بها على إيران فان بعض الهواة الآخرين يرون في خزف تلك البلاد جمودا ودقة وثقلا لا يرونه في الخزف الايراني

ومهما يكن من شيء فقد امتاز الخزف الايراني في العصر الاسلامي بجمال الاشكال وتناسق النسب ، وبريق الطبقة الزجاجية المغطية ، وابداع الزخرف وتنوعها . وليس هذا بمستغرب فقد كان لايران تقاليد قديمة في هذه الصناعة منذ عصر قبل التاريخ كما يبدو من القطع الخزفية التي كشفت في نهاوند والتي تزينها زخارف هندسية جميلة . ثم كان عصر الكيانيين وصارت الجدران المصنوعة من الآجر تغطى — كما في تصور مدينة السوس — بطبقة من الميناء ، وتنبيء عن الخزف الذي قُدِّر لجدران القاعات الايرانية ان تكسى به في العصر الاسلامي . ثم جاء العصر الساساني الذي ازدهرت فيه صناعة الخزف كما ازدهرت الفنون الاخرى . ولما انتشر الاسلام في ايران ظل الخزفيون يتطورون شيئاً فشيئاً حتى تركوا الاساليب الفنية الساسانية ، وطبعت منتجاتهم بطابع يجمع بين العناصر الزخرفية الاسلامية وبين ما ورثوه من أساليب ايرانية

وأقدم أنواع الخزف الايراني في العصر الاسلامي هو النوع الذي يعرف باسم « جابري » وهو اسم عبدة الشمس في ايران ، ويظن انهُ من صناعتهم قبل ان ينتشر في كل انحائها الدين الاسلامي بعد الفتح العربي بضعة قرون . والزخارف في هذا الضرب من الخزف تتألف في الغالب من رسوم فرسان في الصيد وطيور او حيوانات غير دقيقة الرسم ، ولكنها محفورة حفراً عميقاً في الطبقة البيضاء الرقيقة التي تكسو السطح بحيث يصل هذا الحفر الى العجينة الحمراء المصنوع منها الاناء . وتعلو العجينة الحمراء والطبقة البيضاء التي تغطيها مادة زجاجية شفافة ذات لون أصفر او اخضر او اسمر قاتم

على ان بعض القطع الخزفية من هذا النوع قد وجد عليها كتابات بحروف كوفية تجعل من السهل نسبتها الى القرنين العاشر او الحادي عشر . فمن المحتمل ان يكون خزف «جابري» من منتجات ايران في الاربعة القرون الاولى بعد الاسلام ، ولا شبه في زنجان وساوه والري . ولكن هذه المدينة الاخيرة التي دمرها المغول سنة ١٢٢٠ ميلادية كانت مركزاً عظيماً لصناعة شتى انواع الخزف حتى اننا لننسب اليها نماذج من صناعات خزفية لم توجد الا في اطلالها . ومن

نجمة من الفاشاني ذي البريق المعدني.. وهي من صناعة قيرامين بايران
في سنة ١٢٦٢ ميلادية ومحفوظة الآن بمتحف برلين

صورة صحن من الخزف الايراني المعروف باسم « خزف جاري » ترجع الى
القرن الحادي عشر الميلادي ومحفوظة الآن بدار الآثار العربية

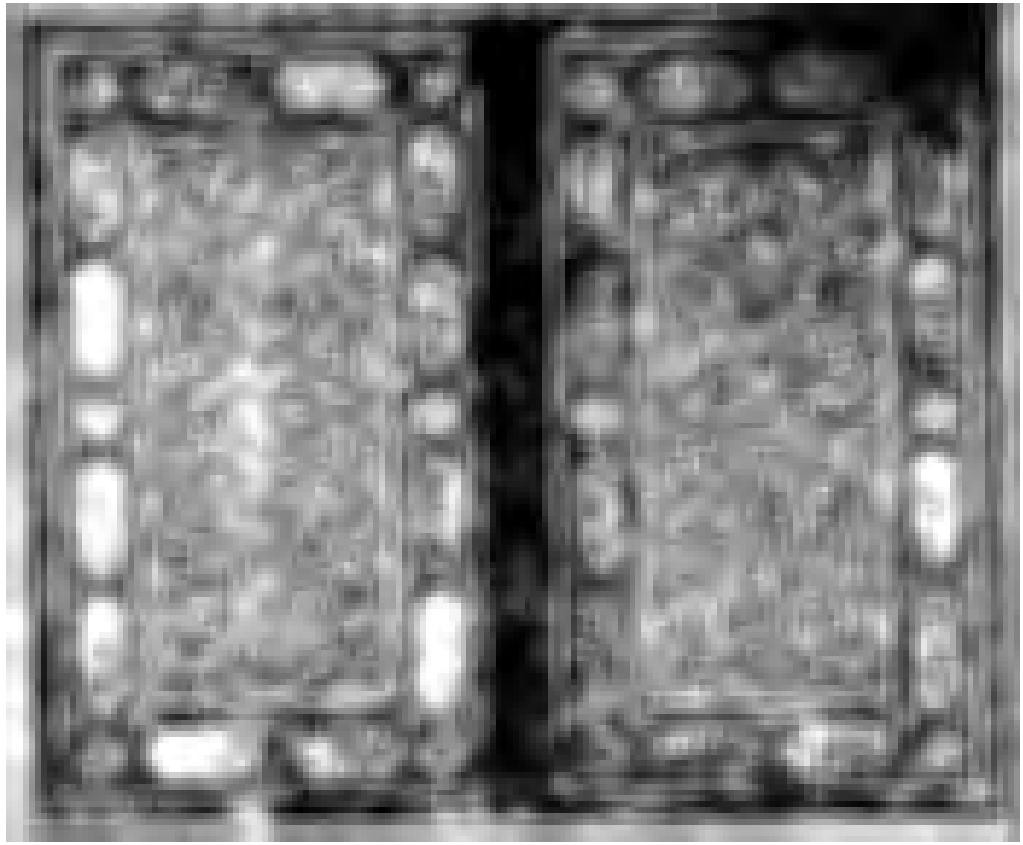

جلد كتاب إيراني من القرن السادس عشر من مقتنيات دار الآثار العربية

هذه النماذج بعض الاواني والاطباق ذات الصور الآدمية والصناعة الدقيقة التي ترجع الى القرنين الحادي عشر والثاني عشر وقد نجد في بعض هذه القطع صور البراق او صور بط واوز وطيور اخرى

ومما زاد الخزف الايراني جمالاً ذلك التجديد الذي وصل اليه المسلمون في هذه الصناعة وهو البريق المعدني lustre ، فكانوا يرسمون الزخارف على سطح لامع ثم يثبتونها بتعريضها للنار بطريق تكسبها بريقاً معدنيًا يختلف لونه بين الاحمر النحاسي والاصفر الضارب الى الخضرة . ويظن بعض علماء الآثار ان هذه الصناعة نشأت في ايران كما يظن آخرون انها بدأت في العراق ويذهب فريق ثالث الى ان مهدها ارض مصر . ولكنها كانت على كل حال خير مخرج للمسلمين من صعوبة الانصراف عن الاواني الذهبية والفضية التي يكرهها رجال الدين لما تدل عليه من ترف واسراف

وكانت هذه الاواني الخزفية ذات البريق المعدني تصنع في كثير من المدن الايرانية ولا سيما في الري وتزينها زخارف متعددة الالوان تمثل بهرام جور وحبيبته في الصيد ، او تمثل السلطان جالساً على عرشه وحوله رجال ونساء من آناثة ، او تمثل فرساناً في الصيد ، وما الى ذلك مما اعتدنا رؤيته على التحف الايرانية الاخرى ومما كان يزيده التذهيب في الخزف روعة وجمالاً

***

على ان صناعة الخزف ذي البريق المعدني استخدمت على يد الايرانيين في صناعة النجوم والتربعات التي كانت تكسى بها الجدران ، والتي اصبحت ظاهرة من الظواهر المعمارية في ايران ثم في تركيا وسورية

وبعد ان دمر المغول مدينة الري اصبحت سلطانباد مركز صناعة الخزف . وصارت تنتج في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ما كانت تنتجهُ الري قبلها ، كما احدثت انواعاً جديدة

ولكن صناعة الخزف لم تكن زاهرة في مدينتي الري وسلطانباد فحسب ، بل ان مدناً اخرى ، كاصفهان وتبريز وهمدان وفيرامين ومشهد ، كانت لها مكانتها في هذا الميدان . كما ان سلطانباد كانت تنتج في القرن الخامس عشر خزفاً طريفاً تغلب على زخارفه الفروع النباتية (الارابسك) ورسوم زهور اللوتس . وثمة نوع ينسب الى قرية كوباتشه بداغستان ولكن يظن انهُ كان يصنع على مقربة من تبريز

التحف المعدنية

اما صناعة التحف المعدنية في ايران فقد تنبها الايرانيون قبل الاسلام . والواقع ان الاواني المعدنية الساسانية عليها سمة من القوة والعظمة ، قلَّ ان توافرت في تحف معدنية اخرى . ويشهد بذلك ما وصل الينا من الصواني والاطباق الذهبية والفضية ذات الزخارف البارزة ، وما يحتفظ به متحف الهرميتاج بالروسيا والقسم الاسلامي بمتاحف برلين من اباريق

برونزية جميلة ، يظن انها ترجع الى القرن السابع او الثامن بعد الميلاد ، ويغلب على زخارفها رسوم الحيوانات والطيور ومناظر الصيد كان بعض التحف والهواة يحتفظون بتحف معدنية على شكل حيوان او طائر ، ويرجع بعضها الى صدر العصر الاسلامي ، كما يظن ان قطعاً منها ترجع الى العصر الساساني نفسه . ولعل اشهر هذه المجموعة بطة في متحف الهرميتاج بالروسيا وبناء في مجموعة اندجوديان

على ان دار الآثار العربية في القاهرة تحتفظ بين مقتنياتها بابريق بديع من البرونز يمت للفن الساساني بأوثق الصلات ، وان كان المرجح انهُ من صناعة القرن السابع او الثامن الميلادي . وقد عثر على هذا الابريق في ابي صير الملق حيث قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني امية ، فحمل ذلك بعض العلماء على القول بان مثل هذا الابريق الثمين لا بد ان كان ملكاً لهذا الخليفة وعلى كل حال فان الابريق بديع الشكل ، وجميل بزخارفه المحفورة والمخرمة

وثمة تحف برونزية كثيرة يرجح انها من صناعة ايران في القرنين الحادي عشر والثاني عشر وعلى بعضها زخارف فيها رسوم آدمية . ومن هذه التحف مرايا ذات زخارف بارزة من رسوم مماثلة ، وتقوم على أرضية من فروع نباتية جميلة

أما في عصر السلاجقة فقد كان للتحف الفنية القوة والجلال اللذين امتازت بهما الصناعة الساسانية ، واللذين كانا يناسبان طبيعة السلاجقة أنفسهم ، كما كان لها في بعض النواحي الاخرى دقة وظرف يناسبان اعتناقهم الاسلام وغرامهم الجديد بالادب والفن الايرانيين . فلا غرابة اذا وجدنا في هذا العصر تحفاً برونزية ساسانية الطراز والى جانبها بعض الاواني والتحف من الذهب والفضة ، ذات زخارف دقيقة مفرغة في الاناء . وفي مجموعة المسيو رالف هرارى بك عدد من هذه الاواني والتحف ، فيها كؤوس وأباريق و باخر وعلب وملعقة ، وعليها زخارف من طيور وحيوانات حقيقية و خرافية محفورة او مفرغة او بارزة

وفي القرن الثاني عشر الميلادي لم يقف بعض الصناع عند حفر الزخارف على التحف بل بدأوا في تكفيتها (تزيلوها) بالمعادن النفيسة ، ولا يزال أبدع مثال لهذه الصناعة اناء من مجموعة بوبرنسكي في متحف الهرميتاج ، صنع سنة ١١٦٣ ميلادية في مدينة هراة ، التي اشتهرت بصناعة التحف المعدنية كما اشتهرت بها أيضاً اصفهان وهمذان وشيراز

ومن المرجح ان طراز مدينة الموصل في صناعة التحف المعدنية قد نقل بعض أساليب هذه الصناعة عن ايران . بل الواقع ان الفرق بين الطراز الايراني والطراز الموصلي لا يزال غير واضح كل الوضوح . حقاً اننا لا نعرف تحفاً معدنية يمكن نسبتها على وجه التحقيق الى ايران وتكون في الوقت نفسه من الابداع ودقة الصناعة بحيث يمكن مقارنتها بالاواني العديدة التي

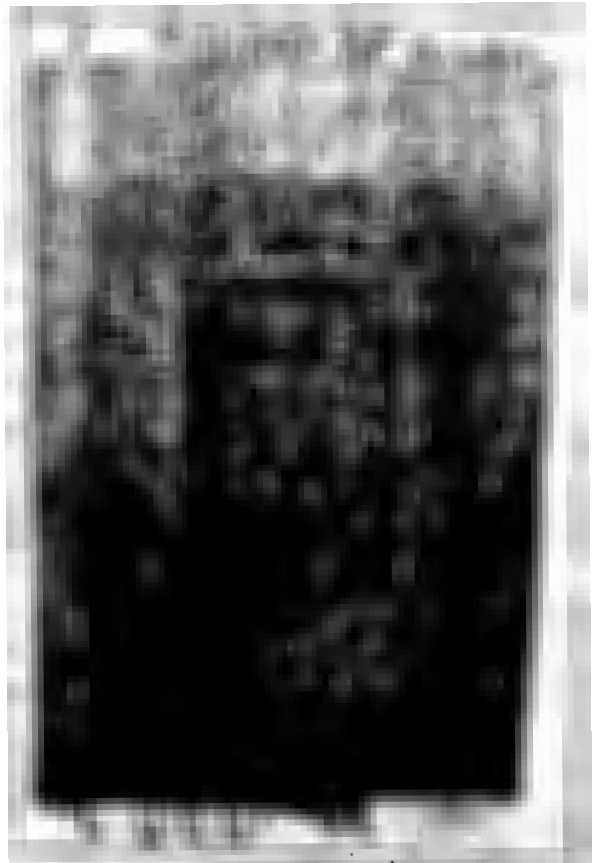

سجادة من الحرير المخيش بالذهب والفضة وهي من صناعة اصفهان في القرن السادس عشر . وقد وهبها حضرة صاحب السمو الامير يوسف كمال الى دار الآثار العربية

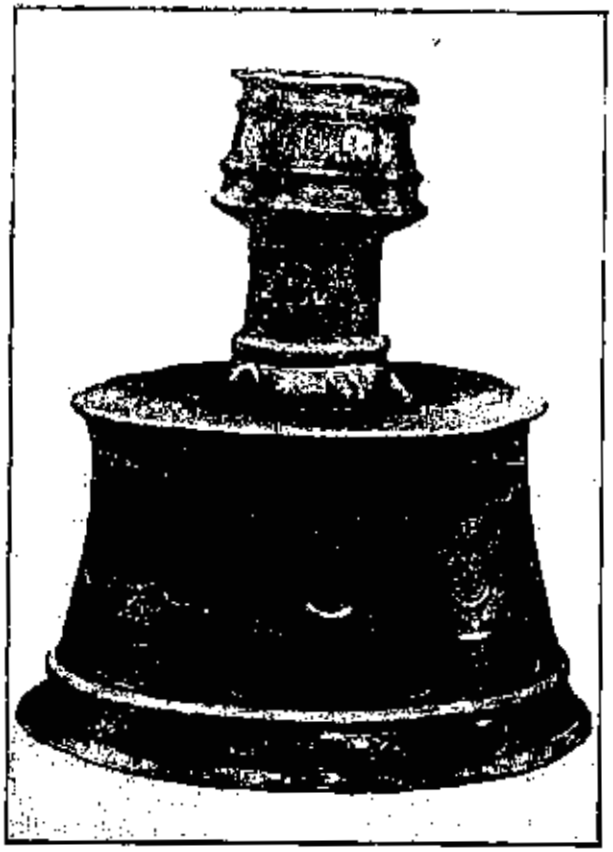

شمعدان من النحاس في مجموعة السير دالف هراوي بك . وهو منزل (مكفت) بالذهب والفضة ، وعليه اسم صانعه محمد بن رفيع الدين شيرازي وتاريخ صناعته سنة ٧٦١ هـ (١٣٦٠ ميلادية)

صورة قطع من منسوجات حريرية ايرانية ترجع الى القرن السادس عشر ، ومحفوظة الآن بدار الآثار العربية

صورة إبريق من النحاس ، صنع في ايران سنة ٧٦٣ هـ (١٢٧٤ ميلادية)

صنعت في الموصل ، وعليها أمضاء صانعها ، ولكن أسماء بعض هؤلاء الصناع تظهر عليها مسحة ايرانية حتى اننا لنتساءل اذا لم يكن هؤلاء الصناع ايرانيين هاجروا من ايران الى بلاد الجزيرة وأتيح لهم ان ينتجوا فيها أبدع التحف المعدنية في الفن الاسلامي

ومهما يكن من شيء فان صناعة التحف المعدنية تقدمت في ايران نفسها ، كما تقدمت في مدرسة الموصل . وكان من اهم مظاهر التطور في الصناعة الايرانية الاناقة والتهذيب في اشكال الاواني وبعض التغيير اللطيف في الزخارف . ثم بلغ هذا التطور اقصاه في عصر الاسرة الصفوية في بداية القرن السادس عشر ، وصارت زينة التحف المعدنية في تكفيتها بزخارف من خطوط او كتابات على ارضية ذات موضوعات زخرفية قوامها فروع نباتية دقيقة

***

ولا يفوتنا ان نذكر ان ايران كانت من اهم اقطار العالم الاسلامي في صناعة نصال السيوف من الصلب والحديد . وكانت هذه النصال تكفت (تنزّل) بالذهب والفضة في بعض الاقاليم الشرقية من ايران . ولا غرو فان اهل ايران كانوا منذ العصر القديمة مغرمين بالاسلحة . على ان ما وصل الينا من الاسلحة الايرانية ليس اقدم من القرن السادس عشر . وربما كانت الاسلحة المرسومة في الصور الفارسية من القرنين الثالث عشر والرابع عشر اكبر عون لنا على دراسة انواعها قبل العصر الصفوي . اما اهم ما نعرفه من اسلحة الصفويين فخوذة باسم السلطان طهماسب في متاحف استانبول وعليها امضاء صانعها : « ابراهيم بن محمد رضا » . وفي المتحف البريطاني خوذات من عصر الشاه عباس ، وعليها كتابات منزلة بالذهب وزخارف نباتية جميلة . ومن مشهوري صناع الاسلحة في عصر الشاه عباس (١٥٨٧—١٦١٩) أسد الله الاصفهاني

***

أما صناعة الزجاج فقديمة في ايران وقد وصل الينا طبق زجاجي من العصر الساساني ومحفور فيه صورة طائر خرافي كما وجد في مدينة الري تحف زجاجية ترجع الى القرنين العاشر والحادي عشر . ثم ازدهرت صناعة الزجاج في القرون التالية ولاسيما في شيراز وهمدان ونيشابور وسمرقند

وقد كان الحلي والجواهر شأن عظيم في الحياة الاجتماعية الايرانية ولا سيما في البلاط ، وفي ملابس الطبقات العالية فلا عجب ان تخصص في صناعتها مهرة الفنانين في زنجان واصفهان وتبريز وسلطانية وغيرها من البلدان الصناعية في ايران

تأثير الفن الايراني وانتشاره

ولا يسعنا ان نختم هذه الكلمة عن الفن الايراني بدون ان نشير الى ما كان له من عظيم التأثير على غيره من الفنون الاخرى . والواقع اننا — اذا استثنينا الفن الاغريقي — لا نكاد نجد

فثمَّا آخر قدَّر له ان ينعم بمثل نفوذ الفن الايراني وانتشاره. ففي العصور القديمة كانت الاساليب الفنية الايرانية من أظهر الاساليب الفنية في الشرق الادنى . ويظن كثيرون من العلماء ان اتصال الفن الايراني بالصين يرجع الى العصر الكياني ، حين بدأت الاساليب الفنية في الصين وايران تلتقي في اواسط آسيا وتزحف كل منها الى البلد الآخر . ثم كانت غزوات الفرس في وادي النيل اكبر تعريف لاهل مصر القدماء بهذا الشعب الايراني وبأساليبه الفنية المختلفة التي كان لها بعض التأثير في العمارة وفي زخارف المنسوجات المصرية . كما بدأ اتصال ايران بروما منذ القرن الثالث الميلادي ، حين انتشرت تجارة الحرير مع الصين — واتصلت ايران بعد ذلك ببيزنطة اتصالاً كان له صداه في الفنون ، على الرغم من الحروب الطويلة بين هاتين الدولتين، اللتين كانتا تتنازعان السيادة في العالم المتمدين حينئذٍ .

اما في الاسلام فقد أتيح لايران ان تكون في الصف الاول منذ سقطت الدولة الاموية وتولى العباسيون ، فكان الفن الايراني أبدع الطرز في الفنون الاسلامية ، وانتشرت النحف الايرانية من حدود الهند الى جبال البرانس ، ومن تركستان وجنوبي الروسيا شمالاً حتى اليمن وزنجبار جنوباً . وكان المهندسون والفنانون الايرانيون يدعون للعمل في سائر الاقاليم الاسلامية . بل ورحلت جالية منهم الى البندقية في القرن الخامس عشر وعلَّمت أهلها الاساليب الايرانية في تكفيت المعادن وتجليد الكتب وصناعة الزجاج ، وانتقل كثير من هذه الاساليب الى سائر الاقطار الغربية على يد البادقة

***

ولم يكن شأن الايرانيين خطيراً في الفنون الفرعية او التطبيقية فحسب . بل ان العمارة الاسلامية ايضاً مدينة لهم بكثير من الظواهر المعمارية التي أصبحت مميزة لها في العصور الوسطى . وليس هذا بمستغرب من شعب كانت له في العصور القديمة مدن كبرسوليس وقصور كالقصور الساسانية استطاعوا فيها ان يبتدعوا كثيراً من مشكلات العمارة كالقباب والاسقف والاقبية والاعمدة والعقود

وبهذا يكن من شيء فقد امتازت المآثر الايرانية في العصر الاسلامي بالعقود الايرانية وهي التي يسميها الافرنج العقود المستديرة ، كما امتازت بكسوتها بألواح القاشاني التي تبرع أهل ايران في صناعتها . والمشاهد ان المساجد الايرانية عظيمة الشكل بوجهاتها المستطيلة التي يحف بها من الجانبين مأذنة أسطوانية الشكل دقيقة الطرف في أعلاها ولها شرفة تجملها تشبه القنار

وليس موضوع العمارة الايرانية واسع وطريف لا يتسع المجال هنا للتطرق اليه . فحسبنا الآن هذه الصفحات التي استعرضنا فيها استعراضاً سريعاً وموجزاً ، ما وصل اليه شعب ايران من مهارة في الفنون بفضل استعداده الفطري ودأبه على العمل وسعيه الى الكمال

ايران الحديثة

ترجمه نهضتها الباهرة

[ليس الغرض من هذا البحث بسط مفاخر الحضارة الايرانية القديمة في العلم والفن والادب والفتوح الحربية ، فلها في جميع أبواب الحضارة والثقافة آيات عجيبة يرى القارىء طرفاً يسيراً منها في باب الفنون في الفتى السابق . ولكننا نريد ان نعنى هنا ، بالنهضة الايرانية الحديثة ، في عهد الزعيم الكبير الشاه رضا بهلوي ، بعد ان كانت الدولة الايرانية قد سقطت في العهد السابق الى دركات التفكك والاضطراب والخضوع للاجانب . فهي تمثل في نهضتها الحديثة أسطورة الفينكس الذي ينبعث حياً جديداً من رماده]

كانت بلاد ايران من نحو قرن من الزمان قاصية راضية ، تنتج ما تحتاج اليه من طعام وتكتفي بما تصنعه أيدي أبنائها من المصنوعات الفنية . ولكنها طمعت في أوائل القرن التاسع عشر باستعادة ولاية جورجيا من روسيا فأخفقت وحملت على عقد معاهدة تركمنشاي سنة ١٨٢٨ وهي التي ثبتت فيها قواعد الامتيازات الاجنبية وحتمت عليها القبول برسوم جمركية على الوارد اليها والصادر منها لا تزيد على خمسة في المائة عيناً . وما لبثت الدول الاخرى حتى استندت الى مبدأ « أولى الدول بالمراعاة » في تطبيق القواعد المنطوية في المعاهدة الايرانية الروسية . فكان من اثر ذلك ان زاحمت الواردات الغربية الى ايران ، ما كان يصنع بأيدي ابنائها . وما كان في وسعهم ان يعودوا الى الزراعة ، لان ما تنتجهُ البلاد حينئذٍ كان كافياً بل وفوق الكافي لسكانها . اما التصدير فكان شاقاً لقلة وسائل النقل وبعد المسافات . فلم يبقَ أمام البلاد الا الانصراف عن الصناعات الوطنية الى انتاج المواد الخام التي تحتاج اليها المصانع الاوربية . فأسفر كل ذلك ، في عهد اسرة قاجار الضعيفة ، عن سقوط ايران في مهاوي الانحطاط السياسي والاقتصادي سقوطاً كاد ان يقضي على الطبقة المتوسطة

فلما اهلَّ القرن العشرون كان ميزانها التجاري منحرفاً ضدها بمقدار ٣٠ في المائة وكان كثير من عقاراتها مرهوناً للبنوك الاجنبية . وانحطت زراعتها وصناعتها الوطنية وهبط عدد سكانها . ثم كانت ثورة سنة ١٩٠٦ فأُنشيء مجلس نيابي ولكن افساد السياسي كان متأصلاً فلم يتأصلهُ الانقلاب الى حكم نيابي . وكان كثير من رجال الحكم يرتشون من الاجانب (مجلة الشؤون

الخارجية يناير ١٩٤١ ص٢٩٦ وعليها الاعتماد في معظم هذا الفصل). فلما عقد الاتفاق الروسي البريطاني سنة ١٩٠٧ كان في طهران معاشير الى حكام تقسيم ايران على نحو ما قسمت بولندة. وأما اعمال الاصلاح المرتقبة فكانت على الغالب لا تتعدى مرحلتها الاولى على نحو ما تم عند ما اخرج مورجان شوستر من البلاد اجابة لمساعي الروسية

فلما اشتبت الحرب العامة سنة ١٩١٤ أنكر على دولة ايران حقوق الحايدين التي ينص عليها القانون الدولي. فلما ارتفع صوت ارثيس ولسن منادياً «بحق تقرير المصير» انبعث رجاء جديد في صدور الايرانيين. ولكن موقعهم الجغرافي واضال المصالح الاوربية المختلفة في تلك البلاد قضى على هذا الرجاء في مهده. وغدت المسألة الاولى بعد الحرب، اي الدول تحوز بالنفوذ الغالب في تلك البلاد بعد خفضها الى مستوى مستعمرة أتكون روسيا الشيوعية ام بريطانيا الرأسمالية

والجواب الذي خطَّهُ الشاه رضا بهلوي في سماء بلاده هو هذا — لا روسيا ولا بريطانيا —. والواقع ان التنافس بين الدولتين اسدى خدمة الى قضية الحرية والاستقلال في ايران. ففي ٢٧ يوليو سنة ١٩١٨ اعلنت الحكومة الايرانية الغاء المعاهدات القائمة على غير مبدإ المساواة. وسلم البولشفيك باتهاء المعاهدات الروسية الايرانية جميعاً وتخلَّوا عن الامتيازات والديون التي كانت لروسيا في ايران قبل عهدهم. اما بريطانيا فكانت اموالها المثمرة في تلك البلاد اعظم جداً من اموال روسيا فخشيت تقدم روسيا الى الهند عن طريق ايران فحملت ايران على توقيع معاهدة، لو نفذت لوضعت ايران تحت اشراف لندن. ولكن انقلاباً وقع في ٢١ فبراير سنة ١٩٢١ فتقلَّد جماعة من الوطنيين مقاليد الحكم وتحدَّوا بالمعاهدة البريطانية. وكان عملهم هذا قرعة مدوِّية في بوق الحرية الايرانية. ومنذ ذلك الحين تمكنت حكومة ايران من اتقاء نفوذ روسيا بمقابلته بنفوذ انكلترا وبالعكس. والنجاح في هذه الخطة يعزى الى شخصية رضا خان الذي نشأ من صفوف الجيش الى مقام وزير الحربية فرئيس لوزارة فرئيس موقت للحكومة الموقتة التي اعلنت على اثر اسقاط اسرة قاجار في سنة ١٩٢٥. ثم تخلى العرش في ديسمبر سنة ١٩٢٥ بمشيئة الامة وانشأ اسرة بهلوي الشاهانية في ايران. وقد كان غرض الشاه رضا بهلوي واضحاً لناظريه منذ دخل السيف في خدمة بلاده، فلما بلغ المقام الذي بؤهله لتنفيذ اتجه الى هدفين اساسيين اولهما السيادة التامة داخل البلاد والاستقلال التام في الخارج ولكنهُ ادرك كذلك انهُ اذا حققت ايران استقلالها المنشود فهي لا تستطيع المحافظة عليه الاَّ اذا اقامت نفسها واخذت بأساليب ورده

ما كاد رضا خان يزيل من طريقه العقبات السياسية الاجنبية حتى اتجه الى تأكيد سلطة الحكومة المركزية على جميع انحاء البلاد، بعد ان كانت المناطق البعيدة عن العاصمة في حالة فوضى منذ منتصف القرن الماضي. وادرك انه لا يستطيع تحقيق هذا الغرض الاَّ اذا كان

له قوة عسكرية في وضعه الاعتماد على ولائها ، فجعلها محلّ الوحدات العسكرية الموارية التي بقيادة الضباط الاجانب . فأنشأ في آخر سنة ١٩٢١ جيشاً ايرانيًّا قلباً وقالباً ووضعهُ تحت سلطة وزير الحربية ثم تولى بنفسه قيادة هذا الجيش فأخضع به البلاد كلها . فما انشرفت سنة ١٩٢٥ حتى كانت سلطة الحكومة المركزية مبسوطة على كل ايران . وفي تلك السنة قرر المجلس النيابي وجوب تسجيل المواليد والوفيات وعقود الزواج . وسُنَّ قانون بجعل الخدمة العسكرية اجبارية ومدتها سنتان مستثنياً منها خريجي الجامعات

وقد اطردت الزيادة في عدد رجال الجيش الايراني حتى بلغت في السنة الماضية بحسب ملحق دائرة المعارف البريطانية (١٩٣٨) ١٠٠ الف جندي . وجميع ضباط الجيش ايرانيون وتلقوا تلقى علومه العسكرية في فرنسا والمانيا . وهناك قوة عسكرية لصيانة الامن العام يطلق عليها اسم « الامنية » عدد رجالها نحو ١٢ الف جندي وضابط . وقد روى لنا من سافر الى ايران ان رجالها يرتدون ملابس زرقاً فاتحة وقبعات كقبعات الجنود الفرنسيين وهم يسيرون على الطرق ازواجاً يحرسونها . ولايران علاوة على ذلك اسطول بحري صغير في خليج ايران تلقى ضباطهُ تدريبهم البحري في ايطاليا ، وثمة كذلك نواة لسلاح جوّي . يقدَّر عدد طيّاراتها بمائة وخمسين طيارة حديثة معظمها على ما يقال من طراز « هوكر » و « ده هافيلاند »

وقوى الدفاع جميعاً خاضعة لاشراف الشاه المباشر ولا سيطرة للمجلس النيابي عليها . والانتظام في الجيش محبّب للشعب ولا سيما الشبان لما يتاح لرجاله من وسائل التعلّم والتثقف ولما لهُ من مقام واحترام احرزهما منذ تولّى الشاه اصلاحهُ وتعزيزهُ وجعلهُ « يدهُ اليمنى » في انحاء البلاد

وتلا اصلاح الجيش وتنظيمهُ الاصلاح القضائي . ففي ١٩٢٧ حلّت وزارة العدلية جميع المحاكم القديمة وشرعت في وضع قوانين جديدة واصدارها . فالقانون المدني ينصُّ على حماية الملك والعقود وينظم الزواج والطلاق ويمنع المتعة . والقانون الجنائي ينصُّ على حماية الحريات الخاصة وان كان الحكم أميل الى النوع الدكتاتوري . والقانون التجاري روعي في وضعه تنظيم الاعمال الاقتصادية والمالية فهو يقضي مثلاً بفرض نظام عام لامساك الدفاتر ويمنح الشركات « شخصية قضائية »

اما التعليم والادارة فتسترشد ايران ارشادها فيهما من فرنسا . ذلك بان التركيز الاداري الذي اشتهرت به فرنسا يلائم احوال ايران والثقافة الفرنسية لها مقام خاص عند الايرانيين . وفي كل سنة يعود طوائف من الشبان الايرانيين الذين تلقوا العلم في فرنسا اما على حسابهم الخاص واما على حساب الحكومة ، للاشتغال بتوسيع نظام التعليم . فعدد المدارس تضاعف منذ سنة ١٩٢٢ والعناية متجهة بوجه خاص الى تعليم الحرف والصناعات والى ربط الخدمة العسكرية بالواجبات الوطنية . وتكثر المدارس الليلية لخفض مستوى الامية في البلاد من ناحية ولتدريب موظفي الحكومة

تدريباً يمكنهم من الترقي في مناصب الحكومة من ناحية أخرى . ولا تزال المعاهد العلمية الاجنبية مثل كلية ستوارت التذكارية في اصفهان وكلية المرسلين الاميركيين في طهران تخرج شباناً مزوّدين بما يلزم من الكفاءة والوطنية لخدمة بلادهم

اما المشكلة الاقتصادية المعقدة التي واجهها الشاه رضا بهلوي في إيران ، فكانت اصلاح الحياة الاقتصادية في البلاد بعد ان أصابها الخلل والاضطراب على أثر دخول البضائع الاوربية الرخيصة اليها ومنافستها للصناعات الوطنية

أما الصناعة فلا تزال في مهدها . فأكبر مصنع في البلاد للنسج لا يزيد عماله على ٥٠٠ عامل. وصناعة السجاد التي يصدَّر ٩٥ في المائة من منتجاتها اصيبت اصابة شديدة في اثناء الازمة الاقتصادية العالمية ورفع الرسوم الجمركية في مختلف البلدان ولا سيَّما في الولايات المتحدة الاميركية ، التي كانت تبتاع نصف ما تصدره إيران من السجاد . والزراعة لا تزال تعمل ٨٠ في المائة من اهل البلاد بما فيهم القبائل الرحّالة. وفي البلاد مصادر معدنية ثمينة ولكنها لم تستغلّ إلاّ قليلاً — اذا استثنينا النفط — وأهمها الحديد والفحم والنحاس والرصاص والمنغنيس والرخام والنيكل والكوبلت

وقد بلغ ما استخرجتهُ « شركة الانجلو برشان » من النفط من منطقة امتيازها في سنة ١٩٣٧ تسعة ملايين ونصف مليون من الاطنان

ثم هناك زراعة الخشخاش الذي يستخرج منهُ الافيون . فمن نحو اربعين سنة اضطرت ايران ان تعنى بزرع نبات ينتج محصولاً يسهل نقلهُ فأقبلت على زراعة الخشخاش حتى بلغ ٧٫٥ في المائة من الدخل العام و١٦ في المائة من الصادرات في سنة ١٩٢٦ ، من هذه الزراعة

ولما كانت عصبة الامم معنيَّة بالسيطرة على تجارة الافيون في مصادره ، أوفدت في سنة ١٩٢٧ لجنة الى إيران لدراسة الموضوع فيه . فقالت اللجنة في تقريرها ان محصول الخشخاش محصول يلائم ايران كلَّ الملاءمة . فهو يزرع في الخريف ولذلك يروى بغير عناء عندما يكثر الماء . وقيمة ما يجنى منهُ من الفدَّان الواحد يزيد اربعة اضعاف على ما يجنى من الحنطة ، فلذلك يسهل على أصحابه ان يتحملوا نفقات النقل العالية ، ثم انهُ يصدَّر ولذلك يمكن البلاد من استيفاء ثمنه في توفية ثمن ما تستورده من الخارج . ثم اقترحت اللجنة ان توجه الحكومة الايرانية عنايتها الى شق الطرق وخزن المياه وتحسين الاساليب الزراعية وانعاش الصناعة الكاسدة ، وان يتاح للحكومة الايرانية ثلاث سنوات للبحث عما يصح ان يحلّ محلّ الخشخاش كمحصول زراعي ثم تشرع في نقص المساحة المزروعة منهُ ١٠ في المائة كل سنة بعد ذلك . فأنشأت الحكومة الايرانية « احتكار الافيون الحكومي » وجعلت زراعة الخشخاش خاضعة لرخص خاصة وضرائب خاصة وحظرت زراعتهُ في أراضٍ جديدة ووضعت برنامجاً قضت بواسطته على منع زراعة الخشخاش في

مناطق معينة. ومع ان الحكومة اعفت من الضرائب، تلك الاراضي المحولة من زراعة الخشخاش الى زراعة محاصلات اخرى، لم يكن ثمة بدٌّ من ان يكون هذا التحويل بطيئاً . فليس بالسهل ان يتحول الفلاح من زراعة نبات معين ألفهُ وألف اساليب العناية به الى زراعة نبات جديد ، دع عنك الاستياق من الملاءمة المفروضة بين الارض والنبات الجديد . وصادرات الافيون الايرانية آخذة في النقص المطرد حتى ان الجمعية العمومية لعصبة الامم وضعت قراراً خاصًّا عبرت فيه عن تقديرها لما ابدتهُ الحكومة الايرانية من التعاون وحسن النية في هذا الصدد

والحالة من الناحية المالية خيرٌ منها من الناحية الاقتصادية . فقواعد الاصلاح المالي الذي بدأه الخبير الاميركي الدكتور ملسبو Millspaugh في سنة ١٩٢٢ لا تزال هي هي قواعد السياسة المالية المتبعة الآن وأهمها السعي سعياً حازماً لتوفية النفقات من الدخل العادي . ويؤخذ من احصاءات سنة ١٩٣٤ ان ٢٠ر٤ في المائة من الميزانية جاء من الرسوم الجمركية و٣٢ر٤ من المائة من شركات الاحتكار (السكر والشاي وعيدان الثقاب والتبغ والافيون والقطن وغيرها) و ١٧ر٦ في المائة من الامتيازات الممنوحة للاجانب . اما النفقات فمنها ٣١ر٤ في المائة للجيش والدفاع الوطني و ٥٧ر٢ في المائة للادارة. وقد بلغت الميزانية في سنة ١٩٣٧ مبلغ ١٥ر٦٢٥٠٠٠ جنيه للدخل و ١٥ر٦٠٠٠٠٠ جنيه للنفقات . ويشهد جميع الكتاب الذين زاروا ايران حديثاً ان موازنة الميزانية من ابواب الدخل لمواجهة النفقات التي تقتضيها مشروعات الحكومة المتعددة، عمل عظيم حقًّا

واهمُّ ما تحتاج اليهِ البلاد من الناحية الاقتصادية الآن تمهيد طرق المواصلات . والحكومة الحالية جادة في هذا العمل وهي تنفق على مشروعاتها من مال ايران نفسها بغير ان تلجأ الى عقد قروض اجنبية . ومن اهم هذه الطرق انشاء سكة حديد طولها ١٥٠٠ كيلو متر من خليج ايران الى بحر قزوين طرفاه بندر غازي على بحر قزوين وخور موسى على خليج ايران . والظاهر ان الاعتبارات العسكرية والسياسية مقدمة على الاقتصادية في عد هذه السكة ، ولذلك تقتضي سنوات قبل ان تصبح هذه السكة مصدراً للدخل ، ولكنها ستكون ذات شأن عظيم في حفظ الامن العام وتعزيز وسائل الدفاع

ولعلَّ الغاء الامتيازات الاجنبية أشهر مآثر الشاه رضا بهلوي في اصلاح ايران وتعزيز سيادتها واستقلالها . ففي سنة ١٩٢١ كانت الدول الاجنبية في ايران فريقين : فريقاً يتمتع أبناؤه بالامتيازات وآخر خاضع للمحاكم الايرانية كروسيا وتركيا وافغانستان ودول أوربة الجديدة . وكانت دول الفريق الثاني برمتها بهذا التمييز . ولذلك جعل الروسيون يسعون الى الفوز بالعودة الى نطاق الامتيازات لان ذلك يسهل عليهم بث دعايتهم في ايران ومنها الى جميع انحاء الهند .

أما بريطانيا فكانت تؤثر الخضوع للمحاكم الايرانية على التسليم بما يمكن روسيا من بث دعايتها على حدود الهند. فلم تتم عقبة ما من ناحيتها، دون رغبة الحكومة الايرانية في الغاء الامتيازات

وقد الغيت الامتيازات فعلاً في ١٠ مايو سنة ١٩٢٨. فكان ذلك فوزاً سياسياً كبيراً لحكومة طهران واحتفل بذلك اليوم احتفالاً قومياً. وعقدت بعد ذلك معاهدات مع الدول المختلفة أعترفت فيه جميعاً بمساواة ايران لها. ولكن نص في معظم المعاهدات الجديدة على استثناء الاجانب المقيمين في ايران من مصادرة أملاكهم وحملهم بالقوة على العمل للدولة او الاشتراك في قروضها وما أشبه. وبالغاء الامتيازات استعادت ايران حريتها فيما يتعلق بفرض الرسوم الجركية وللحال شرعت في المفاوضات لعقد معاهدات تجارية جديدة. وانتهت جميع هذه المساعي في ٢٥ فبراير سنة ١٩٣١ الى سن قانون خاص « باحتكار التجارة الخارجية » فرضت الحكومة بمقتضاه على الحصص على الوارد اليها لكي تتمكن من تصحيح الميزان التجاري بين الصادر والوارد

ومما يتبع الاصلاح الاقتصادي والمالي، الاصلاح الاجتماعي، من حيث بث الروح الوطنية لتكون الرابطة القوية بين ابناء ايران وتحرير النساء والاستغناء عن الموظفين والخبراء الاجانب وما يتعلق بالملابس وغيرها

هذه الاعمال مكنت الشاه رضا بهلوي من تعزيز سلطة الحكومة المركزية وكسر شوكة السيطرة الاجنبية على مرافق البلاد. ومع ما أحرزته الحكومة الايرانية من انتصارات باهرة في هذه الميادين لا يزال يتعين عليها ان تتقي الضغط الروسي عليها بمقابلته بالضغط البريطاني، وان تتقي الضغط البريطاني بمقابلته بالضغط الروسي

وجميع العوامل السياسية الخارجية، سواء أدولية كانت أم خاصة بها، تؤاتيها على هذا

فقد كانت خطة روسيا السوفيتية في بادىء الامر ان تحارب الرأسمالية في الشرق، باضعاف الامبريالزم الاوربي في الشرق. ومع ان شيوعي روسيا يزعمون انهم راغبون عن التوسع الامبراطوري ويميلون الى الشعوب المستعمرة أو التي في حكم المستعمرة، لا يمكننا ان نعزو سلوكهم في ايران اذ قبلوا الغاء الامتيازات والديون القيصرية السابقة، الى روح الايثار فقط، بل ان جانباً منه لا بدّ ان يعزى الى رغبتهم في خضد شوكة بريطانيا في الشرق الاوسط وسعد. ثم انهم كانوا يرغبون في ان يجتذبوا اليهم جميع الشعوب المجاورة التي بينها وبين بعض القوميات الداخلة في اتحاد الجمهوريات السوفيتية صلة قرابة. وهذا هداهم الى انشاء كتلة من الدول في الشرق الاوسط اذ عقدوا معاهدات مع تركيا وايران وأفغانستان في سنة ١٩٢١

ولكن الروسيين خسروا في حلبة الاعمال الاقتصادية ما كسبوه في ميدان السياسة. ذلك بأن اعمال « قسم احتكار التجارة الخارجية الروسية » أثارت مقاومة تجار ايران وحاجاجوم وانهالت

على الحكومة الايرانية في سنة ١٩٣٤ مطالب التجار بأن تتوقف الحكومة عن معاملة روسيا او ان تجعل «قسم احتكار التجارة الخارجية الايرانية» شديداً كعدوه الروسي

ثم جاء النزاع بين ستالين وتروتسكي فاز ستالين، وتغلب القول بتطبيق الشيوعية في روسيا أولاً على الدعوة الى الثورة العالمية. ولذلك جعلت حكومة روسيا تكف عن مساعيها السياسية في البلدان المجاورة لها وقد انتهى هذا الاتجاه الروسي القائم على «المعيشة بسلام والتعاون مع الدول الرأسمالية» الى انتظام روسيا في عصبة الامم في سنة ١٩٣٤

ولكن على الرغم من ذلك لا تزال عناية روسيا بالشرق عظيمة، بل لعلها اعظم الآن مما كانت. ومتتبعو تقدم روسيا الصناعي يؤكدون ان نصف ما انفقته الحكومة الروسية في مشروع السنوات الخمس الثاني أنفق في البلدان الواقعة الى الشرق من جبال الاورال. فانشاء المصانع الكبيرة في تلك المنطقة لا بدّ ان يفضي عاجلاً أم آجلاً الى البحث عن أسواق لمنتجاتها في البلدان المجاورة. إلاّ ان روسيا موجهة الآن معظم عنايتها الى الغرب والشرق الاقصى. فاهتمامها بالشرق الاوسط قليل، وفي هذا فرصة متاحة لايران لتعزّز مكانتها وتؤيد استقلالها

أما بريطانيا العظمى فقد شقّت طريقاً جديداً في علاقاتها بايران بعد ان سوّي الخلاف على مشكلة شركة النفط (الانجلوبرشان) في سنة ١٩٣٣. ويمتدّ صكّ الامتياز الجديد الذي وقع في ابريل من سنة ١٩٣٣ ستين سنة وأقل نصيب تنالهُ الحكومة الايرانية من أرباح الشركة هو ٧٥٠ الف جنيه في السنة — وقد بلغ في السنة الماضية نحو ٣ ملايين من الجنيهات — يضاف اليها مبالغ أخرى مثل مبلغ ١٠ آلاف جنيه لتعليم الايرانيين شؤون صناعة النفط. ثم ان السر جون كادمن المدير المقيم في طهران قام باسم الشركة بأعمال من شأنها أن توثق عُرى التعاون بين الشركة وحكومة طهران. وقد عنيت الشركة باقامة مصنع لتكرير البترول في كرمنشاه يدفع اليه النفط بالضغط من حقل خانقين الواقع على حدود ايران العراقية. وقد كان نفط باكو الروسي يحتكر السوق في شمال ايران لغلاء أجور النقل من عبادان على خليج ايران الى الشمال. فاقامة مصنع كرمنشاه يمكن الشركة البريطانية من منافسة النفط الروسي في تلك المنطقة. واذا صرفنا النظر عن النزاع بين بريطانيا وايران على السيادة على جزر البحرين، كان في وسعنا أن نقول ان علاقات الحكومتين متسمة بسمة التفاهم والتعاون. وعلاوة على ذلك فبريطانيا تؤيد توثيق عُرى التعاون بين دول الشرق الاوسط المتمثلة في ميثاق سعد آباد (طهران) الذي عقد في السنة الماضية بين تركيا وايران والعراق وافغانستان

ولعلّ اكبر نصر سياسيّ احرزتهُ ايران الحديثة هو تحويل تركيا عدوتها القديمة الى صديق حميم. فقد كانت العلاقات بينهما على اثر انتهاء الحرب الكبرى مشوبة بالجفاء الشديد فلم تعقد

بينها معاهدة صداقة حتى سنة ١٩٢٦ ثم تلاها اتفاق على التعاون الاقتصادي في سنة ١٩٢٨ ولما عينت الحدود في سنة ١٩٢٩ بين الدولتين اخذ اقطاب البلادين يتبادلون الزيارات الواحد تلو الآخر واشهرها زيارة الشاه لانقره واستانبول في شهر يونيو من سنة ١٩٣٤

وفي سبتمبر من تلك السنة ، نزلت ايران عن ترشيح نفسها للمقعد الخالي في مجلس العصبة لكي لا تنافس تركيا عليه فردّت تركيا التحية بمثلها في سبتمبر من سنة ١٩٣٧

وليس بين ايران وافغانستان ما يثير مشكلة ما . فقد كان الافغانيون جزءاً من الامبراطورية الفارسية ولا يزالون يتكلمون اللغة الفارسية . نعم ان مسألة الحدود بين الدولتين احدثت شيئاً من الجفاء في سنة ١٩٢١ ولكن الدولتين قبلتا تحكيم تركيا فعينت لجنة لتخطيط الحدود وذهبت الى المنطقة الخاصة في يونيو سنة ١٩٣٤ وتمكنت من حلّ الخلاف وعلى اثر ذلك دخل امير افغان في ميثاق سعد اباد (طهران) سنة ١٩٣٧

أما ايران والعراق فقد كان بينهما فتور ناشأ عن توقف حكومة طهران عن الاعتراف بالدولة العراقية الجديدة واشتراطهم لذلك منح الرعايا الايرانيين النازلين في العراق حق التمتع بالامتيازات الاجنبية واباء الحكومة العراقية عليهم ذلك . على ان مسألة الاعتراف قد حلت بعد ذلك في سنة ١٩٣٠ عقب زيارة اغلك فيصل لطهران في شهر ابريل من تلك السنة فقد اعترفت الحكومة الايرانية بالدولة العراقية وعقدت معها اتفاقاً وقتيًّا وتبادلت معها الممثلين السياسيين

ولما جاء دور البحث في تنظيم العلاقات السياسية والاقتصادية اثار الايرانيون مسألة الحدود مطالبين بتعديل التحديد ومعللين انهم لا يعترفون باتفاق الحدود الذي عقد في سنة ١٩٢٣ بين ايران والدولة العثمانية بحجة ان برلمانهم لم يقره ، وأصرّ العراقيون على رفض طلب التعديل لان الاتفاق قديم ولانه نفذ فعلاً

ولما تمسك الايرانيون بموقفهم وأبوا التساهل مع العراقيين رفع وزير الخارجية العراقي في سنة ١٩٣٣ الامر الى عصبة الامم طالباً منها التوسط لازالة الخلاف وحمل ايران على الاعتراف بحدودها فانتدبت العصبة السنيور الوزي مندوب ايطاليا لدرس الخلاف ثم عاد الفريقان في سنة ١٩٣٥ فصحبا بالاتفاق القضية على ان تحل بينهما باتفاق مباشر وتم ذلك فعلا في شهر يوليو سنة ١٩٣٧ بعقد اتفاقات بينهما حلت بموجبها جميع المشكلات ونظمت العلاقات السياسية والاقتصادية والقضائية بين البلادين على اساس ثابت . ثم دخل الفريقان في الميثاق الشرقي الذي عقد في سعد اباد (طهران) عقب ذلك

واستقبلت علاقات الفريقين بعد هذا الاتفاق دوراً جديداً من الود والاستقرار وهي على افضل ما يرام في الوقت الحاضر

مكتبة المقتطف

الجزء الثامن من الاكليل [1]

ترجمة الانكليزية — بقلم نبيه امين فارس — ثمنها ٥٠ قرشاً — مطبعة جامعة برنستون

نشرنا من أشهر مقالاً بقلم ادوود جرجي موضوعهُ « العلوم العربية في برنستن » أشار فيه الى المشروع الذي اخذ به الدكتور فيليب حتي رئيس دائرة العلوم الشرقية في تلك الجامعة العريقة وهو نقل أمهات الكتب العربية الى اللغة الانكليزية وطبعها . وترجمة الجزء الثامن من الاكليل للهمداني من بواكير هذا المشروع العلمي العظيم الشأن

والهمداني من علماء جنوب بلاد العرب المشهورين ولد في صنعاء ولم يعرف تاريخ ميلادهِ وضرب في شبه الجزيرة العربية ثم عاد الى اليمن ونزل في صعدة . ثمَّ سجن في صنعاء وكان سجيناً في عهد الامام الزيدي أحمد الناصر (حوالي ٣١٥هـ ٩٢٧م) ومات في سجنهِ . وأشهر ما اشتهر بهِ الهمداني الجغرافية والاسفار ثم الشعر والنحو والانساب والتاريخ . وكتاب « صفة جزيرة العرب » من أقدم وأتم الكتب التي يعتمد عليها في دراسة بلاد العرب ولا سيَّما جغرافية البلاد وصلة قبائلها بعضها ببعض وبوجهٍ خاص ما كان منها خاصًّا بموطنهِ جنوب بلاد العرب

وجنوب بلاد العرب كان على حضارة راقية ليس لنا من سبيل الى دراستها الاَّ بدرس الكتابات الحميرية التي كشفها جوزيف هالفي (١٨٦٩ — ١٨٧٠) وادوارد جلازر (١٨٨٢ — ١٨٩٤) إلاَّ ان الهمداني كان من علماء الاسلام الذين عنوا بتلك الحضارة وكتب عنها ومن هنا فللجزء الثامن من الاكليل من شأن كبير في دراسة احوال تلك البلاد قبل الاسلام

واذا ذكرنا الجزء الثامن من الاكليل فلأنهُ لم يصل الينا من أجزاء ذلك السفر النفيس الاَّ جزآن الثامن والعاشر ، وأما الاجزاء الباقية فقد تطرقت اليها أيدي الحدثان . والثامن الذي يهمنا في هذه الكلمة يكشف لنا « ان قدماء اليمانيين بلغوا اقصى الغاية في الرياضيات وجرّ الاثقال لانهم عرفوا كيف يشيدون قصوراً نفيسة متعددة الطباق حتى بلغت عشرين سقفاً ويقاوم بناؤها مرَّ الايام وطوارق الحدثان . . . ثم انهُ يبين لنا كيف كانوا ينحتون تماثيل البشر والحيوانات والطيور ويطلعنا على إحكامهم عمل الآلات المتحركة من نفسها وكذلك الساعات المائية العظيمة المعروفة بالقطارات . . . » [2]

ولا تزال قصورهم وسدودهم مضرب الامثال في اللغة العربية الى يومنا هذا

---

(١) The Antiquites of South Arabia, VIII Book of Al-Hamdani's Al-Iklil, Nabih Amin Faris, Princeton University Press 1938, $2.00

(٢) راجع مانحن طبعة السكري للجزء الثامن من الاكليل

وقد حفظ من الجزء الثامن من الاكليل نسخ متفرقة في المتحف البريطاني نسخة كتبت سنة ١٦٧٦ وفي المكتبة الملكية ببرلين نسخة يرجع تاريخها الى سنة ١٦٧٤ . وكان العلاَّمة مولر D. H. Muller قد اهتم بنسخة المتحف البريطاني فنشر جزءاً منها مع ترجمته باللغة الالمانية في سنة ١٨٧٩ . ولكن احداً لم ينشر نسخة كاملة من الجزء الثامن من الاكليل قبل الاب انستاس ماري الكرملي وذلك في سنة ١٩٣١ (راجع مقتطف ابريل ١٩٣٢ صفحة ٤٨٧)

وكان الدكتور حتي مهتمًّا باصدار نسخة تامة من هذا السفر النفيس بعد مقارنة المخطوطات المختلفة فلما ظهرت نسخة الاب الكرملي عدل عن ذلك ، ولكن مترجم هذا الكتاب لا يزال يرى ان نسخة الكرملي لا تغني عن نسخة اخرى اوفى تحقيقاً وتدقيقاً وشرحاً و سناداً

وكان الباعث على عناية الدكتور حتي في سنة ١٩٢٥ بالاكليل انهُ عثر على نسخة كاملة من الجزء الثامن في مجموعة مراد البارودي بلبنان . ثم بيعت هذه المجموعة الى الغني الاميركي روبرت جاريت واودعها في خزانة جامعة برنستون التي تخرَّج فيها . وعلى نسخة الاب الكرملي المطبوعة ومخطوطة البارودي وما نشرهُ مولر اعتمد نبيه امين فارس في اخراج الترجمة الانكليزية مشيراً في هوامشه الى نسخة الكرملي بالحرف K والى مخطوطة البارودي بالحرف B والى ما نشره مولر بالحرف M

وقد نبَّه في الهوامش على القراءات المختلفة وسعى الى تعريف كل اسم علم ومكان وحيث عجز عن تعريف بعضها أشار الى ذلك في الهوامش أيضاً . كما انهُ اضاف حواشي جغرافية وتاريخية ولغوية حيث رأى لزومها لتوضيح المتن ولم يحجم عن تجاوز ترجمة بعض الاشعار « كبرٍّ في حمير » لاسباب وجيهة ولكنهُ أشار الى كل حذف او تعديل في مكانه . وامله ان تسدَّ الترجمة الانكليزية الثغرة الى حين ظهور نسخة عربية وافية

فالمتن المترجم في هذا الكتاب هو ما اصطفاهُ المترجم بعد المقابلة بين النسخ الثلاث وتدبُّر سياق المعنى والقرينة ، فاذا اختار قراءة إحدى النسخ أشار الى القراءتين الاخريين في الهامش ، واذا اصطفى قراءة خاصة به أشار الى ذلك أيضاً فيورد قراءات النسخ الثلاث ثم يتبعها بكلمة « يرجَّح انها كذا » . ففي الهامش ٣٥ صفحة ٤ :

يقول (الكرملي : ذات خراب — مر والبارودي : ذات خروب — ويجب ان تكون ذات جروب اي حجارة) وكان هو قد اصطفى في المتن الانكليزي الكلمة التي معناها حجارة

وفي الهامش ٦ صفحة ٣٩ اصطفى قراءة نسخة الكرملي مفضلاً اياها على قراءة البارودي وقراءة مولر وهما واحدة . وفي صفحة ٣٤ سطر ١٩ فضَّل ما ترجمته « القصر القديم على قراءة الكرملي والبارودي وهي القصر القديم وقراءة مر وهي النص القديم »

وعلى هذا النسق من التحقيق اخرجت الترجمة الانكليزية لهذا السفر العربي النفيس

كتاب الشذرات

At Random

تأليف الدكتور أحمد زكي ابو شادي

للدكتور أحمد زكي ابو شادي حيوية فذة نادرة ونشاط لا يكل فهو اذا فوجيء من ناحية بمانع من الموانع تسرَّب من ناحية أخرى فصل الماء المتدفق الذي يتلمس كل منحدر وثغرة. وللدكتور أمل كبير في الانسانية قلما يساويه امل وهو ليس أمل الجاهل لحقائق الحياة فانهُ قد يذكرها بسخط يدل على معرفته مقدار تغلغل النقص في النفس البشرية ولكنك اذا قرأت كتابهُ هذا ولا سيما الاجزاء التي يصف فيها الدكتور الدواء للانسانية السقيمة المعذبة تبيت أنهُ يعرف مقدار النقص وما يقيمهُ من العراقيل والموانع. وخيل اليك خطأ انهُ ساذج لهُ أمل كبير في مستقبل الانسانية لانه لا يدرك العراقيل. ولكن هذا كما قلت من خطإ القارىء فالدكتور قد كان طبيباً للاجسام قبل ان يكون طبيباً للنفوس وللانسانية عامة وهو يعرف ان بين المرضى العنيد الذي لا يطيع الطبيب ولا بد انهُ قد رأى بين مرضاه من لم يفلح معه طب او دواء والطبيب الشاب في اول عهده بالطب قد يكون عالماً كبيراً وخبيراً بمهنته فيأمل ان يتغلب على مقاومة المريض بعلمه وخبرته ولكنهُ لا يضع أمام بصيرته خطة واضحة للتغلب على عناد المريض ومقاومته والدكتور المؤلف طبيب قديم وهو يصف العلاج ولا بدَّ انهُ قد عرف كيف يتغلب على عناد المريض ولكن ليعذرني الدكتور اذا قلت انهُ يخيل اليَّ ان الخطة التي يتخذها الماكرون من دهاة الاطباء في التغلب على عناد المرضى لم يتخذها الدكتور للتغلب على عناد الانسانية. على ان عناد الانسانية اساس حياتها وفيه نفع كبير فان الانسانية تستفيد من عاطفة المحافظة على القديم كما تستفيد من عاطفة التجديد والرغبة في التغير. ولا تنكر انهُ اذا اختل التوازن بين العاطفتين وطغت واحدة على الاخرى كان الخلل الذي تعمل الحياة على محاربته حتى يضمحل. والدكتور المؤلف يعتقد ان عاطفة المحافظة على القديم طاغية على عاطفة الرغبة في التغير والاصلاح وكل راغب في الاصلاح والتغير يعتقد مثل هذا الاعتقاد كما ان المحافظ على القديم يعتقد عكس ذلك اي يعتقد ان الرغبة في التغير والتجديد طاغية على الرغبة في المحافظة على القديم وتكاد تفرقها وكل منهما يعتقد ان التوازن قد اختل في حياة الناس في هذا العصر إما بسبب الرغبة في التغير وإما بسبب المحافظة على القديم. ولنعد الى عناد الانسانية فأقول: اني لا أريد ان أقوم الدكتور وان أحثهُ على اتباع مكر الاطباء الدهاة فاني لا أعرف كيف يكون هذا المكر وربما كان غير لائق بالمكاليين (Idealists) أمثال الدكتور أبي شادي بل لعلَّ قوَّة حركة

الاصلاح وشدة جهود المصلحين كانت بسبب اندفاعهم فيما هم بسبيله من غير مكر او دهاء. ولعل المكر والدهاء من نقص التفاؤل والايمان بالمستقبل. على ان الدكتور المؤلف اكثر تفاؤلاً مما تقتضيه حقائق الحياة فمسألة ترجع الى المزاج. ولقد صرت الآن لا أعتقد ان العقل هو السبب الاول في ايجاد المذاهب الفكرية بل أعتقد ان العقل خادم للمزاج والحياة في حاجة الى المفكر الكثير التفاؤل بل لعل النية كانت في كثير من الاحايين للمتفائلين الذين يشكون حقائق الحياة بتفاؤلهم أشكالاً جديدة وان كانوا في أحايين أخرى كثيرة قد هزموا شر هزيمة بالرغم من تفاؤلهم. وقد أحسن الدكتور صنعاً بذكر المراجع التي يستطيع القارىء ان يرجع اليها للاستزادة من مادة فصول الكتاب ولاستئناف بحثها. ومهما خالف القارىء المؤلف في رأي أو آراء فانه لا يستطيع ان ينكر سعة اطلاعه وحسن بيته. والكتاب على اي حال ليس لكل قارىء بل هو للقارىء المطلع الذي يستطيع ان ينتقد ما يقرأ من فصول الكتاب وان يناقشها لان كل فصل من فصول الكتاب لو انه كتب للقارىء غير المطلع لاحتاج الى تفسير اطول واسهاب اعظم. فان المؤلف قد يكتفي بالاشارة الى الفكرة او المذهب او المبدأ العلمي او المؤلف او الجملة المقتبسة. وقد ذكر المؤلف الاسباب التي حملته على تأليفه باللغة الانجليزية ومنها ان يصل الى جميع القراء المثقفين الذين يستطيعون قراءة اللغة الانجليزية من مصريين وغير مصريين ولكن ليس معنى هذا ان ليس بين قراء اللغة الانجليزية من المصريين من هو شديد التمسك بالقديم كثير المحافظة عليه ولا أحسب ان الدكتور المؤلف قد فاته هذا الامر

والمؤلف يدعو الى حسن اختيار النسل الانساني ويرى انه أحسن وسيلة لترقية الانسانية ثم يصف الصفات التي تؤدي الى الحضارة العالية ثم يبحث أثر العبقريين في حياة الناس ويؤمن بجليل أثر العبقرية وان اساءة الناس احياناً استخدام العبقرية ثم يبحث فيها اصلح الديموقراطية ام الدكتاتورية وهو ممن يؤمن بالديموقراطية بالرغم من الشكوك التي شرح اسبابها والتي شاعت في هذا العصر. ثم يبحث عن التسامح الديني وحرية التفكير وعلى المساواة بين الرجل والمرأة ثم يحاول حل مشكلات العالم الاقتصادية واصلاح صلات الامم والاخلاق الدولية وينتهي برجاء وأمل كبير للانسانية. ولا نستطيع في هذه الكلمة الصغيرة الا اشارة الى كل رأي من آراء الدكتور وبحثه وبعض مبادىء الدكتور هي مبادىء الحضارة الغربية قبل طغيان النازية والفاشية. ومن أجل ذلك يؤمن بالديموقراطية بالرغم من عيوب القائمين بها ويرفض النازية والفاشية ومهما كان يستطيع المؤلف مع كثرة موضوعات كتابه ان يفصل الرد على حجج خصومه الفاشية ونظمها الاقتصادية مثلاً. والمؤلف ايمان كبير بالتربية العلمية ويرى ان نشرها في العالم يؤدي الى رقي الانسانية والقضاء على كثير من شرورها فكما هي إكسير

الحياة التي طالما بحث عنهُ فلاسفة القرون الوسطى ولكنهُ مع ذلك يعرف ان الثقافة العالية لا يطالب بها كل آحاد الجماهير وان كان لا بدَّ من نشر أذهانهم في عنصر الثقافة العلمية الحديثة كي يطمئنوا اليها . ولكن في الكتاب آراء لم يأخذ بها جميع المفكرين بعد على ما أظن ومثل ذلك انهُ في كلامهِ عن الاقتصاد لا يريد ان يكون المال المتداول على قدر رصيد الذهب بل على قدر ثروة الامة حتى الثروة العلمية والمعنوية وليعذرني الدكتور اذا شككت في امكان تطبيق هذا المبدأ فاني قد درست التاريخ وأعرف انهُ كلما تحول الساسة تطبيق هذا المبدأ سببوا فوضى اقتصادية وارتباكاً وفاقة وتعاسة وتدهورت العملة وارتفعت الاثمان وربما كنت شديد المحافظة على القديم ولكن ربما كان الذنب ذنب دراستي للتاريخ ولمبادئ الاقتصاد القديمة

وبالرغم من نزعة الكتاب العلمية وغشائه العلمي فان القارىء يحس فيهِ عاطفة الشعر ويلمح خياله في اساليب وصفه . ولعل عاطفة الشعر هي التي جعلتهُ في بعض الاحايين لا ينسى خصومه حتى في بعض بحثه العلمي او لعله القلب الذي لكل انسان والذي يتألم فيتذكر فيكتب متأثراً بألمهِ وذكراه . وان كان النسيان أروح وأسعد ان أمكن (م م)

فقه اللغة — التذكرة (هامش)

بقلم محمد عبد الجواد (استاذ فقه اللغة بدار العلوم العليا) ١١٢ ص ، قطع المقتطف — مطبعة العلوم ، بشارع الخليج ، القاهرة

قد سبق للمؤلف أن نشر كتاباً في اللغة اسماه « التذكرة » (مطبعة المعارف ، ١٩٣٥) ثم صنع له « تكملة » (مطبعة المعارف ، ١٩٣٦) . واليوم يخرج « التذكرة »، وهي — عندي — أعلى مرتبة وأتم نفعاً مما سبقها

« والتذكرة » انما هي تعليق على الالفاظ التي وضعها مجمع اللغة العربية الملكي في مصر . والتعليق تارةً للموافقة والتعزيز واخرى للمجادلة والنقد . وقد اضاف المؤلف الى التعليق رسم اشكال الالفاظ الموضوعة . وأحسن بهذا العمل الآخر

وللكتاب تمهيد لم أحب أن أذكر بعض ما فيها لصحته : ففي رأي المؤلف ان المجمع ينبغي له « ان ينظم محاضرات ودراسات لغوية ، في أيام الدورة او في غيرها ، يجمع اليها العلماء في مصر على الاقل ... ويحمل الناس على مشاركته في بحثه وعمله .. » ، وأن يكون لهُ مطبعة خاصة وإلاَّ فليتبع مجلته في دار الكتب ، « وأن يرسل النشرات الى المدارس عما اقره من الالفاظ والمصطلحات العلمية والسائرة » وأن يقلع اعضاء المجمع عن « الاستئثار بعمله وحدهم دون ان يشركوا معهم مراسلين او نحوهم .. » وأن « يكثر المجمع من يستشيرهم في المواد الخاصة »

مما يراه المؤلف ولا أراه « ان يشغل المجمع الصحف بجلساته واخباره وتفاصيل ما يدور فيها اولاً فأولاً ، حتى لا تأتي قراراته قارّة في المجلة بعد فوات الوقت » ، ذلك ان المجمع لا يندرج في نواحي الحياة العامة ، وإن هو الاّ لَحَقٌ لوزارة المعارف . فأنّى له ان يشغل الناس بما يقع الى اعضائه من اسباب العلم والادب

بل قل انهُ ينبغي للمجمع ، نهاية كل انعقاد ، ان ينشر شبه بيان بما جرى في جلساته ، حتى يتدبّره المشتغلون باللغة . ولكن هل يُصغي المجمع بآراء الغرباء عنهُ ؟

وأما أعماله فسائرة سير السلحفاة ، للتنازع الذي بين طائفة المجددين فيهِ وطائفة المقلدين . وأما مجلته فتجمع فيها تجمع قصائد مدح وخطب استقبال الى جانب مقالات تردها ، على غير كلفة ، الى ما سطره الائمة المتقدمون ، وأخرَ مجراة على قواعد لا ترجع الى علم عصري صحيح ، وأخر — وهي نادرة — تكشف عن دراية واطلاع وطرافة ، ثم أخر — وهي المتصلة بالالفاظ والاصطلاحات الموضوعة لا تكن عطش الكتاب من ادباء وعلماء ولا عطش الاساتذة والمدرسين

هذا ومن الوجوه التي اصابها المؤلف في تعليقه : ان المجمع ترك « المِسْبَعَة والمِسْبَجَة مع عربيتهما لفظاً واشتقاقاً » ليختار « المالج وهي فارسية » للدلالة على آلة البَنّاء Trnelle (ص٣) — وأن المجمع خص لفظة « المِشْجَرّ » بـ « شمّاعة الدهاليز التي تكون بها مرآة احياناً وبها تنوء تعلق بها المناطف والقلانس ومكان خاص بالعصي والمظلات » على حين « لفظ المشجر كان احق بـ(الشماعة التي أطلق عليها المجمع كلمة مشجب والتي في شكلها فروع كفروع الشجر) ... لمقاربته للفظ وشكل الشجرة » (ص ٤٥) — وثمة اقوال ساقها المؤلف في التعليق لا تكاد تثبت على النظر فيما أظن . منها :

— تفضيلهُ لفظة « القصر » على لفظة « الطِّرز » للدلالة على « الفيلا » (ص ٨) لان « القصر » غلب عليهِ معنى خاص ، وهو يفيد Palace, Palais.

— رأيه انهُ من المستحسن اطلاق لفظ « رب المثوى وربة المثوى » قياساً على « رب البيت وربته » بدلاً مما ذهب اليهِ المجمع ، اي « أبو المثوى وأم المثوى » على رغم صراحة هذا النص الاخير وورودهِ في لسان العرب . (ص ٩)

بقي انهُ مما يؤسف الاسف ان في تضاعيف التذكرة طائفة من الغلطات المطبعية اللاحقة بالالفاظ الافرنجية (مثلاً : ص ٢،س ٢ و١٢ ،ص ٢٣،س١ ،ص ٣٣ ، س ١٦،ص٨٦،س٥) والكتاب في جملتهِ جم الفوائد

ب . ف

الاسلام في العالم [١]

تأليف الدكتور زكي علي — ٤٢٨ صفحة باللغة الانكليزية — طبع لاهور بالهند

هو ذا طبيب مصريٌّ انقلب مؤرخاً واجتماعيًّا . فكان في كتابه هذا صلة بين الشرق والغرب . ذلك بأنهُ قد هالهُ ما رآه في بلدان الغرب من جهلٍ بشؤون الاسلام ومفاخر الحضارة الاسلامية فأخذ على عاتقهِ ان يضع كتاباً مجملاً يستمتع بهِ العامة وترضى عنهُ الخاصة فيكون رسول مودَّة وفهم وعامل استقرار « لان كل خطة أوربية او غربية لا تقيم وزناً للاسلام وما لهُ من قوَّة روحية دافعة نحو الاستقرار لا بدَّ ان تديم الاضطراب والقلق في العالم وهما أصل متاعبه » . المقدمة صفحة X

والكتاب قسمان : الاول وهو يشتمل على تسعة فصول تغلب عليه النظرة التاريخية المشارفة ، فيها يلخص المؤلف تاريخ الاسلام وقواعده ومفاخر حضارته . ثمة فصل في سيرة النبي العربي الكريم . وآخر في الاسلام : دين ونظام اجتماعي . وآخر في الحضارة الاسلامية وهكذا . والبحث في جميع هذه الفصول آية في الوضوح وحسن السياق . والاسناد متعدد النواحي : فالمؤلف رجع الى ما كتبهُ المؤلفون باللغات الافرنجية من انكليزية وفرنسية وألمانية ، ورجوعه الى أمهات الاصول العربية وما نشر في هذا العصر من الكتب والرسائل في الصحف والمجلات

وأنت تخرج من هذه الفصول بصورة حيَّة للدين الاسلامي ، وحيويته ومكانته في التاريخ . ففيها نفع على تصحيح بعض الاخطاء الشائعة في الغرب عن أوامر الاسلام ونواهيه ، كما نفع على بسط طريف في وضوحه قوي في اسناده لمزايا الاسلام وأثره في الحضارة والاجتماع

والقسم الثاني من الكتاب يعالج حاضر الاسلام ونواحي يقظته وتأثيرها في الحياة الدولية ، في أربعة فصول وملحق ، أما الفصل الاول فعنوانهُ يقظة الاسلام والثاني تحرُّر الاسلام والثالث الاسلام والشؤون الدولية والرابع الاسلام والعالم

ففي فصل « يقظة الاسلام » وهو الفصل العاشر يعرض للنهضة السياسية والاقتصادية والفكرية في بلدان الشرقين الأدنى والاوسط . هنا نقع على ذكر الاعمال والمشروعات الكبيرة في هذه الرقعة التاريخية من سطح الكرة . وعنايتهُ بالسياسة والاقتصاد لم تحجب عن عينيه سائر النهضة الفكرية من ادبية وعلمية وما يبذل من السعي لتوثيق عرى التعاون الادبي والعلمي بين البلدان المختلفة . في هذه الصفحات يطالعك ذكر امراء القلم العربي في الشعر والقصة

(١) Islam in the World, by Zaki Ali, Published by Sheikh Muhammad Ashraf Lahore, India.

والتاريخ والنقد والعلم . ولكن البحث في هذه الناحية ليس قائماً على مجرّد السرد بل على السعي لتبيّن التيارات القوية الخفية من اجتماعية وسياسية ودينية وغيرها

ولم يقصر المؤلف عنايته على الادب العربي في هذا الفصل بل عرّج على النهضة الحديثة في الادبين التركي والايراني باعتبارها من الامم الاسلامية . ولم يحصر همّتهُ في اعمال الرجال بل خصَّ بهِ النهضة النسائية كذلك

وأما الفصل الذي يليهِ وهو فصل « تحرُّر الاسلام » فيحتوي على عرض طيّب للتطورات السياسية الحديثة في « تركيا الكمالية » « ومصر المستقلّة » وسوريا وفلسطين وبلاد العرب والعراق وشمال افريقية وإيران البهلوية وافغانستان والهند والشرق الاقصى

يقول المؤلف ما ترجمتهُ في صفحة ٣٨٠و٣٨١و٣٨٢ : « الاسلام ليس ديناً فحسب بل هو كما بيّنا حضارة ايضاً ، فهو لا يرجه الشعائر الدينية فقط بل ويغشى المجتمع كذلك ، انهُ طريقة للحياة ، طريقة للتفكير والعمل ، « نظرة الى العالم » تشمل كلَّ ناحية من النشاط الانساني . . . . ومن الخطإ القول ان الاسلام لا يصلح للتقدم ، بمجرد مراقبتهِ في دور معيَّن من الركود او النكوص الظاهر . ذلك بأن الاسلام يحثُّ على البحث ويحضُّ على العلم ، فنظرتهُ الى التقدم نظرة رضىً . والاسلام قاعدتهُ المساواة الاجتماعية والاقتصادية . . . . ان شعار هذا العصر هو الاتحاد وأعظم حاجتهِ الى الاخاء العالمي . وكلاهما قد حققا ضمن نطاق الاسلام . فجميع المسلمين اخوان ، وهذه الفكرة الحية تجمع حقيقةً بين المسلمين كانهم اعضاء أسرة واحدة . ولا تقام فروق الطبقات واللون في الاسلام ، يستطيع مسلمان من بلدين مختلفين ان يتفاهما بأسرع ما يستطيعهُ عضوان في أية هيئة دولية . . . . .

وعلى هذا النمط من بيان مزايا الاسلام كديانة وحضارة ونظام اجتماعي يختم المؤلف كتابهُ بفصل « الاسلام والعالم » . ولكنهُ يلحق بهِ صفحات تحتوي على احصاءات متنوّعة خاصة بعدد السكان في الاقطار الاسلامية المختلفة ثم يليهِ ثبت المراجع وهو يملأ نحو عشر صفحات ويحتوي على اكثر من مائة وخمسين مرجعاً من الكتب ونحو عشرين مجلة وجريدة

والدكتور زكي علي طبيب مصري اشتغل بمستشفى قصر العيني بالقاهرة ثم سافر الى اوربا في بعثة طبية سنة ١٩٣١ : فانصرفت عنايتهُ هناك الى تأليف هذا الكتاب النفيس ، بلغة انكليزية تشهد لهُ بطول الباع فيها . وقد أهداهُ الى سمو الخديوي السابق عباس حلمي الثاني ، لان سموهُ رعاهُ واسعفهُ بالمال في أثناء اشتغالهِ بتأليف سفره في أحوال مرهقة

والكتاب بوجهٍ عام ليس دفاعاً عن الاسلام في المقام الاول بل هو عرض تاريخي اجتماعي لمزايا الاسلام ودعوة الى اتخاذ هذه المزايا أساساً لنظام عالمي جديد

مصر والطرق الحديدية

تأليف محمد أمين حسونة — صفحاته ٤١٠ قطع وسط

لعلّ هذا الكتاب الاول من نوعه في اللغة العربية — بل في اية لغة على الاطلاق . فهو يتناول تاريخ المواصلات المصرية وبالاخص الطرق الحديدية . فجميع المؤلفات التي دوّن فيها تاريخ مصر الحديث ابى لها مؤلفوها الاّ ان تكون خالية من البحوث المفصلة في شؤون السكك الحديدية ، وغاية ما احرزتهُ من عناية ان لفّ هذا الموضوع المتشعّب في سطور معدودة . وكذلك ظل تاريخ السكك الحديدية في مصر اسراراً متناثرة بين جوانح الاوراق الرسمية والتقارير الفنية لا يظهر منها الاّ النزر اليسير ولا تبدو من احد عناية باستخراج مطويها ولم شتاتها ، الاّ ان يهتم بهذا الشأن فنيٌّ اجنبيٌّ فينشر بلغته بعض الشيء عنهُ

والسكك الحديدية من مقاييس التقدم الاقتصادي في اي بلاد فهي الشرايين الحيوية التي يجري فيها دم الحياة الاقتصادية من بضائع وركّاب . وقد كانت مصر في مقدمة البلدان التي اخذت بالسكك الحديدية ، وتاريخ سككها مرتبط باسماء اعلام الانكليز الذي استنبطوا هذه الطريقة من طرائق المواصلات ، أمثال جورج ستيفنصن وحفيد تريفثك . فقد كان الاول كبير مهندسي السكة والاشغال والثاني رئيساً لمهندسة الوابورات والبها يرجع الفضل في تحسين وسائل النقل بالبخار في مصر

فالموضوع من اي النواحي طرقتهُ ، موضوع شائق مفيد . ومن العار ان ينشأ الطالب المصري وليس يعرف عن شبكة المواصلات الحديدية في وطنهِ الاّ امتدادها من القاهرة الى الاسكندرية وبورسعيد شمالاً والى أسوان جنوباً وما قد يكون لها من فروع

فموقع مصر الجغرافي ، وما بذل من الجهد العظيم لمد السكك الحديدية الاولى في البلاد ، وما سبق ذلك من مفاوضات ، وما يرتبط به من انشاء الكباري العظيمة على النيل لمدّ الخطوط الحديدية عليها ، وتطوّر ذلك وغيره مما يتعلق به من أيام عباس الاول الى عصر جلالة الملك فاروق ، يجب ان يكون فصة تجمع بين نواحي الفذة والفائدة

وقد تكفل بذلك الاستاذ محمد أمين حسونة ، فبعد ان قضى شهوراً يستعد لوضع هذا الكتاب ، بالبحث والتنقيب في المصادر والمراجع الرسمية المتفرقة ، علاوة على الكتب التاريخية لكي يستخرج منها ما كانت عليهِ أسباب المواصلات قبل مدّ السكك الحديدية ، جمع أمرهُ على كتابة هذه الفصول النفيسة ، وقد أشار الى مراجعهِ العربية والاعجمية ، الرسمية وغير الرسمية ، في ثبت نشر في صدر الكتاب ثم خصّ بعضها بالذكر في مقدمتهِ

وقد رفع المؤلف كتابهُ الى مقام صاحب الجلالة الملك قائلاً فيها قالهُ « ومن المآثر التي تفخر بها مصر انها اول دولة في الشرق استخدمت القطار ، وهو رسول المدنية ورمز الحضارة ودليل الرقي ومظهر العمران ، يعمر فيبشر الناس بقوة العلم ومجد الانسان ، ويجري فيحمل اليهم شتى الارزاق والخيرات . . . »

ولم يكتف المؤلف بدراسة تاريخ المواصلات في مصر قبل السكك الحديدية ، ثم تاريخ انشائها وتطورها ، بل عالج كذلك في آخر الكتاب موضوع النقل الماني وظهور السيارة والنقل الجوّي ، وجعلها من الموضوعات الكبيرة الشأن من حيث المنافسة بينهم وبين السكك الحديدية

فالكتاب تاريخي من ناحية ، ومعاصر من ناحية أخرى ، وجميع الذين يهمهم هذا المظهر من النشاط الاقتصادي والاجتماعي في البلاد يجب ان يقتنوهُ

***

ورد الى مكتبة المقتطف الكتب التالية وستتولى الكتابة عنها في أعداد المقتطف التالية

* ادارة الصفوف — وضعهُ الاستاذ أحمد سامح الخالدي — طبع بالمطبعة التجارية بالقدس الشريف

* الانتداب الفلسطيني باطل ومحال — وضعه الاستاذ وديع البستاني — طبع بالمطبعة الاميركية ببيروت

* تربية الحيوان الزراعي — تأليف الدكتور احمد فاضل الخشن — طبع بمطبعة الاعتماد بمصر

* أصول الطب البيطري — تأليف الدكتور ابراهيم نجيب خيرت — طبع بمطبعة الاعتماد بمصر

* مروج الذهب ومعادن الجوهر ٤ أجزاء تصنيف الرحالة ابي الحسن علي المسعودي وقد راجع أصوله ورقمه محي الدين محمد عبد الحميد وطبع بمطبعة دار الرجا ببغداد ويطلب في مصر من مكتبة الشرق الاسلامية ومطبعتها بشارع محمد علي

* الخواص الطبيعية للاراضي الزراعية — تأليف السيد محمد البحيري وحسن مصطفى كامل — طبع بمطبعة وادي النيل بمصر

* فن الجراثيم الجزء الرابع في تذكرة الجراثيمي في مخبره — تأليف الدكتور أحمد حمدي الخياط — طبع بمطبعة الترقي بدمشق

* أصول المحاكمات الحقوقية ، دروس نظرية وعملية للاستاذ فارس الخوري — طبع بمطبعة الجامعة السورية بدمشق

* التشريح المرضي والجنائي بقلم الدكتور محمد زكي شامي والدكتور لبيب شحاته — طبع بمطبعة أمين عبد الرحمن بمصر

* احياء النحو لابرهيم مصطفى — طبع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر

* معلومات مدنية — تأليف محمود السايدي — طبع بدار الطباعة والنشر الفلسطينية في صفد — فلسطين

* فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية — تأليف عيسى السفري — طبع في مطبعة مكتبة فلسطين الجديدة يافا

* تربية الخيول العربية الجزء الثاني — تأليف صاحب السمو الملكي الامير محمد علي — طبع بمطبعة علي عثماني بمصر

* على حافة العالم الاثيري — ترجمة الاستاذ احمد نهمي ابو الخير — طبع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر

* البيان والبديع وضع وتصنيف الاسدي م . خير الدين — طبع بمطبعة العصر الجديد — حلب

* شطب الصادرات الجارحة من المذكرات والاحكام — لجيل خانكي طبع بالمطبعة العصرية بمصر

* الفؤاديات ديوان شعر للمرحوم فؤاد بك محمد جمعهٔ الاديب عبد القادر يوسف طبع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر

* ضحايا مصر في السودان وخفايا السياسة الانكليزية طبعت بمطبعة النير بالاسكندرية

* مطبوعات اتحاد اساتذة الرسم في الفنون الاسلامية للدكتور زكي محمد حسن طبعت بمطبعة الاعتماد بمصر

* البلنديات ديوان شعر للشيخ حمد اسعد زخريا طبع بمطبعة ابو الهول بالبرازيل

* خطرات الشعور منتخبات من قصائد ومقالات لديمتري بك خلاط طبعت بمطبعة البصير في الاسكندرية

* صور ولمحات من حياة طالب في اوربا تأليف جورج وهبه العفي طبعت بمطبعة المجلة الجديدة

* اسرار الانقلاب وضعهٔ السيد عبد الرزاق الحسني طبع بمطبعة العرفان بصيدا

***

مطبوعات مجلة المكشوف

اهدت الينا دار مجلة المكشوف اليروتية طائفة مختارة من مطبوعاتها الادبية والاجتماعية وهي

١ — كان ما كان — بقلم ميخائيل اميمه
٢ — قميص الصوف — بقلم توفيق يوسف عوّاد
٣ — انياب المرصود — بقلم عمر فاخوري
٤ — عمر افندي — بقلم لطفي حيدر
٥ — المجدلية — بقلم سعيد عقل
٦ — ليلة القدر — بقلم احمد مكي
٧ — اوجوحة القمر — بقلم صلاح لبكي
٨ — الاشتراكية العملية — بقلم ابرهيم حدّاد

فهرس الجزء الثاني

من المجلد الثالث والقسمين

١٣٣ تفسير طبائع العناصر بعدد الكهيربات وترتيبها حول النواة
١٤٠ اسكر (قصيدة) : للشاعر الفرنسي بودلير . نقلها خليل هنداوي
١٤١ تقدم علوم الطب : للدكتور شريف عسيران
١٤٩ اثر الحرب العامة في الادب العربي السياسي : لانيس المقدسي
١٥٦ فكتور هيجو شاعر الشعراء (قصيدة) : لراجي الراعي
١٥٧ الصدمة التي تشفي: علاج الخبل بالانسولين وتأثير صدمته في المدمنين
١٦٠ اثر الماركسية في الادب : لحليم منزي
١٦٩ الانسان المجهول : تلخيص اسماعيل مظهر
١٧٣ نجم الغز العجيب في صودة مسك الاعنة
١٧٧ سنابل من حقول العلم
١٨١ التصوف في الاسلام : للدكتور احمد غلوش
١٩٧ قبلة الروح ! ! (قصيدة) : لمحمد فهمي
١٩٨ حضارة اليمانيين : بقلم قيصر صادر
٢٠٤ قبل ان تسكت الحياة ... (قصيدة) : لمحمد عبد الغني حسن
٢٠٥ الاسلام والرفق بالحيوان : للشيخ احمد مصطفى المراغي
٢١٠ كتابان من مصر يرجع تاريخهما الى القرون الوسطى : لبنت الحارث
٢١٣ مدام كوري : بقلم ايف كوري : نقله الآنسة ميرفا عبيد

٢٢٩ في الفن الايراني : للدكتور زكي حسن
٢٤١ ايران الحديثة ووجوه نهضتها الباهرة

٢٤٨ مكتبة المقتطف * الجزء الثامن من الاكليل : ترجمة نقولا امين فارس. كتاب الشذرات : تأليف الدكتور احمد زكي ابو شادي فقه اللغة — التذكرة (هامش) تأليف محمد عبد الجواد. الاسلام في العالم : تأليف الدكتور زكي علي . مصر والطرق الحديدية: تأليف محمد امين حسونه. مطبوعات مجلة المكشوف ومطبوعات عربية أخرى

الشكل (٤٥)